بسم الله الرحمن الرحيم

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

الجزء الثالث عشر

التفسير المنير

في العقيدة والشريعة والمنهج

في آخر الكتاب فهرسة الفبائية شاملة

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم

الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي

رئيس قسم الفقه الإسلامي وعميد كلية الشريعة في جامعة دمشق

الجزء الثالث عشر

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

٢٠

النّفس الأمّارة بالسّوء

﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ ما رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)﴾

البلاغة :

﴿لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ أمّارة : من صيغ المبالغة ، على وزن «فعّال» مبالغة في وصف النّفس بالاندفاع نحو المعاصي والمهالك.

المفردات اللغوية :

﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ من الزّلل أو السّوء. ﴿إِنَّ النَّفْسَ﴾ جنس النّفس. ﴿لَأَمَّارَةٌ﴾ كثيرة الأمر ، مائلة بالطبع إلى الشّهوات. ﴿إِلَّا ما﴾ بمعنى «من». والمعنى إلّا من رحم ربّي من النّفوس فعصمه ، أو إلا وقت رحمة ربّي ، وقيل : إن الاستثناء منقطع ، أي ولكن رحمة ربّي هي التي تصرف الإساءة.

والآية على الرّاجح حكاية قول امرأة العزيز : زليخا أو راعيل ، والمستثنى نفس يوسف وأمثاله. وقيل : ذلك من قول يوسف ، والمعنى : لا أنزهها ، تنبيها على أنه لم يرد بذلك تزكية نفسه والعجب بحاله ، بل إظهار ما أنعم الله عليه من العصمة والتّوفيق.

المناسبة :

هذه الآية من تتمة كلام امرأة العزيز ، متّصلة بما قبلها ، قال أبو حيان : الظاهر أن هذا كلام امرأة العزيز ، وهو داخل تحت قوله : ﴿قالَتِ﴾ والمعنى : ذلك الإقرار والاعتراف بالحقّ ، ليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته ، والذّبّ عنه ،

وأرميه بذنب هو منه بريء ، ثم اعتذرت عمّا وقعت فيه مما يقع فيه البشر من الشّهوات بقولها : ﴿وَما أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾ ، والنّفوس مائلة إلى الشّهوات ، أمّارة بالسّوء [١]. وكذلك قال ابن كثير : هذا القول أقوى وأظهر : لأن سياق الكلام كله من امرأة العزيز بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك [٢].

التفسير والبيان :

قالت امرأة العزيز : الآن حصحص الحقّ ، وليعلم يوسف أنّي لم أخنه في غيبته ، وهو سجين ، أو ليعلم زوجي أني لم أخنه بيوسف ، وأني لم أرتكب الفاحشة ، فلم يحدث مني إلا مجرد المراودة أو المغازلة ، فامتنع وأبى ولاذ بالفرار ، ولا أنزّه نفسي من الزّلل والخطأ ، إن النّفوس ميّالة بالطّبع إلى الشّهوات والأهواء.

إلا من رحمه الله الخالق ، فصرف عنه السّوء والفحشاء كيوسف وأمثاله.

ولكني لا أيأس من رحمة الله ، إنّ ربّي كثير المغفرة ، رحيم بالعباد.

وفي قول مرجوح : إن هذه الآية حكاية لقول يوسف ، بمعنى : ليعلم العزيز أني لم أخنه في زوجه أثناء غيبته ، وحال ثقته بي ، وائتمانه على عرضه ، وما أبرئ نفسي البشريّة من خواطر القلب ، فكلّ نفس ميّالة بالطّبع للشّهوات والأهواء ، إلا النّفس التي عصمها الله من الانزلاق في المعاصي ، ووفقها للاستقامة ، وتلك هي نفس الأنبياء ، وسيرة الصّلحاء ، إنّ ربّي غفّار لذنوب المخطئين ، رحيم بهم إذا بادروا إلى التّوبة والإنابة والتّضرّع إلى الله ، ليخلصهم من آثار الذّنوب ، ويطهّر نفوسهم من شوائب المعاصي.

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٣١٧

(٢) تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٨٢

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية على أنّ أكثر النّفوس نزّاعة للشّهوة ، ميّالة للهوى ، ذات نزعة شريرة ، تحتاج إلى مجاهدة ومكافحة ومراقبة وتحذير. جاء في الخبر عن النّبي ﷺ : «ما تقولون في صاحب لكم ، إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شرّ غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية؟! قالوا : يا رسول الله! هذا شرّ صاحب في الأرض. قال : فو الذي نفسي بيده إنها لنفوسكم التي بين جنوبكم».

واستدلّ أهل السّنّة بآية : ﴿إِلَّا ما رَحِمَ رَبِّي﴾ على أن الطّاعة والإيمان لا يحصلان إلا من الله ، وعلى أن انصراف النّفس من الشّر لا يكون إلا برحمته.

ودلّت الآية أيضا على مدى فضل الله وإحسانه فهو غفور لذنوب عباده ، رحيم بهم إذا هم تابوا وأنابوا وأحسنوا العمل ، أي يغفر للمستغفر لذنوبه ، المعترف على نفسه ، ويرحمه ما استغفره واسترحمه مما ارتكبه.

الفصل التّاسع من قصّة يوسف يوسف

في رئاسة الحكم ووزارة الماليّة

﴿وَقالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قالَ اجْعَلْنِي عَلى خَزائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)﴾

المفردات اللغوية :

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي﴾ أجعله خالصا لنفسي دون شريك. ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ﴾ أي فلما أتوا به فكلّمه ، وشاهد منه الرّشد والدّهاء. ﴿مَكِينٌ﴾ ذو مكانة ومنزلة. ﴿أَمِينٌ﴾ مؤتمن على كلّ شيء. ﴿خَزائِنِ الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ذو حفظ وعلم بأمرها ، وقيل : كاتب حاسب.

﴿وَكَذلِكَ﴾ أي كإنعامنا عليه بالخلاص من السّجن. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مصر. ﴿يَتَبَوَّأُ مِنْها حَيْثُ يَشاءُ﴾ ينزل من بلاد مصر أي مكان أراد ، فصار صاحب الأمر والحكم بعد الضّيق والحبس. وفي القصّة كما يقول السّيوطي : أن الملك توّجه وختّمه وولاه مكان العزيز ، وعزله ، ومات بعد ، فزوّجه امرأته ، فوجدها عذراء ، وولدت له ولدين ، وأقام العدل بمصر ، ودانت له الرّقاب.

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنا مَنْ نَشاءُ﴾ في الدّنيا والآخرة. ﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ بل نوفّي أجورهم عاجلا وآجلا. ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ من أجر الدّنيا. ﴿وَكانُوا يَتَّقُونَ﴾ الشّرك والفواحش ، لعظمه ودوامه.

المناسبة :

بعد أن تحقق الملك الأكبر من أمر النّسوة بناء على طلب يوسف عليه السلام ، وظهرت له براءته وعفّته ، طلب إحضاره إليه من السّجن ، ليصطفيه لنفسه ، فلما سمع منه تعبير رؤياه ، أعجب به وبعلمه وحسن أدبه ، وأعزّه وأنزله لديه مكانة عالية ، وآمنه على نفسه ، وائتمنه على كلّ شيء ، وسلّمه مقاليد الحكم والسّلطة ، وفوّض إليه تصريف وإدارة الأمور السياسيّة والماليّة في جميع أنحاء مصر.

التفسير والبيان :

المراد بالملك هنا : الملك الأكبر ، وليس العزيز على الرّأي الرّاجح ، لطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض ، ولأنه كان قبل ذلك خالصا للعزيز ، والآن يريد الملك الأكبر (الرّيان بن الوليد) استخلاصه لنفسه.

والمعنى : وقال الملك : أحضروه إليّ من سجنه ، أجعله من خاصّتي وأهل مشورتي وموضع ثقتي ، فلما خاطبه الملك وتعرّف عليه ، ورأى فضله وعلمه وبراعته ، وحسن أدبه ، وسموّ أخلاقه ، قال له : إنك عندنا اليوم وما بعده أصبحت ذا مكانة وعزّة وأمانة تؤتمن على كلّ شيء في أمور الحكم ، وصاحب التّصرف التّام في شؤون البلاد.

روي أن يوسف لما خرج من السّجن اغتسل وتنظّف ولبس ثيابا جددا ، فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك من خيره ، وأعوذ بعزّتك وقدرتك من شرّه ، ثم سلّم عليه بالعربيّة ، فقال الملك : ما هذا اللسان؟ فقال : لسان عمي إسماعيل ، ودعا له بالعبريّة ، فقال : ما هذا اللسان؟ قال : لسان آبائي.

وكان إبراهيم وأولاده وحفدته من العرب القحطانيين ، وكان ملوك مصر من العرب الذين يسمون بالرّعاة (الهكسوس).

قال يوسف : اجعلني أيها الملك على خزائن الأرض : وهي الخزن التي تخزن فيها الغلال ، وهي الأهرام التي يجمع فيها الغلّات لما يستقبلونه من السّنين التي أخبرهم بشأنها ، أي ولّني عليها ، لأشرف عليها ، وأتصرّف فيها حتى أجعل توازنا اقتصاديا بين سنوات الخصب وسني القحط ، فأنقذ البلاد من المجاعة التي تهدد أهلها ، بحسب الرؤيا التي رأيت ؛ لأني حفيظ عليم ، أي خازن أمين ، ذو علم وبصيرة بما يتولاه. وفي هذا إيماء لأهمية التّخطيط والتّنظيم المالي وإقامة التوازن بين الموارد الماليّة والنفقات.

فأجابه الملك إلى طلبه ، وجعله وزير المال والخزانة ، وأطلق له سلطة التّصرف في شؤون الحكم ، لما لمس لديه من رجاحة عقل ، وخبرة وضبط وسياسة ، وحسن تصرّف ، وقدرة على إحكام النّظام.

﴿وَكَذلِكَ مَكَّنَّا ..﴾ أي ومثل هذا الإنعام الذي أنعمنا على يوسف في

تقريبه إلى قلب الملك ، وإنجائه من السّجن ، مكّنّا له في الأرض ، أي أقدرناه على ما يريد ، وجعلنا له مكانة ومنزلة في أرض مصر ، فانتقل من كونه مملوكا إلى أن أصبح مالكا آمرا ناهيا ، ذا نفوذ وسلطة ، مطاعا بعد أن كان تابعا لغيره مطواعا ، حرّا طليقا بعد أن كان سجينا أسيرا ، وذلك لما تحلّى به من صبر ، وإطاعة لله عَزَّوَجَلَّ ، وعفّة وخلق وعقل حكيم ، فإنه صبر على أذى إخوته ، وفي الحبس بسبب امرأة العزيز ، وعفّ عن السّوء والفحشاء ، وامتنع من اقتراف المنكر ، فأعقبه الله النّصر والتّأييد ، وأصبح في منصب سيّده السّابق الذي اشتراه من مصر ، العزيز زوج التي راودته ، قال مجاهد : وأسلم الملك على يدي يوسف عليه السلام .

وما أضاعه ربّه ورحمه وصانه ، والله تعالى يخصّ برحمته من يشاء ورحمته وسعت كل شيء ، فيعطي الملك والغنى والصّحة ونحوها من يريد من عباده. وقوله تعالى : ﴿بِرَحْمَتِنا﴾ أي بإحساننا ، والرّحمة : النّعمة والإحسان.

﴿وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا نضيع ثواب الذين يحسنون أعمالهم ، فنمنحهم في الدّنيا سعادة وعزّا ومكانة ، وفي الآخرة خلودا في الجنان.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ ..﴾ أي إنّ ثواب الآخرة للمؤمنين الأتقياء ، وهو التّنعم في الجنان خير وأعظم وأكثر من خير الدّنيا وما فيها من متاع العزّ والسّلطان ، والجاه والملك ، والمال والزّينة ونحو ذلك.

والله تعالى يخبر بهذا أن ما ادّخره لنبيّه يوسف عليه السلام في الدّار الآخرة أعظم وأكثر وأجلّ مما أنعم عليه من التّصرّف والنّفوذ في الدّنيا ، كقوله في حقّ سليمان عليه السلام : ﴿هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ. وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص ٣٨ / ٣٩ . ٤٠].

ومن جمع له الله السّعادتين في الدّنيا والآخرة ، كان فضل الله عليهم أكثر ،

وعطاؤه أتمّ ، لقيامهم بواجب الطّاعة ، واجتنابهم المعصية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى ما يلي :

١ ـ إنّ الحوار وسيلة التّعارف والتّعرف على فضائل الإنسان ومعارفه ، وبه يزن العاقل مقادير الرّجال.

٢ ـ إن المقوّمات العالية من علم وخلق وأدب وحسن تصرّف تبوئ صاحبها المنزلة السّامية والمكانة الرّفيعة.

٣ ـ يجوز طلب الولاية وإظهار كون الشّخص مستعدّا لها ، إذا كان من أجل التّعريف للمغمور غير المعروف ، وكان الشّخص واثقا من نفسه ودينه وعلمه ، وأهلا لما يطلب.

وأما النّهي عن طلب الإمارة في قوله ﷺ لعبد الرّحمن بن سمرة فيما أخرجه الشيخان: «لا تسأل الإمارة» والنّهي عن مدح النّفس في قوله تعالى : ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النجم ٥٣ / ٣٢] فالمراد به في الحديث لمن لا يثق بنفسه من القيام بحقّ الولاية لضعفه وعجزه ، أو لأغراض نفسه ، والمراد بالآية تزكية النّفس حال العلم بكونها غير متزكية ، وكل من المحذورين لا ينطبق على النّبي يوسف عليه السلام وأمثاله الأنبياء ، لأنه يجب عليه رعاية مصالح الأمة بقدر الإمكان ، ولأن السّعي في إيصال النّفع إلى المستحقين ودفع الضّرر عنهم أمر مستحسن في العقول ، وعلم يوسف أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح وتوصيل الحقوق إلى الفقراء ، فرأى أن قيامه بهذه الأمور فرض متعيّن عليه ، وقال يوسف عن نفسه: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ عند من لا يعرفه ، فأراد تعريف نفسه.

٤ ـ يباح للرّجل الفاضل أن يعمل للرّجل الفاجر ، والسّلطان الكافر ، إذا علم أنه لا سبيل إلى إقامة الحقّ وسياسة الخلق إلا بالاستعانة به ، وكان مفوّضا في فعله لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء. وأما إذا كان عمله بحسب مراد الفاجر وهواه ، فلا يجوز.

فإن كان المولّي ظالما فللعلماء قولان : أحدهما ـ جواز تولّي العمل له إذا عمل بالحقّ فيما تقلّده : لأن يوسف عليه السلام ولّي من قبل فرعون ، ولأن الاعتبار بفعله لا بفعل غيره.

الثاني : أنه لا يجوز ذلك : لما فيه من إعانة الظّالم على ظلمه ، وتزكيته ودعمه وتأييده بتقلّد أعماله. وأما فرعون يوسف فكان صالحا ، وعن مجاهد : أن الملك أسلم على يده. وإنما الطّاغي فرعون موسى ، ثم إنّ يوسف نظر في مصالح الأمة والبلاد وأملاك الملك دون أعماله ، فزالت التّبعة عنه.

٥ ـ للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل إذا دعته الضرورة إليه ، كالكسب المعيشي ونحوه.

٦ ـ قوله تعالى : ﴿**وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ شهادة من الله تعالى على أن يوسف عليه السلام كان من المحسنين.

٧ ـ غمرت رحمة الله وفضله وإحسانه يوسف عليه السلام لصبره وتقواه ، وإنه سبحانه ما أضاع يوسف لصبره في الجبّ ، وفي الرّقّ ، وفي السّجن ، وعلى أذى إخوته ، وصبره عن محارم الله عما دعته إليه المرأة.

٨ ـ إن ثواب الآخرة وعطاء الله فيها أجلّ وأعظم وأكثر من عطاء الدّنيا لمن كان مؤمنا تقيّا ، لأن أجر الآخرة دائم ، وأجر الدّنيا منقطع ، وظاهر الآية : ﴿**وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ** ...﴾ العموم في كلّ مؤمن متّق ، وهي تدلّ دلالة خاصة على

فضل الله على يوسف عليه السلام ، فإن ما سيعطيه الله له في الآخرة خير وأفضل مما أعطاه إيّاه في الدّنيا من الملك والسّلطان والمكانة والسّمو.

ودلّت هذه الآية بخصوصها على أن يوسف عليه السلام من الذين آمنوا وكانوا يتّقون ، وهذا تنصيص من الله عزّ وجلّ .

والخلاصة :

تضمّنت الآيات شهادتين من الله تعالى ليوسف عليه السلام الأولى أنه كان من المحسنين ، والثانية أنه كان من المؤمنين المتّقين. ودلّت آية أخرى وهي : ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ على أنه من المخلصين ، فصارت الشّهادات من الله تعالى ليوسف ثلاثة : كونه من المتّقين ، ومن المحسنين ، ومن المخلصين. وسبب هذه الشّهادات الصّبر على مراد الله فيه ، والطّاعة والتّقوى وإخلاص العمل وصفاء النّفس من الأحقاد والضّغائن.

الفصل العاشر من قصة يوسف

أولاد يعقوب يشترون القمح من أخيهم يوسف

ومطالبته إياهم بإحضار أخيهم

﴿وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ قالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ (٦٠) قالُوا سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ وَإِنَّا لَفاعِلُونَ (٦١) وَقالَ لِفِتْيانِهِ اجْعَلُوا بِضاعَتَهُمْ فِي رِحالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها إِذَا انْقَلَبُوا إِلى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)﴾

البلاغة :

﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ بين عرف وأنكر : طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَجاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ وهم أحد عشر إلا بنيامين ليمتاروا لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الطعام بثمنه. ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ أنهم إخوته ، والمعرفة وعرفان الشيء : التّفكّر في أثره. ﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ الإنكار : ضدّ المعرفة ، أي أنهم لم يعرفوه لبعد عهدهم به وظنّهم هلاكه. ﴿جَهَّزَهُمْ﴾ أو في لهم كيلهم من القمح الذي جاؤوا لطلبه من عنده ، أي جعله تاما وافيا. وجهاز السّفر : أهبته وحوائجه ، وجهاز العروس : حوائج الزّفاف. ﴿بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ﴾ أي بنيامين لأعلم صدقكم فيما قلتم. ﴿أُوفِي الْكَيْلَ﴾ أتمّه من غير بخس. ﴿الْمُنْزِلِينَ﴾ المضيفين الضيوف ، وكان أحسن إنزالهم وضيافتهم.

﴿فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي﴾ أي ميرة. ﴿وَلا تَقْرَبُونِ﴾ نهي أو عطف على محل : ﴿فَلا كَيْلَ﴾ أي تحرموا ولا تقربوا ، أي فلا تقربوني ولا تدخلوا دياري. ﴿سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه ، ونستميله لتحقيق هذه الرّغبة برفق. ﴿وَإِنَّا لَفاعِلُونَ﴾ ذلك لا نتوانى فيه. ﴿لِفِتْيانِهِ﴾ لغلمانه الكيالين ، جمع فتى. ﴿بِضاعَتَهُمْ﴾ ثمن ما أتوا به من الطعام ، وكانت دراهم فضة ، وإنما فعل ذلك توسيعا وتفضّلا عليهم وترفّعا من أن يأخذ ثمن الطّعام منهم. ﴿فِي رِحالِهِمْ﴾ أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَها﴾ لعلهم يعرفون حقّ ردّها ، أو لكي يعرفوها. ﴿إِذَا انْقَلَبُوا﴾ انصرفوا ورجعوا إلى أهلهم ، وفتحوا أوعيتهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل معرفتهم ذلك تدعوهم إلى الرّجوع.

أضواء من التّاريخ :

قال ابن عباس وغيره [١] : لما أصاب النّاس القحط والشدّة ، ونزل ذلك بأرض كنعان ، بعث يعقوب عليه السلام ولده للميرة ، وذاع أمر يوسف عليه السلام في الآفاق ، للينه وقربه ورحمته ورأفته وعدله وسيرته ، وكان يوسف عليه السلام حين نزلت الشّدّة بالنّاس يجلس عند البيع بنفسه ، فيعطيهم من الطعام على عدد رؤوسهم ، لكلّ رأس وسقا [٢].

---

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٢٢٠

(٢) الوسق : ستون صاعا ، والصّاع (٢٧٥١ غم) ، وعند الحنفيّة (٣٩٠٠ غم).

وذكر السّدّي ومحمد بن إسحاق وغيرهما من المفسرين : أن السّبب الذي من أجله أقدم إخوة يوسف بلاد مصر : أن يوسف عليه السلام ، لما باشر الوزارة بمصر ، ومضت السّبع السّنين المخصبة ، ثم تلتها السّبع السّنين المجدبة ، وعمّ القحط بلاد مصر بكمالها ، ووصل إلى بلاد كنعان : وهي التي فيها يعقوب عليه السلام وأولاده ، وحينئذ احتاط يوسف عليه السلام للنّاس في غلّاتهم ، وجمعها أحسن جمع ، فحصل من ذلك مبلغ عظيم ، وهدايا متعددة ، وورد عليه الناس من سائر الأقاليم والمعاملات ، يمتارون لأنفسهم وعيالهم ، فكان لا يعطي الرّجل أكثر من حمل بعير في السّنة ، وكان عليه السلام لا يشبع نفسه ، ولا يأكل هو والملك وجنودهما إلا أكلة واحدة في وسط النّهار ، حتى يتكفأ الناس بما في أيديهم مدّة السّبع السنين ، وكان رحمة من الله تعالى على أهل مصر [١].

وغير هذه الرّوايات هي من الإسرائيليات.

التفسير والبيان :

وجاء إخوة يوسف عليه السلام من أرض كنعان (فلسطين) إلى مصر ، يطلبون شراء القمح ، لأن القحط عمّ بلاد الشّام ومصر ، لما بلغهم أن عزيز مصر يعطي الناس الطعام بثمنه.

فلما دخلوا على يوسف ، وهو في منصبه الرّفيع ، عرفهم حين نظر إليهم ، لأن ملامح الكبار لا تتغيّر كثيرا ، وهم له منكرون ، أي لا يعرفونه ، لأنهم فارقوه ، وهو صغير حدث ، وباعوه للسّيّارة ، والملامح في حال الصّغر تتغيّر كثيرا في حال الكبر ، ولأنهم قدروا هلاكه ، وما دار في خلدهم أنه سيصير إلى ما صار إليه ، ولنسيانهم له بطول العهد.

وزاد في الأمر أنه ـ كما ذكر السّدّي ـ شرع يخاطبهم ، فقال لهم كالمنكر

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٨٣

عليهم : ما أقدمكم بلادي؟ فقالوا : أيّها العزيز ، إنّا قدمنا للميرة ، قال : فلعلكم عيون؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبيّ الله ، قال : وله أولاد غيركم؟ قالوا : نعم ، كنّا اثني عشر ، فذهب أصغرنا هلك في البريّة ، وكان أحبّنا إلى أبيه وبقي شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلّى به عنه ، فأمر بإنزالهم وإكرامهم.

لكن يبعد من يوسف عليه السلام أن يتّهم إخوته وينسبهم إلى أنهم جواسيس وعيون ، لأنه يعرف براءتهم عن هذه التّهمة. وعلى كل حال إنه سؤال لا يقتضي صحته.

ولما جهّزهم بجهازهم ، أي لما أوفى لهم كيلهم ، وحمل أحمالهم من القمح ، وهي عشرة أحمال وزادهم حملين آخرين لأبيهم وأخيهم ، قال : ائتوني في المرة القادمة بأخ لكم من أبيكم؟ وهو بنيامين ، ألا ترون أني أتمّ لكم الكيل الذي تريدون دون بخس ، وأزيدكم حمل بعير آخر لأجل أخيكم ، وأنا خير المنزلين ، المضيفين للضيوف ، وكان أحسن ضيافتهم؟ وقصده من ذلك ترغيبهم في الرّجوع إليه ، وكان السّبب في سؤال يوسف عن حال أخيهم أنهم ذكروا أن لهم أبا شيخا كبيرا وأخا بقي في خدمة أبيه ، ولا بدّ لهما أيضا من شيء من الطعام ، فجهّز لهما أيضا بعيرين آخرين من الطعام ، فقال يوسف : فهذا يدلّ على أن حبّ أبيكم له أزيد من حبّه لكم ، فجيئوني به حتى أراه.

ثم أنذرهم بقوله : ﴿**فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي**﴾ أي إن لم تقدموا به في المرة الثّانية فليس لكم عندي ميرة ، ﴿**وَلا تَقْرَبُونِ**﴾ أي ولا تدخلون بلادي.

﴿**قالُوا : سَنُراوِدُ عَنْهُ أَباهُ**﴾ سنجتهد في طلبه من أبيه ، ونحاول إقناعه بذلك برفق ، وإنّا لفاعلون ذلك لا محالة ، أي سنحرص على مجيئه إليك بكلّ إمكاناتنا ولا نبقي مجهودا نبذله ، لتعلم صدقنا فيما قلناه.

وقال لفتيانه أي لغلمانه ، اجعلوا بضاعتهم في رحالهم أي اجعلوا البضاعة التي اشتروا بها الطعام ، وقدموا بها للميرة معاوضة ، في أمتعتهم التي لهم من حيث لا يشعرون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ..﴾ لعلهم يعرفون حقّ ردّها وحقّ إكرامنا لهم بإعادتها إليهم ، لعلهم يرجعون إلينا ، بعد عودتهم إلى أهلهم ، وفتح متاعهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ قد لا يعرف الأخ أخاه بسبب طول العهد والمدّة ، لا سيما إذا تبدل حال الأخ من أدنى درجات الحال إلى أعلاها ، مما يبعد عن التّصور في الذّهن احتمال معرفته.

٢ ـ تحقيق الغايات قد يستعمل من أجله التّرغيب والتّرهيب معا ، كما فعل يوسف من أجل إحضار أخيه بنيامين ، فالتّرغيب هو قوله : ﴿أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ ، وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ ، والتّرهيب هو قوله : ﴿فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ ، فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلا تَقْرَبُونِ﴾ لأنهم كانوا في نهاية الحاجة إلى تحصيل الطعام ، وما كان يمكنهم تحصيله إلا من عنده ، فإذا منعهم من الحضور عنده ، كان ذلك نهاية التّرهيب والتّخويف.

٣ ـ اتّفق أكثر المفسّرين على أن إخوة يوسف ما كانوا عالمين بجعل البضاعة في رحالهم.

٤ ـ السّبب الذي لأجله أمر يوسف بوضع بضاعتهم في رحالهم : هو ترغيبهم في العود إليه ، والحرص على معاملته ، حينما يعلمون أن بضاعتهم ردت إليهم ، كرما من يوسف ، وسخاء محضا.

٥ ـ استجاز يوسف إدخال الحزن على أبيه بطلب أخيه ، لأنه يجوز أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ أمره بذلك ابتلاء ليعقوب ، ليعظم له الثّواب ، فاتّبع أمره فيه ، وهذا هو الأظهر كما قال القرطبي. وربّما كان السّبب تنبيه أبيه على حاله ، أو لتتضاعف المسرّة لأبيه برجوع ولديه عليه ، أو إيثارا لأخيه بالاجتماع معه قبل إخوته ، لميله إليه.

الفصل الحادي عشر من قصّة يوسف

مفاوضة إخوة يوسف أباهم لإرسال أخيهم بنيامين معهم في المرة القادمة

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلى أَبِيهِمْ قالُوا يا أَبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنا أَخانا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (٦٣) قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤) وَلَمَّا فَتَحُوا مَتاعَهُمْ وَجَدُوا بِضاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قالُوا يا أَبانا ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا وَنَمِيرُ أَهْلَنا وَنَحْفَظُ أَخانا وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قالَ اللهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)﴾

الإعراب :

﴿خَيْرٌ حافِظاً﴾ وقرئ : حفظا : وهما منصوبان على التّمييز ، مثل قولهم : لله درّه فارسا. ﴿ما نَبْغِي﴾ : ما : استفهامية في موضع نصب ، لأنها مفعول ﴿نَبْغِي﴾ وتقديره: أي شيء نبغي. ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ اللام لام القسم.

﴿إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾ قال الزمخشري : هذا استثناء متّصل ، مفعول له أي لأجله ، والكلام المثبت الذي هو قوله : ﴿لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ في تأويل المنفي ، ومعناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أي لا تمتنعون منه لعلة من العلل إلا لعلة واحدة ، وهي أن يحاط بكم.

المفردات اللغوية :

﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ حكم بمنعه بعد هذا إن لم ترسل أخانا بنيامين. ﴿نَكْتَلْ﴾ نتمكن من اكتيال ما نحتاج إليه. ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ من أن يناله مكروه. ﴿قالَ﴾ يعقوب لهم ﴿هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَما أَمِنْتُكُمْ عَلى أَخِيهِ﴾ أي ما آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه يوسف من قبل ، وقد قلتم فيه : ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ﴾ ثم فعلتم به ما فعلتم.

﴿فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً﴾ فأتوكّل عليه وأفوض أمري إليه. ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فأرجو أن يرحمني بحفظه ، ولا يجمع عليّ مصيبتين. ﴿ما نَبْغِي﴾ ما : استفهامية ، أي : أيّ شيء نطلب من إكرام الملك أعظم من هذا؟ وكانوا ذكروا له إكرامه لهم. ﴿هذِهِ بِضاعَتُنا رُدَّتْ إِلَيْنا﴾ استئناف موضح لقوله : ﴿ما نَبْغِي﴾.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنا﴾ نأتي بالميرة لهم وهي الطعام ، وهو معطوف على محذوف ، أي ردّت إلينا ، فنستظهر بها ، ونمير أهلنا بالرّجوع إلى الملك. ﴿وَنَحْفَظُ أَخانا﴾ من المخاوف في ذهابنا وإيابنا. ﴿وَنَزْدادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ لأخينا ، أي مكيل بعير. ﴿ذلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ سهل على الملك لسخائه ، أو سهل لا عسر فيه لتوافر الغلال لديه.

﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً﴾ حتى تعطوني عهدا. ﴿مِنَ اللهِ﴾ بأن تحلفوا به. ﴿إِلَّا أَنْ يُحاطَ بِكُمْ﴾ بأن تموتوا أو تغلبوا ، فلا تطيقوا ذلك ولا تستطيعوا الإتيان به ، وهو استثناء مفرّغ من أعمّ الأحوال ، والتّقدير : لتأتنني به على كل حال إلا حال الإحاطة بكم. ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أعطوه عهدهم بذلك. ﴿قالَ : اللهُ عَلى ما نَقُولُ﴾ من طلب الموثق وإتيانه ﴿وَكِيلٌ﴾ شهيد ، ورقيب مطّلع.

المناسبة :

الكلام وثيق الصّلة بما قبله ، فبعد أن ذكر الله تعالى مطالبة يوسف عليه السلام إخوته بإحضار أخيه بنيامين ، ذكر هنا مفاوضتهم أباهم لإنجاز المطلوب ، وإبداءه مخاوفه عليه كمخاوفه القديمة التي أظهرها عند ما تآمروا على أخذ يوسف عليه السلام للصّحراء بقصد الرّتع واللعب.

التفسير والبيان :

حينما رجع أولاد يعقوب إلى أبيهم قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم : إن عزيز مصر منع عنّا الكيل في المستقبل إن لم ترسل معنا أخانا بنيامين ، فإن لم ترسله لا نكتل ، فأرسله معنا نكتل من الطعام بقدر عددنا ، وإنّا له لحافظون من كلّ مكروه وسوء في الذّهاب والإياب ، فلا تخف عليه ، فإنه سيرجع إليك.

قال يعقوب : هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيّبونه عنّي وتحولون بيني وبينه ، وقد فرّطتم في يوسف ، فكيف آمنكم على أخيه؟ ﴿**فَاللهُ خَيْرٌ حافِظاً**﴾ أي فإني أثق به وأتوكّل عليه وأفوض أمري إليه ، ﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ أي هو أرحم الرّاحمين بي ، وسيرحم كبري وضعفي وتعلّقي بولدي ، وأرجو الله أن يرحمني بحفظه ، وأن يردّه عليّ ، ويجمع شملي به ، إنه أرحم الرّاحمين.

وهذا دليل على موافقته على إرساله معهم ، للحاجة الشّديدة إلى الطعام ، وعدم ملاحظته وجود قرائن تدلّ على الحسد والحقد فيما بينهم وبين بنيامين ، خلافا لحال يوسف.

ولما فتح إخوة يوسف متاعهم وأوعية طعامهم ، وجدوا فيها بضاعتهم أي ثمن الطعام ، ردّت إليهم ، وهي التي كان يوسف أمر غلمانه بوضعها في رحالهم.

فلما وجدوها في رواحلهم قالوا : يا أبانا ، ماذا نريد زيادة على هذا الإكرام وإحسان الملك إلينا ، كما حدثناك ، هذه دراهمنا ردّها إلينا ، وإذا ذهبنا بأخينا نزداد كيل بعير بسبب حضوره. وهذا إذا جعلت ما استفهامية ، فإن كانت نافية كان المعنى : لا نبغي شيئا آخر ، هذه بضاعتنا ردّت إلينا ، فهي كافية لثمن الطعام في الذّهاب الثّاني ، ثم نفعل كذا وكذا من جلب الميرة وغيرها.

إننا إذا ذهبنا مع أخينا في المرّة الثّانية وأرسلته معنا ، نأتي بالميرة إلى أهلنا من مصر.

ونحفظ أخانا بنيامين بعنايتنا ورعايتنا ، فلا تخف عليه.

ونزيد مكيال بعير لأجله ، لأن عزيز مصر كان يعطي لكلّ رجل حمل بعير ، دون زيادة ولا نقص ، اقتصادا وحسن تدبير.

وذلك الحمل الزّائد أمر يسير قليل ، أو سهل لا عسر فيه على هذا الرّجل السّخي الرّحيم في مقابلة أخذ أخينا.

قال يعقوب ، وقد تذكّر ماضي يوسف : لن أرسل بنيامين معكم حتى تعاهدوني عهدا موثقا باليمين ، لتعودنّ به على أي حال كنتم ، إلا في حال يمتنع ذلك عنكم بأن تهلكوا وتموتوا أو تغلبوا على أمركم وتقهروا كلكم ، ولا تقدرون على تخليصه. ويلاحظ أن العهد المؤكّد باليمين يسمّى يمينا ، وإن أكّد ووثّق بما يقتضي زيادة العناية بحفظه والوفاء به بغير اليمين يسمّى ميثاقا.

فلما آتوه أي أعطوه موثقهم ، أي عهدهم المؤكّد باليمين ، قال يعقوب : الله على ما نقول جميعا وكيل ، أي شهيد رقيب حفيظ مطّلع ، وأفوض أمري إليه ، وقد وافق على إرساله اضطرارا من أجل الميرة التي لا غنى لهم عنها.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآيات على ما يأتي :

١ ـ كان أولاد يعقوب فيما أخبروا به أباهم من منع الكيل صادقين ، حتى يرسل معهم أخاهم ، كما وعدوا عزيز مصر.

٢ ـ تعهد أولاد يعقوب عليه السلام بالمحافظة على أخيهم بنيامين ، وكأنهم لم

يريدوا تكرار مأساة يوسف عليه السلام ، لأنهم كانوا يحملون في صدورهم الحقد والحسد عليه ، خلافا لحال بنيامين.

٣ ـ تعلّق إخوة يوسف بزيادة الكسب والرّبح ، وطمحوا أن يأتوا مرة أخرى بطعام لهم من مصر من غير ثمن.

٤ ـ كان إكرام يوسف لإخوته وردّه ثمن الطعام إليهم عاملا مرغّبا قويّا في عودتهم إليه مرة أخرى ، مصطحبين معهم أخاهم بنيامين.

٥ ـ إن يعقوب النّبي عليه السلام كان في حديثه مع أولاده مطمئنا إلى حفظ الله ورحمته ، فهو نعم الوكيل الحافظ ، وهو أرحم الرّاحمين بعباده ، لا سيّما حال الضّعفاء وكبار السّن أمثاله ، فحفظ الله له خير من حفظكم إيّاه.

٦ ـ تشدّد يعقوب عليه السلام هذه المرة مع أولاده أكثر مما حدث عند إذنه بإرسال يوسف عليه السلام ، بعد تلك التّجربة القاسيّة وما أعقبها من حزن شديد وألم ، فطلب منهم الميثاق وهو العهد المؤكّد باليمين على إحضاره إليه إلا في حال العذر القاهر والإحاطة بهم ، قال مجاهد معناها : إلا أن تهلكوا أو تموتوا.

وقد دلّ قوله تعالى : ﴿**هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ ..**﴾ على أنه أجابهم إلى إرساله معهم.

٧ ـ أراد أولاد يعقوب عليه السلام تطييب نفس أبيهم بقولهم : ﴿**ما نَبْغِي هذِهِ بِضاعَتُنا ..؟**﴾ فهم حشدوا لإقناعه وتطييب نفسه كلّ الأسباب والبواعث المادية واستغلّوا حاجتهم الشديدة : أخذ الطعام دون ثمن ، إعالة الأهل ، إضافة حمل بعير ، وضمّوا إلى ذلك كلّه التّعهد بالحفظ والرّعاية ، فلم يجد بدّا من الموافقة على إرسال بنيامين معهم.

٨ ـ قوله تعالى : ﴿**لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ**﴾

دليل على جواز الكفالة (الحمالة) بالعين والوثيقة بالنّفس (كفالة النّفس) وللعلماء فيها رأيان : رأي الجمهور : هي جائزة إذا كان المكفول به مالا. ولا تجوز الكفالة بالحدود والقصاص في رأي المذاهب الأربعة ، وأجاز الشافعية الكفالة بالقصاص ، والقذف ، والتّعزير ، لما فيها من حقّ العبد. وقال بعضهم : لا تجوز الكفالة بالنّفس ، لتعذّر إحضار المكفول بنفسه ، ولقوله تعالى على لسان العزيز في قصّة يوسف عليه السلام : ﴿قالَ : مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ ، إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ﴾.

الفصل الثاني عشر من قصة يوسف

وصية يعقوب لأولاده بالدخول إلى مصر من أبواب متفرقة

﴿وَقالَ يا بَنِيَّ لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٦٨)﴾

الإعراب :

﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ إما مفعول وإما فاعل ، والتقدير على المفعولية : ما كان يغني من قضاء الله شيئا ، وعلى الفاعلية : ما كان يغني عنهم من الله شيء مع قضائه.

البلاغة :

﴿لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ فيه طباق السلب ، وفيه إطناب : وهو زيادة اللفظ على المعنى ، للتأكيد والتقرير وتمكين المعنى في النفس.

المفردات اللغوية

﴿لا تَدْخُلُوا﴾ مصر. ﴿وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ لأنهم كانوا ذوي جمال وأبهة مشتهرين في مصر بالكرامة والحظوة عند العزيز ، فخاف عليهم أن يدخلوا جماعة واحدة فتصيبهم العين. ولعله لم يوصهم بذلك في المرة الأولى ، لأنهم كانوا مجهولين حينئذ. ﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي وما أدفع عنكم بقولي ذلك شيئا قدره الله عليكم وقضاه ، وإنما ذلك شفقة ، فإن الحذر لا يمنع القدر. ومن : صلة زائدة لتمكين النفي.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما الحكم إلا لله وحده ، يصيبكم لا محالة إن قضي عليكم سوء ، ولا ينفعكم ذلك. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ به وثقت. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾ الفاء لإفادة التسبب ، فإن فعل الأنبياء سبب لأن يقتدى بهم. والواو في قوله ﴿وَعَلَيْهِ﴾ للعطف ، وقدم ﴿عَلَيْهِ﴾ في عطف الجملة على الجملة للاختصاص.

﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أي من أبواب متفرقة في البلد. ﴿ما كانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ﴾ أي ما كان يفيد رأي يعقوب واتباعهم له مما قضاه الله عليهم شيئا ، فحدث وضع الصواع في رحل بنيامين ، وتضاعفت المصيبة على يعقوب.

﴿إِلَّا حاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضاها﴾ استثناء منقطع ، أي ولكن حاجة في نفسه يعني شفقته عليهم وحرصه على ألا يعانوا (تصيبهم العين) وقضاها أي أظهرها ، ووصى بها. ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِما عَلَّمْناهُ﴾ إن يعقوب عليم بحقائق الأمور وأن العين لا توقع ضررا إلا بإذن الله ، لتعليمنا إياه بالوحي وإقامة الحجج ، ولذلك قال : ﴿وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ولم يغتر بتدبيره.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ وهم الكفار. ﴿لا يَعْلَمُونَ﴾ سر القدر ، وأنه لا يغني عنه الحذر ، وأن الحكم لله. وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام.

المناسبة :

بعد أن أبان الله تعالى موافقة يعقوب على إرسال بنيامين مع إخوته إلى مصر ، ذكر هنا وصيته لأولاده لما عزموا على الخروج إلى مصر ، وهي الدخول من أبواب متفرقة ، ليروا مدى الاهتمام والاستقبال لكل واحد منهم حين رؤية بنيامين شقيق يوسف ، أو لئلا يحسدهم الحساد ، وتصيبهم العين جميعا.

التفسير والبيان :

أمر يعقوب بنيه لما جهزهم مع أخيهم بنيامين إلى مصر ألا يدخلوا كلهم من باب واحد ، وليدخلوا من أبواب متفرقة ، لأنهم كانوا من أهل جمال وكمال ، وذلك في رأي جمهور المفسرين لئلا تصيبهم العين ، فإنه خاف من العين عليهم ، والعين حق أي أنها سبب حق في الظاهر قد تؤدي إلى الضرر ، ولكن بإذن الله وإرادته ، بدليل قوله بعدئذ : ﴿**وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾. أو ليروا من العزيز فرق الاستقبال بينهم وبين أخيهم بنيامين.

﴿**وَما أُغْنِي ..**﴾ أي وما أدفع عنكم بوصيتي وتدبيري من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغني حذر من قدر ، أي إن هذا الاحتراز لا يرد قدر الله وقضاءه ، فإن الله إذا أراد شيئا لا يخالف ولا يمانع ، ولكنا مأمورون باتخاذ وسائل الحيطة والحذر : ﴿**وَخُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ [النساء ٤ / ١٠٢] أخذا بالأسباب العادية الظاهرية التي لا تؤثر في الواقع شيئا إلا بإذن الله ، واستعانة بالله ، وفرارا منه إليه ، وليس دفعا للقدر ، وتحديا للقضاء ، فلا يملك الإنسان من أمره شيئا ، فما أراد الله بكم سوءا لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به من التفرق ، وهو مصيبكم لا محالة.

وما إنفاذ الأحكام وتدبير الأمور إلا لله وحده ، عليه وحده توكلت ، وبه وثقت ، وإليه فوضت أمري ، دون حولي وقوتي ، وعليه تعالى وحده فليتوكل المتوكلون ، لا على أنفسهم ولا على أمثالهم من البشر.

ولما دخلوا أي أولاد يعقوب مصر ، التي كان لها أربعة أبواب ، من حيث أمرهم أبوهم ، أي من أبواب متفرقة ، ما كان رأي يعقوب ودخولهم على هذا النحو متفرقين يفيدهم شيئا قط ، حيث أصابهم ما ساءهم ، مع تفرقهم ، من نسبة السرقة إليهم ، وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهم فداء لوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم.

ولكن حاجة في نفس يعقوب قضاها ، أي مجرد شيء في نفسه أظهره ، وهي شفقته عليهم ، وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به.

وإنه أي يعقوب لذو علم بأن الحذر لا يمنع القدر ، لتعليمنا إياه بالوحي. وقال قتادة والثوري : لذو عمل بعلمه ، وهذا ثناء من الله على يعقوب عليه السلام .

ولكن أكثر الناس وهم المشركون أو الكفار لا يعلمون ذلك أي مثل ما علم يعقوب ، أو لا يعلمون أن يعقوب بهذه الصفة والعلم ، فإنهم لا يعلمون كيف أرشد الله أولياءه إلى العلوم التي تنفعهم في الدنيا والآخرة. ومن تلك العلوم الأخذ بالأسباب الظاهرة وتفويض الأمر لله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ قول يعقوب لأولاده : ﴿**لا تَدْخُلُوا مِنْ بابٍ واحِدٍ**﴾ دليل في رأي جمهور المفسرين على التحرز من العين ، والعين في الظاهر حق ، ومرد النتيجة في الحقيقة إلى الله وحده ، وتكون العين مجرد سبب ، قال رسول الله ﷺ فيما أخرجه أحمد بسند صحيح «العين حق» أي شيء ذو أثر موجود عند الناس ، وذكر النسفي : «إن العين لتدخل الرجل القبر ، والجمل القدر» وكان ﷺ يتعوّذ فيقول : «أعوذ بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامّة» وكان يعوّذ الحسن والحسين فيقول : «أعيذكما بكلمات الله التّامة من كل شيطان وهامّة ، ومن كل عين لامة» ويقول : وهكذا كان يعوّذ إبراهيم إسماعيل وإسحاق صلوات الله عليهم.

وروى عبادة بن الصامت قال : دخلت على رسول الله ﷺ في أول النهار ، فرأيته شديد الوجع ، ثم عدت إليه آخر النهار ، فرأيته معافى ، فقال : إن

جبريل عليه السلام أتاني فقال فيما أخرجه أحمد عن عائشة وعبادة. «بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك ، ومن كل عين وحاسد ، الله يشفيك».

وعلى كل مسلم أعجبه شيء أن يبرّك ، فإنه إذا دعا بالبركة ، صرف المحذور لا محالة ، لقوله ﷺ لعامر : «ألا برّكت» فدل على أن العين لا تضر إذا برّك العائن. والتبريك أن يقول : تبارك الله أحسن الخالقين ، اللهم بارك فيه. ويقال : إن العين أسرع إلى الصغار منها إلى الكبار.

والعائن إذا أصاب بعينه ولم يبرّك ، يؤمر بالاغتسال ، ويجبر على ذلك إن أباه ، لأن الأمر على الوجوب ، وقد أمر ﷺ في حديث أبي أمامة العائن بالاغتسال للمعين ، وأمر بالرقية.

ومن عرف بالإصابة بالعين ، منع من مداخلة الناس ، دفعا لضرره.

٢ ـ دل قوله تعالى : ﴿**وَما أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ على أن الحذر لا ينفع مع القدر ، فدخول أولاد يعقوب مصر من أبواب متفرقة ما كان ذلك التفرق يغني من الله من شيء. قال ابن عباس : ذلك التفرق ما كان يرد قضاء الله ولا أمرا قدره الله.

٣ ـ الحكم لله ، أي الأمر والقضاء لله وحده ، وعلى المؤمن الاتكال على الله ، أي الاعتماد عليه والثقة به وحده ، لأن حصول كل الخيرات ودفع كل الآفات من الله تعالى.

٤ ـ إن وصية يعقوب لأولاده بالدخول من أبواب متفرقة مجرد خاطر خطر بقلبه ، وتحرز ظاهري ، مع أنه عليم من طريق الوحي بأمر دينه ، وأكثر الناس لا يعلمون ما يعلم يعقوب من أمر دينه. وقيل : المقصود بالعلم هنا العمل ، أي لذو عمل بعلمه ، فإن العلم أول أسباب العمل ، فسمي بما هو بسببه.

٥ ـ أفادت الآية أن على المسلم أن يحذّر أخاه مما يخاف عليه ، ويرشده إلى ما فيه طريق السلامة والنجاة ، فإن الدين النصيحة ، والمسلم أخو المسلم.

الفصل الثالث عشر من قصة يوسف

معرفة يوسف أخاه بنيامين واتخاذه التدابير لإبقائه لديه

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَخاهُ قالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ جَعَلَ السِّقايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسارِقُونَ (٧٠) قالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ ما ذا تَفْقِدُونَ (٧١) قالُوا نَفْقِدُ صُواعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَما كُنَّا سارِقِينَ (٧٣) قالُوا فَما جَزاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ (٧٤) قالُوا جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَها مِنْ وِعاءِ أَخِيهِ كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللهُ نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦)﴾

الإعراب :

﴿جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ جَزاؤُهُ﴾ مبتدأ ، والهاء عائد للسّرق ، وتقديره : جزاء

السّرق أخذ من وجد في رحله. وقوله : ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزاؤُهُ﴾ جملة هي في موضع خبر المبتدأ ، أي فالاستعباد جزاء السّرق ، وفاء : ﴿فَهُوَ﴾ متضمنة معنى الشرط أو جواب له على أن ﴿مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ شرطية ، والجملة الشرطية كما هي : خبر المبتدأ الاول : ﴿جَزاؤُهُ﴾ على إقامة الظاهر فيها مقام الضمير ، كأنه قيل : جزاؤه من وجد في رحله ، فهو هو ، إلا أنه أقام الظاهر مقام المضمر للتأكيد والمبالغة في البيان.

﴿فَهُوَ جَزاؤُهُ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة خبر المبتدأ ﴿مَنْ وُجِدَ﴾ الذي هو الاسم الموصول.

البلاغة :

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق. ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ فيه أيضا جناس الاشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿آوى إِلَيْهِ أَخاهُ﴾ ضم إليه بنيامين على الطعام أو في المنزل. ﴿فَلا تَبْتَئِسْ﴾ تحزن. ﴿بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من الحسد لنا ، وأمره ألا يخبرهم ، وتواطأ معه على أنه سيحتال على أن يبقيه عنده. ﴿جَهَّزَهُمْ بِجَهازِهِمْ﴾ أعد لهم الطعام بسرعة. ﴿السِّقايَةَ﴾ في الأصل : المشربة أو وعاء يسقى به ، والمراد به هنا المكيال الذي كان يكال به الطعام للناس ، وهو صواع الملك ، فهو كان مشربة ، ثم جعل صاعا يكال به ، ويقدر بكيلة مصرية ١٢ / ١ من الإردب المصري ، والإردب ١٩٨ لترا ، أو ١٥٦ كغ. قيل : كان من فضة ، وقيل : كان من ذهب. ﴿فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ بنيامين. ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ نادى مناد ، أو أعلم وأخبر ، وهو يفيد الكثرة والتكرار. ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ﴾ القافلة أو الجمال التي تحمل الطعام ، والمراد أصحابها. ﴿ما ذا تَفْقِدُونَ﴾ أيّ شيء ضاع منكم ، والفقد : غيبة الشيء عن الحس بحيث لا يعرف مكانه.

﴿صُواعَ الْمَلِكِ﴾ صاعه أو مكياله. ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ من الطعام جعلا له. ﴿وَأَنَا بِهِ﴾ بالحمل. ﴿زَعِيمٌ﴾ كفيل وضامن ، أؤديه إلى من ردّه.

﴿تَاللهِ﴾ قسم فيه معنى التعجب. ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ ما جِئْنا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ..﴾ استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم ، لما عرفوا منهم في كرتي مجيئهم ، مما يدل على فرط أمانتهم ، مثل ردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم.

﴿قالُوا : فَما جَزاؤُهُ﴾ أي قال المؤذن وأصحابه ، فما جزاء السارق. ﴿إِنْ كُنْتُمْ كاذِبِينَ﴾ في قولكم : ما كنا سارقين ، ووجد فيكم. ﴿قالُوا : جَزاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ﴾ أي عقوبة السارق استعباد أو استرقاق من وجد في رحله. ﴿فَهُوَ جَزاؤُهُ﴾ تأكيد لما سبق أي فأخذ السارق جزاء

المسروق لا غير ، وكان ذلك سنة آل يعقوب. ﴿كَذلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي مثل هذا الجزاء جزاء الظالمين بالسرقة ، وهذا تصريح منهم ليوسف بتفتيش أوعيتهم.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ﴾ ففتشها. ﴿قَبْلَ وِعاءِ أَخِيهِ﴾ قبل تفتيش وعاء أخيه بنيامين لئلا يتهم. ﴿ثُمَّ اسْتَخْرَجَها﴾ أي السقاية أو الصواع. ﴿كَذلِكَ كِدْنا﴾ أي مثل ذلك الكيد (أي التدبير الخفي) كدنا ليوسف ، علمناه الحيلة في أخذ أخيه وأوحينا به إليه. ﴿ما كانَ﴾ يوسف. ﴿لِيَأْخُذَ أَخاهُ﴾ رقيقا من السرقة. ﴿فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ في قانون أو نظام أو حكم أو شرع ملك مصر ؛ لأن جزاءه في ذلك النظام الضرب وتغريم مثلي المسروق ، لا الاسترقاق. ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ أن يجعل ذلك الحكم حكم الملك ، وهو أخذه بحكم أبيه ، أي لم يتمكن من أخذه إلا بمشيئة الله بإلهامه سؤال إخوته ، وجوابهم بنظامهم أو سنتهم. والاستثناء متصل من أعم الأحوال ، ويجوز أن يكون استثناء منقطعا ، أي لكن أخذه بمشيئة الله وإذنه.

﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ﴾ بالعلم كيوسف. ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾ من المخلوقين. ﴿عَلِيمٌ﴾ أعلم منه ، حتى ينتهي إلى الله تعالى.

المناسبة :

الربط بين الآيات هنا واضح ، إذ هي تعرض أجزاء ومشاهد قصة واحدة ذات حلقات متسلسلة ، فبعد أن اتجه أولاد يعقوب إلى مصر لجلب الميرة ، مزودين بوصية والدهم ، وصلوا إلى مكان وجود العزيز الذي يتولى بيع الطعام للناس ، فلما دخلوا عرف أخاه وضمه إليه.

التفسير والبيان :

حينما دخل أولاد يعقوب على يوسف في مجلسه الخاص ومنزل ضيافته ، ومعهم أخوه شقيقه بنيامين ، بعد أن كانوا دخلوا القصر من أبواب متفرقة ، ضم إليه أخاه واختلى به ، وأطلعه على شأنه ، وعرّفه أنه أخوه ، وقال له : لا تبتئس أي لا تأسف ولا تحزن على ما صنعوا بي ، وأمره ألا يطلع إخوته على ما أطلعه عليه من أنه أخوه ، وتواطأ معه أنه سيتخذ تدبيرا يبقيه عنده معززا مكرما.

روي أنهم قالوا له : هذا أخونا ، قد جئناك به ، فقال لهم : أحسنتم

وأصبتم ، وستجدون ذلك عندي ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة ، فبقي بنيامين وحده ، فبكى وقال : لو كان أخي يوسف حيا لأجلسني معه ، فقال يوسف : بقي أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته ، وجعل يواكله ، وقال : أنتم عشرة ، فلينزل كل اثنين منكم بيتا ، وهذا لا ثاني له ، فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ، ويشم رائحته ، حتى أصبح وسأله عن ولده ، فقال : لي عشرة بنين ، اشتققت أسماءهم من اسم أخ لي هلك ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك؟ قال : من يجد أخا مثلك؟! ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل (أمهما) فبكى يوسف وقام إليه وعانقه ، وقال له : إني أنا أخوك يوسف ، فلا تحزن بما كانوا يعملون بنا في الماضي ، فإن الله قد أحسن إلينا ، وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك [1].

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ ..﴾ فلما أعدّ لهم الطعام ، وحمل لهم أبعرتهم طعاما ، أمر بعض فتيانه أن يضع السقاية (الصواع أو المكيال ، وهي إناء من فضة في قول الأكثرين ، وقيل : من ذهب) في رحل أخيه بنيامين ، دون علم أحد.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ ثم نادى مناد حينما عزموا على الخروج : أيتها العير أي يا أصحاب العير ، إنكم قوم سارقون ، فقفوا. فبهتوا وذهلوا.

فالتفتوا إلى المنادي وقالوا : أي : قال إخوة يوسف للمنادي ومن معه : أيّ شيء تفقدونه؟ فأجابوهم : نفقد صاع الملك الذي يكيل به ، ولمن أتى به حمل بعير من القمح ، وهذا يدل على أن عيرهم الإبل ، وأنا به زعيم أي كفيل ضامن ، وهذا من باب الجعالة والضمان والكفالة.

قال إخوة يوسف بعد اتهامهم بالسرقة : والله لقد خبرتمونا وجربتمونا في المرة الأولى وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا إليكم ، وتحققتم منذ عرفتمونا ، وشاهدتم

---

(١) الكشاف : ٢ / ١٤٧

سيرتنا الحسنة أنا ما جئنا لنفسد في أرض بسرقة ولا غيرها من التعدي على حقوق الناس ، ولم نكن يوما ما سارقين ، فليست سجايانا تقتضي هذه الصفة.

فقال لهم فتيان يوسف : فما جزاء السارق إن كان فيكم ، إن كنتم كاذبين في نفي التهمة عنكم؟ أي أيّ عقاب للسارق في شرعكم إن وجدنا فيكم من أخذه ، وأنتم تدّعون البراءة؟

فأجابوهم : جزاؤه أخذ من وجد في رحله ، ومثل هذا الجزاء نجزي الظالمين للناس بسرقة أموالهم في شريعتنا أن يسترقوا ، وهكذا كانت شريعة إبراهيم ويعقوب عليهما السلام : أن السارق يدفع إلى المسروق منه ، فيصيرا عبدا له ، وهذا هو ما أراده يوسف عليه السلام .

ولهذا بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه للتورية وحتى لا يتهم ، ثم استخرج السقاية من وعاء أخيه بنيامين ، فأخذه منهم بحكم اعترافهم والتزامهم ، وإلزاما لهم بما يعتقدونه ويحكمون به.

قوله : ﴿فَهُوَ جَزاؤُهُ﴾ تقرير للحكم السابق وتأكيد له ، بعد تأكيد ثقتهم وبراءتهم بأنفسهم.

﴿كَذلِكَ كِدْنا لِيُوسُفَ﴾ أي مثل ذلك الكيد وهو التدبير الخفي ، كدنا ليوسف ، أي دبرنا له في الخفاء وأوحينا إليه أن يفعله. وهذا من الكيد المحبوب المراد الذي يحبه الله ويرضاه ، لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة. وهو دليل على جواز التوصل إلى الأغراض المشروعة بما ظاهره الحيلة إذا لم يخالف نصا تشريعيا أو حكما مقررا ، فهي حيلة جائزة مشروعة ، لا ممنوعة محظورة ، لما يترتب عليها من الخير والمصلحة ، دون إلحاق ضرر بأحد ، مع اطمئنان بنيامين إلى البراءة ، بسبب التواطؤ السابق بينه وبين أخيه يوسف.

وسبب ذلك التدبير الخفي أن يوسف ما كان يتمكن من أخذ أخيه في حكم ملك مصر الذي لا يبيح استرقاق السارق ، ولكن قيض الله له أن التزم له إخوته بما التزموه وهو أن يستعبد السارق ، وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم ، ولهذا مدحه الله تعالى بقوله : ﴿نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشاءُ﴾ بالعلم ، كما قال تعالى : ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١١].

وقوله : ﴿إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ﴾ استثناء من أعم الأحوال أي ما كان ليأخذ أخاه في نظام الملك في حال من الأحوال إلا في حال مشيئة الله ، فإنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، مما يدل على أن تلك الحيلة بإقرار الشرع ، ووحي الله تعالى.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه ، قال الحسن البصري : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي إلى الله عَزَّوَجَلَّ . فإذا كان إخوة يوسف علماء فإن يوسف كان أعلم منهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ كانت فرحة غامرة من أفراح العمر لقاء الأخوين : يوسف وبنيامين ، فضم يوسف أخاه إليه ، وتعرّف عليه بعد فراق دام أكثر من ربع قرن ، وتواطأ معه على خطة إبقائه لديه.

٢ ـ دل قول يوسف لأخيه ﴿فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ على التحلي بصفة العفو والتسامح ، وإظهار الحب والود لإخوته ، ونسيان الماضي وتجاوز أخطائهم معه في مقتبل العمر.

٣ ـ كان وضع الصواع في رحل بنيامين بأمر يوسف عليه السلام تعليما

وإلهاما ووحيا من الله ، وكان إبقاء أخيه لديه عملا بشريعة إبراهيم ويعقوب ، وإلزاما لإخوته بما حكموا به.

٤ . لم يكن وصف أولاد يعقوب بأنهم سارقون كذبا من يوسف عليه السلام ، وإنما المراد أيتها العير حالكم حال السّرّاق ، والمعنى : إن شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه. أو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه ، وفصله عنهم إليه ، أو أنهم سارقون باعتبار ما كان منهم حينما أخذوا يوسف من أبيه ، فألقوه في الجبّ.

٥ . دل قوله : ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ على جواز الجعالة [١] وضمان الجعل قبل إنجاز العمل أو قبل إتمامه. وقد أجيز للضرورة ، فجاز فيه من الجهالة ما لا يجوز في غيره ، وهو من العقود الجائزة التي يجوز لأحدهما فسخه ، إلا أن المجعول له يجوز أن يفسخه قبل الشروع بالعمل وبعده ، إذا رضي بإسقاط حقه ، وليس للجاعل أن يفسخه إذا شرع المجعول له في العمل. ولا يشترط في عقد الجعالة حضور المتعاقدين ، كسائر العقود ؛ لقوله تعالى : ﴿وَلِمَنْ جاءَ بِهِ ..﴾ وبهذا كله قال الشافعي ، وكذا المالكية والحنابلة ، ولم يجز الحنفية الجعالة للجهالة.

ولم يكن قوله ﴿حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ ضمان المجهول ، لأن حمل البعير كان معينا معلوما عندهم كالوسق (٦٠ صاعا) فصح ضمانه ، غير أنه كان بدل مال عن المسروق ، وهو كفالة بما لم يجب ، لأنه لا يحل للسارق أن يأخذ شيئا على رد السرقة ، فلعله كان يصح في شرعهم ، أو كان هذا جعالة.

---

(١) الجعالة : التزام بعوض على شيء معلوم أو مجهول ، وهو تصرف بإرادة منفردة ، مثل الإعلان عن مكافأة أو جعل لمن يجد شيئا ضائعا ، أو يكتشف علاجا لمرض معين ، أو لمن يتفوق في قضية علمية أو اكتشاف علمي.

٦ ـ دل قوله : ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ على جواز الكفالة بنوعيها : الكفالة بالمال والكفالة بالنفس ، وهذا مطابق للحديث النبوي الذي أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ابن حسان وصححه عن أبي أمامة الباهلي وغيره : «الزعيم غارم» وهو رأي المذاهب الأربعة ، ولم يجز بعضهم الكفالة بالنفس لعجز الكفيل عن إحضار المكفول بنفسه.

وهل يلزم الكفيل بالنفس ضمان المال أو لا؟ قال الحنفية : لا يلزمه إن مات المكفول بنفسه : لأنه إنما تكفل بالنفس ولم يتكفل بالمال ، فمحال أن يلزمه ما لم يتكفل به. وقال المالكية والليث والأوزاعي : يغرم المال ، ويرجع به على المطلوب ؛ لأن الكفيل يعلم أن المضمون بنفسه إنما يطلب بمال ، فإذا ضمن إحضاره ولم يأته به ، فكأنه فوّته عليه ، فلزمه المال.

وإذا انعقدت الكفالة جاز في رأي الجمهور للدائن المكفول له أن يطالب بالمال أو الدين من شاء من المدين الأصيل أو الكفيل. ورأي مالك الأخير : ألا يطالب الكفيل إلا أن يفلس الغريم (المدين) أو يغيب ؛ لأن البدء بمطالبة من عليه الحق أولى ؛ إلا أن يكون معدما ، فيؤخذ الدين من الكفيل ، لأنه معذور في أخذه في هذه الحالة.

والكفالة لا تصح إلا في الحقوق التي تجوز النيابة فيها ، مما يتعلق بالذمة من الأموال ، وكان الدين ثابتا مستقرا ، أي لازما. فلا تصح الكفالة بنجوم (أقساط) الكتابة ؛ لأنها ليست بدين لازم أو ثابت مستقر. وأما الحقوق التي لا يمكن لأحد القيام بها عن أحد كالحدود فلا كفالة فيها عند الأكثرين ؛ لأن درء هذه الحدود مطلوب ما أمكن ، ويسجن المدعى عليه الحد ، حتى ينظر في أمره. وأجاز أبو يوسف ومحمد الكفالة في الحدود والقصاص ، لجواز الكفالة بالنفس. وأجاز الشافعية كفالة تسليم النفس في الحدود الخالصة للآدمي كقصاص وحد قذف وتعزير ؛ لأنها حق لآدمي ، فصحت الكفالة ، كسائر حقوق الآدميين المالية.

٧ ـ كان استرقاق أو استعباد السارقين دين يعقوب عليه السلام وحكمه ، وقد فهم هذا من جواب أولاده : ﴿جَزاؤُهُ : مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ ، فَهُوَ جَزاؤُهُ﴾ وفي الجملة معنى التوكيد ، كما تقول : جزاء من سرق القطع ، فهذا جزاؤه ؛ لأنهم التزموا استرقاق من وجد في رحله.

وكان حكم السارق عند أهل مصر أن يغرم ضعفي ما أخذ.

وأما قطع يد السارق في شريعتنا فهو ناسخ لما تقدم من الشرائع ، أو لما كان في شرع يعقوب من استرقاق السارق.

٨ ـ يجوز التوصل إلى الأغراض أو الحقوق المشروعة إذا لم تخالف شريعة ، ولا هدمت أصلا. وأجاز الحنفية والشافعية الحيلة إلى المباح ، واستخراج الحقوق ، لفعل يوسف بوضع الصواع في رحل أخيه ، ولفعل أيوب مع امرأته : ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلا تَحْنَثْ﴾ [ص ٣٨ / ٤٤] ولأمر النبي صلى الله عليه وسلم ببيع التمر الرديء بالدراهم ، ثم شراء التمر الجيد (الجنيب) بالدراهم.

واجمع العلماء على أن للرجل قبل حلول الحول التصرف في ماله بالبيع والهبة إذا لم ينو الفرار من الصدقة ، فإذا حال الحول لا يحل له التحيل ولا النقصان ، ولا أن يفرّق بين مجتمع ، ولا أن يجمع بين متفرق.

وقال مالك : إذا فوّت من ماله شيئا ينوي به الفرار من الزكاة قبل الحول بشهر أو نحوه ، لزمته الزكاة عند الحول ، أخذا منه بقوله صلى الله عليه وسلم : «خشية الصدقة».

وقال أبو حنيفة : إن نوى بتفريقه الفرار من الزكاة قبل الحول بيوم لا يضرّه ؛ لأن الزكاة لا تلزم إلا بتمام الحول ، ولا يتوجه إليه معنى الحديث السابق : «خشية الصدقة» [١] إلا حينئذ.

---

(١) نص الحديث الذي أخرجه البخاري عن أنس : «ولا يجمع بين متفرّق ولا يفرّق بين مجتمع خشية الصدقة» (سبل السلام ٣ / ٥٩١ ، ط بيروت).

٩ ـ شاء الله أن يجري على ألسنة أولاد يعقوب حكم بني إسرائيل في استرقاق السارق ، مع أنه كان حكم الملك الضرب والتغريم ضعفي المسروق.

١٠ ـ لله في خلقه شؤون ، يعزّ قوما ويذلّ آخرين ، ويرفع من يشاء درجات بالعلم والإيمان. قال ابن عباس : يكون ذا أعلم من ذا ، وذا أعلم من ذا ، والله فوق كل عالم. وقال أيضا : الله العليم ، وهو فوق كل عالم. والآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات.

الفصل الرابع عشر من قصة يوسف

نقاش حادّ بين أولاد يعقوب وبين يوسف وبين أبيهم حول

السرقة المزعومة

﴿قالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ قالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ (٧٧) قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلاَّ مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ إِنَّا إِذاً لَظالِمُونَ (٧٩) فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَباكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقاً مِنَ اللهِ وَمِنْ قَبْلُ ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يا أَبانا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَما شَهِدْنا إِلاَّ بِما عَلِمْنا وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ حافِظِينَ (٨١) وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ

الَّتِي كُنَّا فِيها وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها وَإِنَّا لَصادِقُونَ (٨٢) قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقالَ يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قالُوا تَاللهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهالِكِينَ (٨٥) قالَ إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٨٦) يا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكافِرُونَ (٨٧)﴾

الإعراب :

﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ بدل من أسرّها. ﴿مَعاذَ اللهِ﴾ منصوب على المصدر ، حذف فعله وأضيف إلى المفعول.

﴿اسْتَيْأَسُوا﴾ استفعلوا من يئس ييأس ﴿نَجِيًّا﴾ حال من ﴿خَلَصُوا﴾ و ﴿نَجِيًّا﴾ لفظه لفظ المفرد ، والمراد به الجمع ، كعدو وصديق ، فإنهما يوصف بهما الجمع على لفظ المفرد.

﴿ما فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَمَّا﴾ إما مصدرية في موضع نصب بالعطف على قوله تعالى : ﴿أَباكُمْ﴾ وتقديره : ألم تعلموا أن أباكم وتفريطكم ، وإما أن تكون زائدة ، أي ومن قبل فرطتم ، مثل ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ﴾ أي فبرحمته.

﴿يا أَسَفى﴾ في موضع نصب ؛ لأنه منادى مضاف ، وأصله : يا آسفي ، فأبدل من الكسرة فتحة ، فانقلبت الياء ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فصار : ﴿يا أَسَفى﴾. و ﴿عَلى يُوسُفَ﴾ في موضع نصب ؛ لأنه من صلة المصدر.

البلاغة :

﴿فَأَسَرَّها .. وَلَمْ يُبْدِها﴾ بينهما طباق. ﴿شَيْخاً كَبِيراً﴾ فيه إطناب للاستعطاف. ﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية أي أهل القرية. ﴿يا أَسَفى عَلى يُوسُفَ﴾ بينهما جناس الاشتقاق. ﴿تَاللهِ تَفْتَؤُا﴾ إيجاز بالحذف ، أي والله لا تفتأ.

﴿وَلا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ استعار الروح وهو تنسيم الريح الطيبة النسيم ، للفرج بعد الكرب ، واليسر بعد الشدة.

المفردات اللغوية :

﴿إِنْ يَسْرِقْ﴾ بنيامين. ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قيل : ورثت عمته من أبيها منطقة إبراهيم عليه السلام ، وكانت تحضن يوسف وتحبه ، فلما شبّ أراد يعقوب انتزاعه منها ، فشدت المنطقة على وسطه ، ثم أظهرت ضياعها ، فتفحص عنها ، فوجدها محزومة عليه ، فصارت أحق به في حكمهم. وقيل : كان لأبي أمه صنم من ذهب ، فسرقه ، وكسره ، وألقاه في الجيف ، لئلا يعبده. ﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِها﴾ لم يظهرها لهم ، والضمير يعود للكلمة أو الجملة التي في قوله : ﴿قالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ أي فأسرّ الجملة أو الكلمة التي هي قوله : ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾.

﴿قالَ﴾ في نفسه. ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ أي شر منزلة من يوسف وأخيه ، لسرقتكم أخاكم من أبيكم وظلمكم له. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾ أي والله عالم أنه لم يصح لي ولا لأخي سرقة ، وليس الأمر كما تذكرون من أمره ، أو وهو يعلم أن الأمر ليس كما تصفون.

﴿إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً﴾ في السن أو القدر ، يحبه أكثر منا ، ويتسلى به عن ولده الهالك ، ويحزنه فراقه ، وهذا استعطاف له عليه. ﴿فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ﴾ استعبده بدلا منه ، فإن أباه مستأنس به. ﴿مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في أفعالك إلينا ، فأتم إحسانك ، أو من المتعوّدين الإحسان ، فلا تغير عادتك. ﴿مَعاذَ اللهِ﴾ أي نعوذ بالله ونلجأ إليه. ﴿أَنْ نَأْخُذَ﴾ من أن نأخذ ، ولم يقل : من سرق ، تحرزا من الكذب. ﴿إِنَّا إِذاً﴾ إن أخذنا غيره مكانه ﴿لَظالِمُونَ﴾ في مذهبكم ، لو أخذنا غيره مكانه ، كنا من الظلمة.

﴿اسْتَيْأَسُوا﴾ يئسوا يأسا كثيرا من يوسف وإجابته إياهم ، وزيادة السين والتاء للمبالغة. ﴿خَلَصُوا﴾ انفردوا واعتزلوا الناس. ﴿نَجِيًّا﴾ متناجين متشاورين سرا ، يناجي بعضهم بعضا ، وإنما وحده لأنه مصدر أو بزنة المصدر ، كما قيل : هم صديق ، وجمعه أنجية كنديّ وأندية.

﴿قالَ كَبِيرُهُمْ﴾ سنا : روبيل أو يهوذا ، أو كبيرهم في الرأي وهو شمعون. ﴿مَوْثِقاً﴾ عهدا. ﴿مِنَ اللهِ﴾ في أخيكم ، وإنما جعل حلفهم بالله موثقا منه ، لأنه بإذن منه وتأكيد من

جهته. ﴿وَمِنْ قَبْلُ﴾ هذا. ﴿ما فَرَّطْتُمْ﴾ قصرتم في شأنه ، و ﴿فَلَمَّا﴾ زائدة أو مصدرية في موضع نصب بالعطف على مفعول : تعلموا ، ولا بأس بالفصل بين العاطف والمعطوف بالظرف ، أو معطوف على اسم أن ، وخبره : ﴿فِي يُوسُفَ﴾. ويصح كونه مبتدأ وخبره : من قال قال البيضاوي : وفيه نظر : لأن قبل إذا كان خبرا ، أو صلة ، لا يقطع عن الإضافة ، حتى لا ينقص. ويصح أن تكون موصولة ، أي ما فرطتموه بمعنى : ما قدمتموه في حقه من الخيانة.

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾ لن أفارق أرض مصر ﴿حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي﴾ بالعودة أو الرجوع إليه ﴿أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي﴾ أو يقضي الله لي بخلاص أخي ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ﴾ أعدلهم ؛ لأن حكمه لا يكون إلا بالحق.

﴿وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا﴾ وما شهدنا عليه إلا بما تيقنا من مشاهدة الصاع في رحله واستخراجه من وعائه ﴿وَما كُنَّا لِلْغَيْبِ﴾ لما غاب عنا وهو باطن الحال ، حين إعطاء الموثق ﴿حافِظِينَ﴾ أي فلا ندري أنه سرق ، أو ما كنا للعواقب عالمين ، فلم ندر حين أعطيناك الموثق أنه سيسرق.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ..﴾ واسأل أهل مصر ﴿وَالْعِيرَ﴾ أصحاب الإبل ﴿الَّتِي أَقْبَلْنا فِيها﴾ وهم قوم من كنعان ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ في قولنا ، فرجعوا إليه ، وقالوا له ذلك ﴿سَوَّلَتْ﴾ زينت ﴿أَمْراً﴾ ففعلتموه ، اتهمهم لما سبق منهم من أمر يوسف ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي صبري صبر جميل ﴿أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ﴾ يوسف وأخويه ﴿الْعَلِيمُ﴾ بحالي ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أعرض عنهم تاركا خطابهم ﴿يا أَسَفى﴾ يا حزني ﴿وَابْيَضَّتْ عَيْناهُ﴾ انمحق سوادهما وتبدل بياضا من بكائه ﴿مِنَ الْحُزْنِ﴾ عليه ﴿كَظِيمٌ﴾ مملوء غيظا ، مغموم مكروب لا يظهر كربه ﴿تَاللهِ تَفْتَؤُا﴾ لا تفتأ أي لا تزال تذكره تفجعا عليه ﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً﴾ مريضا مشرفا على الهلاك ، لطول مرضك ، وهو مصدر يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ﴿الْهالِكِينَ﴾ الموتى.

﴿قالَ﴾ يعقوب لهم ﴿بَثِّي﴾ هو عظيم الحزن الذي لا يصبر عليه حتى يبث إلى الناس من. البث : وهو النشر ﴿وَحُزْنِي إِلَى اللهِ﴾ لا إلى غيره ، فهو الذي تنفع الشكوى إليه ، فخلوني وشكايتي ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾ من أن رؤيا يوسف صدق وهو حي ، وأعلم من الله أي من صنعه ورحمته فإنه لا يخيب داعيه ﴿فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ اطلبوا خبرهما ﴿وَلا تَيْأَسُوا﴾ تقنطوا ﴿مِنْ رَوْحِ اللهِ﴾ رحمته وفرجه.

المناسبة :

هزت السرقة أعماق نفوس أولاد يعقوب ، فثار النقاش الحاد والحوار الشديد

بين أولاد يعقوب أنفسهم ، وبينهم وبين يوسف ، وبينهم وبين أبيهم ، لعودتهم إليه دون ولدين آخرين : وهما أكبر أولاده «روبيل أو يهوذا» وأصغر أولاده وهو بنيامين. ولم يجد أبناء يعقوب سبيلا للدفاع إلا الحجة الساذجة السطحية وهو تأكيد حادثة السرقة من أخيهم كما سرق أخوه يوسف من قبل ، وقالوا : هذه الواقعة عجيبة أن «راحيل» ولدت ولدت ولدين لصين ، ثم قالوا : يا بني راحيل ، ما أكثر البلاء علينا منكم ، فقال بنيامين : ما أكثر البلاء علينا منكم ، ذهبتمبأخي وضيعتموه في المفازة ، ثم تقولون لي هذا الكلام ، قالوا له : فكيف خرج الصواع من رحلك؟ فقال : وضعه في رحلي من وضع البضاعة في رحالكم[1].

التفسير والبيان

قال إخوة يوسف لما رأوا الصواع قد أخرج من وعاء بنيامين ، بعد أن نفوا السرقة نفيا باتا ، والتزموا على أنفسهم استعباد من وجد في رحله : إن يسرق بنيامين ، فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فهما من أصل واحد ، ومرادهم التنصل إلى العزيز من التشبه بالأخوين ، وتأنيب أخيهم على ما فعل.

وهذا يعني أن الطبائع والعادات والأخلاق تورث ، وأن الحقد والكراهية والحسد عندهم ما يزال موجودا لديهم.

ونسبة السرقة إلى يوسف في أصح الروايات ما روى ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبي أمه من ذهب وفضة ، فكسره وألقاه في الطريق ، فعيره بذلك إخوته. وقال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنما لجده أبي أمه ، فكسره.

وروى محمد بن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول

---

(١) تفسير الرازي : ١٨ / ١٨٣

ما دخل على يوسف من البلاء ـ فيما بلغني ـ أن عمته ابنة إسحاق ، وكانت أكبر ولد إسحاق ، وكانت عندها منطقة إسحاق ، وكانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان من اختبأها ممن وليها ، كان له سلما لا ينازع فيه ، يصنع فيه ما يشاء ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته ، وكان لها به وله ، فلم تحب أحدا حبها إياه ، حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات ، تاقت إليه نفس يعقوب عليه السلام ، فأتاها ، فقال : يا أخية ، سلّمي إليّ يوسف ، فو الله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فو الله ، ما أنا بتاركته ، ثم قالت : فدعه عندي أياما ، أنظر إليه ، وأسكن عنه ، لعل ذلك يسليني عنه.

فلما خرج من عندها يعقوب ، عمدت إلى منطقة إسحاق ، فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام ، فانظروا من أخذها ومن أصابها؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت ، فكشفوهم ، فوجدوها مع يوسف ، فقالت : والله ، إنه لي لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب ، فأخبرته الخبر ، فقال لها : أنت وذلك ، إن كان فعل ذلك ، فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته ، فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت ، قال : فهو الذي يقول إخوة يوسف ، حين صنع بأخيه ما صنع حين أخذه : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾.

﴿فَأَسَرَّها يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ أي فأخفى في نفسه مقالتهم هذه ، أو أخفى الجملة أو الكلمة التي بعدها وهي قوله : ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً ..﴾.

﴿وَلَمْ يُبْدِها لَهُمْ﴾ أي لم يظهر ما في نفسه من مؤاخذتهم بمقالتهم ، بل صفح عنهم.

﴿قالَ : أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ أي وقال لهم في نفسه دون إعلان لهم : أنتم شر مكانا ومنزلة ممن تتهمونه بالسرقة ، إذا أنكم سرقتم من أبيكم أخاكم ، وطرحتموه في البئر ، بقصد الهلاك والتخلص منه.

﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾ أي والله عالم بما تذكرون وما تصفونه به.

وهذا من قبيل الإضمار قبل الذكر ، وهو كثير في اللغة والقرآن والحديث.

ثم استعطفوه واستشفعوا لديه لعله يأخذ أحدهم مكانه ، فالفداء أو العفو أيضا جائز في شرعهم : ﴿قالُوا : يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ﴾ أي قالوا : يا أيها العزيز ، إن له أبا شيخا هرما متعلقا به ، فهو يحبه حبا شديدا ، ويتسلى به عن ولده الذي فقده ، أو هو كبير القدر والمقام جدير بالرعاية والمجاملة والعناية.

فخذ أحدا منا بدله ، يكون عندك عوضا عنه ، إنا نراك من المحسنين لنا في ميرتنا وضيافتنا ، أو من العادلين المنصفين ، القابلين للخير ، أو من عادتك الإحسان مطلقا ، فأحسن إلينا.

فأجابهم : ﴿قالَ : مَعاذَ اللهِ ..﴾ أي نعوذ بالله معاذا أو نستعيذ بالله أن نأخذ غير من وجدنا الصواع عنده ، كما قلتم واعترفتم ، ولم يقل : إلا من سرق ، تحاشيا للكذب ، إنا إذا أخذنا غيره كان ذلك ظلما في مذهبكم ، فهو أخذ بريء بمتهم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم. والمقصود الحقيقي من هذا الكلام بيان أن الله أمرني وأوحى إلي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة في ذلك ، فلو أخذت غير من أمرني بأخذه ، كنت ظالما وعاملا على خلاف الوحي. وهو رد قوي لهم ، متضمن الاستعاذة من رأيهم ، لأنه ظلم. ثم جاء دور حوارهم مع بعضهم.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا ..﴾ أي فلما يئس إخوة يوسف من إطلاق سراح أخيهم بنيامين الذي التزموا لأبيهم برده إليه ، وعاهدوا على ذلك ، انفردوا عن الناس يتناجون فيما بينهم ويتشاورون في أمرهم. قال كبيرهم في السن أو في العقل والرأي وهو روبيل أو يهوذا الذي أشار بإلقائه في البئر عند ما هموا بقتله : إن هذا الأمر عظيم ، ألم تذكروا أخذ أبيكم موثقكم لتردّنه إليه ، إلا أن يحاط بكم ، وألم

تعلموا أيضا تفريطكم في الماضي بأخيكم يوسف وإضاعته عن أبيكم ، مما جعله رهين الحزن والأسى عليه؟!

﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ...﴾ فلن أغادر أرض مصر أبدا ، وأترك بنيامين فيها ، حتى يأذن لي أبي في العودة إليه ، أو يحكم الله لي بأن يمكنني من أخذ أخي أو بالخروج من مصر ، وهو خير الحاكمين ، فلا يحكم أبدا إلا بالحق والعدل.

هذا قراره الشخصي ، وأما رأيه فيما يقولون لأبيهم فهو ﴿ارْجِعُوا ..﴾ أي عودوا إلى أبيكم وقولوا له : يا أبانا إن ابنك سرق صواع الملك ، فاسترقه العزيز القائم بأمر الحكم في مصر ، على وفق شريعتنا التي أخبرناه بها ، وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه وشاهدنا من إخراج الصواع من وعاء بنيامين ، وما كنا للغيب حافظين ، أي وما علمنا أنه سيسرق ويسترق حين أعطيناك الموثق ، أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف ، وفي الجملة : حقيقة الحال غير معلومة لنا ، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى.

﴿وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ..﴾ أي واسأل يا أبانا عما حدث أهل القرية التي كنا فيها وهي مصر ، فقد اشتهر أمر هذه السرقة فيهم ، واسأل أصحاب العير الذين كانوا يأتون بالميرة (الطعام) معنا. وهذا مبالغة منهم في إزالة التهمة عن أنفسهم ، لأنهم مشكوك فيهم ، وكانوا متهمين بسبب واقعة يوسف عليه السلام . ثم أكدوا صدقهم بقوله : ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به من أنه سرق ، وأخذوه بسرقته ، وهذا مقال كبيرهم ، ثم ذكر تعالى مقال أبيهم :

﴿قالَ : بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ ..﴾ أجابهم أبوهم بما يدل على عدم تصديقهم فيما قالوا ، كما أجابهم حين جاؤوا على قميص يوسف بدم كذب : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ ..﴾ بل زينت لكم أنفسكم أمرا آخر أردتموه ، وكيدا جديدا فعلتموه؟ وإلا فما أدرى ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقته لولا فتواكم وتعليمكم!

فأمري الاعتصام بالصبر الجميل وهو الذي لا جزع فيه ولا شكاية لأحد ، وإنما أرضى بقضاء الله وقدره ، وأشكو إلى الله وحده ، ثم ترجى أن يرد عليه أولاده الثلاثة : يوسف وبنيامين ، وروبيل الذي أقام بمصر ، ينتظر أمر الله فيه : إما أن يرضى عنه أبوه ، فيأمره بالرجوع إليه ، وإما أن يأخذ أخاه خفية ، فقال : ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً ..﴾ أي لعل الله الذي أطلب منه إرجاع أولادي الثلاثة أن يعيدهم إلي جميعا ، وقد كان ملهما أن يوسف لم يمت ، إنه هو العليم بحالي من الكبر والحزن ، الحكيم في أفعاله وقضائه وقدره ، فما بعد الشدة إلا اليسر ، وما بعد الكرب إلا الفرج.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ ..﴾ وأعرض يعقوب عن بنيه كارها لما قالوا ووصفوا ، وقال متذكرا حزن يوسف القديم : يا حزني ويا أسفي على يوسف ، والأسف : أشد الحزن والحسرة ، فجدد له حزن الابنين الحزن الدفين. وهو دليل على تمادي أسفه على يوسف ، وأن المصاب فيه دائم متجدد لم ينس مع تقادم العهد.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ ..﴾ أي أصيبت عيناه بسبب الحزن بغشاوة بيضاء ، حجبت البصر والرؤية فأصبح كظيما أي ساكتا لا يشكو أمره إلى مخلوق ، كاظما غيظه على أولاده. قيل : ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف ، إلى حين لقائه ، ثمانين عاما ، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب.

والجزع البالغ والحزن الشديد أمر إنساني عند الشدائد والمصائب ، وهو غير مذموم شرعا إذا اقترن بالصبر ، وضبط النفس ، حتى لا يخرج إلى مالا يحسن ، ولقد بكى رسول ﷺ على ولده إبراهيم ، وقال فيما رواه الشيخان : «إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون».

وإنما الجزع المذموم : ما يقع من الجهلة من الصياح والنياحة ولطم الصدور

والوجوه ، وتمزيق الثياب. عن النبي ﷺ «أنه بكى على ولد بعض بناته ، وهو يجود بنفسه ، فقيل : يا رسول الله ، تبكي وقد نهيتنا عن البكاء؟ فقال : ما نهيتكم عن البكاء ، وإنما نهيتكم عن صوتين أحمقين : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح».

وقال الحسن البصري حينما بكى على ولد أو غيره : «ما رأيت الله جعل الحزن عارا على يعقوب».

وعند ما شاهد أولاد يعقوب ما حدث لأبيهم ، رقوا له ، وقالوا له على سبيل الرفق به والشفقة عليه : والله لا تزال تذكر يوسف ، حتى تصير مريضا ضعيف القوة ، أو تموت ، أي إن استمر بك هذا الحال ، خشينا عليك الهلاك والتلف.

فأجابهم عما قالوا : ﴿**إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ**﴾ أي لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم حزني ، إنما أشكو همّي الشديد وأسفي وما أنا فيه إلى الله وحده داعيا له وملتجئا إليه ، فخلوني وشكايتي ، وأعلم من الله ما لا تعلمون ، أي أرجو منه كل خير ، لأني أعلم من صنعه وإحسانه ورحمته وحسن ظني به أن يأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب. روي أنه رأى ملك الموت في منامه ، فسأله ، هل قبضت روح يوسف؟ فقال : لا والله ، هو حيّ فأطلبه. وقال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿**وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ..**﴾ يعني رؤيا يوسف أنها صدق ، وأن الله لا بد أن يظهرها.

﴿**يا بَنِيَّ ، اذْهَبُوا ..**﴾ يا أولادي اذهبوا إلى مصر ، وتعرفوا أخبار يوسف وأخيه بنيامين. والتحسس يكون في الخير ، والتجسس يكون في الشر ، فهو قد ندبهم على الذهاب إلى مصر للتعرف على أخبار إخوتهم ، وأمرهم ألا ييأسوا من روح الله أي من فرجه وتنفيسه الكرب ، ولا يقطعوا رجاءهم وأملهم من الله فيما يقصدونه ، فإنه لا يقطع الرجاء ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون أي

الذين يجحدون قدرته ورحمته ، ويجهلون حكمة الله في عباده. أما المؤمنون فلا ييأسون من رحمة الله وتفريجه الكروب ، وإزالته الشدائد. قال ابن عباس رضي الله عنهما : «إن المؤمن من الله على خير ، يرجوه في البلاء ، ويحمده في الرخاء».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لم يتغير موقف أولاد يعقوب العشرة في حال الصغر والكبر معا ، وظلوا على حقدهم وحسدهم وكراهيتهم لأخويهما : يوسف وبنيامين ، وقد فهم هذا من محاولة تبرئة أنفسهم بأنهم على منهج وطريقة وسيرة تختلف عن منهج وسيرة أخويهم ، فأخواهما مختصان بهذه الطريقة واحتراف السرقة ، لأنهما من أم أخرى.

والحق أن سرقة يوسف كانت رضى لله ، وكانت على ما يبدو في حال الصغر ، والصغير غير مكلف ، ولم يكن وضع الصواع في رحل بنيامين منه إنما كان من غيره.

٢ ـ لم يقابلهم يوسف بالإساءة والتصريح عما في نفسه ، وإنما أسرّ في نفسه مقالتهم ، وقولهم هو : ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ وقيل : إنه أسرّ في نفسه على طريقة الإضمار قبل الذكر قوله : ﴿أَنْتُمْ شَرٌّ مَكاناً﴾ ثم جهر فقال : ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِما تَصِفُونَ﴾.

٣ ـ استعطفوه لإطلاق سراح أخيهم بنيامين أو قبول الفداء عنه بأخذ أحدهم بدله ، بحال أبيه الشيخ الكبير أي كبير القدر ، ولم يريدوا كبير السن ، لأن ذلك معروف من حال الشيخ ، واستعطفوه أيضا بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم.

وأما عرضهم أخذ البدل عنه فهو إما مجاز ، لأنهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حر يسترق بدل المتهم ، وإنما هو مبالغة في استنزاله ، كما تقول لمن تكره فعله : اقتلني ولا تفعل كذا وكذا ، وأنت لا تريد أن يقتلك ، ولكنك مبالغ في استنزاله.

وإما أن يكون قولهم : ﴿فَخُذْ أَحَدَنا مَكانَهُ﴾ حقيقة ، من طريق الكفالة بالنفس ، ليصل بنيامين إلى أبيه ، ويعرف جلّية الأمر ، والكفالة بالنفس جائزة على التحقيق في المذاهب الإسلامية الأربعة ، حتى عند الشافعي على الراجح.

وعلى كل حال كما أن الاستعباد للسارق في شرع إسحاق ويعقوب جائز ، كذلك العفو وأخذ الفداء كان جائزا أيضا.

٤ ـ رفض يوسف عليه السلام أخذ البدل ، ووصف ذلك بأنه ظلم.

٥ ـ تشاور أولاد يعقوب فيما يفعلون أمام الميثاق الذي أخذه عليهم أبوهم مؤكدا باليمين بالله ، وتذكروا تفريطهم السابق بيوسف ، فقرر أكبرهم في السن أو في الرأي والعقل وهو شمعون أو يهوذا أو روبيل البقاء في مصر ، حتى يأذن له أبوه بالرجوع إليه ، لاستحيائه منه ، أو يحكم الله له بالمضي مع أخيه إلى أبيهما. وهذا دليل على أن التناجي والمشاورة في أمر ما مطلوب شرعا.

وقد ذكر القاضي عياض في «الشفا» أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ هذه الآية : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام. إذ أن هذه الجملة تضمنت معاني كثيرة ، يعبر عنها اليوم بجمل كثيرة لعقد اجتماع سري ، وتشاور فيه ، ومداولة فيما يجابهون به أباهم ، وكيفية بيان الحادث له.

٦ ـ اتفق أولاد يعقوب بمشورة كبيرهم الذي بقي في مصر على مصارحة أبيهم بما حدث من واقعة السرقة ، وشهادتهم في الظاهر عليها ، حيث أخرج الصواع

من متاع بنيامين ، وجهلهم بالمغيب ، فلم يعلموا وقت أخذ الميثاق عليهم أنه يسرق ، ويصير أمرهم إلى ما آل إليه ، من الاستعباد أو الاسترقاق ، عملا بما هو المقرر من جزاء في شريعتهم.

وعلى كل حال فإنهم لما تفكروا في الأصوب ظهر لهم أن الأصوب هو الرجوع وأن يذكروا لأبيهم كيفية الواقعة على نحو ما حدثت.

٧ ـ تضمنت آية ﴿وَما شَهِدْنا إِلَّا بِما عَلِمْنا﴾ جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها ، فتصح شهادة المستمع والمعاين والأعمى والأخرس إذا فهمت إشارته ، وكذلك تصح الشهادة على الخط إذا تيقن الشاهد أن الخط خط الكاتب أو خط فلان ، فكل من حصل له العلم بشيء ، جاز أن يشهد به ، وإن لم يشهده المشهود عليه ، قال الله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٨٦] وقال رسول الله ﷺ فيما أخرجه مسلم عن زيد بن خالد الجهني : «ألا أخبركم بخير الشهداء : خير الشهداء الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها».

وقد شهد أولاد يعقوب بما رأوه حين إخراج الصواع من رحل أخيهم ، فغلب على ظنهم أنه هو الذي أخذ الصواع.

وأما شهادة المرور بأن يقول : مررت بفلان فسمعته يقول كذا ، فالصحيح أنه إذا استوعب القول ، جاز أداء الشهادة عليه.

وإذا ادعى رجل شهادة لا يحتملها عمره ، ردّت ، لأنه ادّعى باطلا ، فأكذبه العيان ظاهرا.

والخلاصة : أن الشهادة تكون بالاعتماد على الحواس الظاهرة ، أما حقيقة الغيب فلا يعلمها إلا الله تعالى.

٨ ـ استعان أولاد يعقوب لإقناع أبيهم بصدق قولهم بسؤال أناس من أهل

مصر ، وسؤال قوافل الطعام التي كانت معهم من قوم من الكنعانيين ، وهذا يدل على أن كل من كان على حق ، وعلم أنه قد يظن به أنه على خلاف ما هو عليه أو يتوهم : أن يرفع التهمة وكل ريبة عن نفسه ، ويصرح بالحق الذي هو عليه ، حتى لا يبقى لأحد كلام ، وقد فعل هذا نبينا ﷺ . فيما رواه البخاري ومسلم . بقوله للرجلين اللذين مرّا ، وهو مع صفية يردّها من المسجد : «على رسلكما ، إنما هي صفية بنت حيي». فقالا : سبحان الله! وكبر عليهما ، فقال : «إن الشيطان يبلغ من الإنسان مبلغ الدم ، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئا».

ثم إنهم بالغوا في التأكيد والتقرير فقالوا : ﴿وَإِنَّا لَصادِقُونَ﴾ يعني سواء نسبتنا إلى التهمة ، أو لم تنسبنا إليها ، فنحن صادقون.

٩ ـ الواجب على كل مسلم إذا أصيب بمكروه في نفسه أو ولده أو ماله أن يتلقى ذلك بالصبر الجميل والرضا والتسليم ، ويقتدي بنبي الله يعقوب وسائر النبيين عليهم السلام . قال يعقوب في واقعتي يوسف وبنيامين : ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إلا أنه قال في واقعة يوسف : ﴿وَاللهُ الْمُسْتَعانُ عَلى ما تَصِفُونَ﴾ وقال في واقعة بنيامين : ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾.

١٠ ـ قول يعقوب ﴿عَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً﴾ صادر عن علمه بالوحي أو بالإلهام أو بسؤال ملك الموت أن يوسف عليه السلام لم يمت ، وإنما غاب عنه خبره. والذين تمنى إحضارهم ثلاثة : كبير أولاده ويوسف وبنيامين.

١١ ـ تجدد مصاب يعقوب وحزنه على يوسف بغياب ولدين آخرين هما أكبر أولاده وأصغرهم ، فأسف أسفا شديدا ، والأسف : شدة الحزن على ما فات ، وعمي فلم يعد يبصر بعينيه ست سنين من البكاء ، الذي كان سببه الحزن.

ولكن الله العالم بحقائق الأمور الحكيم فيها على الوجه المطابق للفضل والإحسان والرحمة والمصلحة هيأ لجمع الأسرة كلها.

١٢ ـ إن الحزن ليس بمحظور إذا اقترن بالصبر والرضا والتسليم لقضاء الله وقدره ، فذلك من طبع الإنسان وعاطفته ، وإنما المحظور هو السخط على القضاء والقدر ، والولولة ، وشق الثياب ، والكلام بما لا ينبغي ، قال النبي ﷺ فيما أخرجه الشيخان : «تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب».

وبناء عليه لما سمع يعقوب عليه السلام كلام أبنائه ، ضاق قلبه جدا ، وأعرض عنهم ، وفارقهم ، ثم طلبهم أخيرا وعاد إليهم.

١٣ ـ أشفق أولاد يعقوب على أبيهم ، ورقوا ، وذكروا له مخاطر الاستمرار في حال الحزن ، وهي إما المرض المضعف القوة ، وإما الهلاك والموت ، وهذا أمر واقعي مطابق لأحوال الناس.

١٤ ـ كانت شكاية يعقوب وحزنه ولجوءه بالدعاء إلى الله وحده ، لا إلى أحد من الخلق ، وهذا هو المطلوب شرعا في كل شاك حزين.

١٥ ـ إن نبي الله يعقوب يعلم مالا يعلم غيره من الناس بما عند الله من رحمة وإحسان وتفريج كرب ، ويعلم أيضا أن رؤيا يوسف صادقة ، وأنه وزوجته وأبناؤه سيسجدون له ، تصديقا لرؤياه السابقة وهو صغير.

١٦ ـ تيقن يعقوب عليه السلام حياة ابنه يوسف إما بالرؤيا ، وإما بإخبار ملك الموت إياه بأنه لم يقبض روحه ، وهو أظهر ، فعاد يكلم أولاده باللطف ، وطلب منهم الذهاب إلى مصر للبحث عن يوسف وأخيه.

١٧ ـ لا يقنط من فرج الله إلا القوم الكافرون ، وهذا دليل على أن الكافر يقنط في حال الشدّة ، وعلى أن القنوط من الكبائر ، أما المؤمن فيرجو دائما فرج الله تعالى.

قال الرازي : واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال ، أو غير عالم بجميع المعلومات ، أو ليس بكريم ، بل هو بخيل ، وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر ، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند حصول أحد هذه الثلاثة ، وكل واحد منها كفر ، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا لمن كان كافرا [١].

الفصل الخامس عشر من قصة يوسف

تعرّف أولاد يعقوب على يوسف في المرة الثالثة واعترافهم

بخطئهم وعفوه عنهم

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قالُوا يا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) قالَ هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ (٨٩) قالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قالَ أَنَا يُوسُفُ وَهذا أَخِي قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قالُوا تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللهُ عَلَيْنا وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ (٩١) قالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣)﴾

---

(١) تفسير الرازي : ١٨ / ١٩٩

الإعراب :

﴿لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ اللام : لام الابتداء ، وأنت : مبتدأ ، و ﴿يُوسُفُ﴾ : خبره ، والجملة من المبتدأ والخبر : في موضع رفع خبر «إن» ويجوز أن تكون ﴿لَأَنْتَ﴾ ضمير فصل على قول البصريين ، أو عمادا على قول الكوفيين.

﴿مَنْ يَتَّقِ مَنَ﴾ شرطية مبتدأ ، وخبره : ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وكان الأصل أن يقال : فإن الله لا يضيع أجرهم ، ليعود من الجملة إلى المبتدأ ذكر ، إلا أنه أقام المظهر مقام المضمر ، كقول الشاعر : لا أرى الموت يسبق الموت شيء. أي يسبقه شيء. وهو كثير في كلام العرب. والجملة من المبتدأ والخبر خبر إن الأولى ، والهاء فيها : ضمير الشأن والحديث. و ﴿يَصْبِرْ﴾ : مجزوم بالعطف على ﴿يَتَّقِ﴾. ومن قرأ «يتقي» على جعل من بمعنى «الذي» وإذا كانت بمعنى الذي ، ففيها معنى الشرط ، ولهذا تأتي الفاء في خبرها في الأكثر ، مثل : ﴿فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقين ٦٣ / ١٠].

﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا : نافية للجنس ، و ﴿تَثْرِيبَ﴾ : اسمها ، و ﴿عَلَيْكُمُ﴾ متعلق بالخبر المحذوف ، وتقديره : لا تثريب مستقر عليكم ، واليوم منصوب بالخبر المحذوف. ولا يجوز أن يتعلق أحدهما بتثريب ، لأنه لو كان متعلّقا به ، لوجب أن يكون منونا ، كقولهم: لا خيرا من زيد.

المفردات اللغوية :

﴿الضُّرُّ﴾ أي شدة الجوع ﴿بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾ أي بدراهم رديئة أو زيوف ، يدفعها التجار ، من أزجى الشيء : إذا دفعه برفق ، كما في قوله تعالى : ﴿يُزْجِي سَحاباً﴾ [النور ٢٤ / ٤٣].

﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي فأتم لنا الكيل ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا﴾ بالمسامحة عن رداءة بضاعتنا ، أو برد أخينا ﴿إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ يثيبهم أحسن الجزاء ، والتصدق : التفضل مطلقا ، ولكنه اختص عرفا بما يبتغى به ثواب من الله تعالى.

ثم قال لهم توبيخا : ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ من الضرب والبيع وغير ذلك ﴿وَأَخِيهِ﴾ فعلهم بأخيه : إفراده عن يوسف وإذلاله ، حتى كان لا يستطيع أن يكلمهم إلا بعجز

وذلة ﴿إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾ قبح أو عاقبة فعلكم ، فأقدمتم عليه. وإنما قال ذلك تحريضا لهم على التوبة وشفقة عليهم ، لما رأى من عجز هم وتمسكنهم ، لا معاتبة وتثريبا.

﴿قالُوا﴾ بعد أن عرفوه ، لما ظهر من شمائله ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ استفهام تقرير وإثبات ، وحقق بأن ودخول اللام عليه ﴿وَهذا أَخِي﴾ من أبي وأمي ، ذكره تعريفا لنفسه به ، وتفخيما لشأنه ﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ أنعم علينا بالاجتماع والسلامة والكرامة ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾ يخف الله ﴿وَيَصْبِرْ﴾ على ما يناله من البليات ، أو على الطاعات وعن المعاصي ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وضع الظاهر ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ موضع الضمير أجرهم للتنبيه على أن المحسن : من جمع بين التقوى والصبر.

﴿آثَرَكَ﴾ فضلك ، واختارك علينا بحسن الصورة وكمال السيرة وبالملك والسلطة وغيرها ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾ إن مخففة من الثقيلة ، أي إنا كنا ، أي والحال أن شأننا أنا كنا مذنبين بما فعلنا معك ، وآثمين في أمرك. والخاطئ : الذي يتعمد الخطيئة ، والمخطئ : الذي يريد الصواب فيخطئه ويصير إلى غيره. والخطء : الذنب.

﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ لا لوم ولا تأنيب عليكم ﴿الْيَوْمَ﴾ خصه بالذكر ، لأنه مظنة التثريب ، فغيره أولى. وهو متعلق بالتثريب ، أو بالخبر المحذوف وتقديره : لا تثريب كائن أو حاصل عليكم ﴿يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ لأنه صفح عن جريمتهم التي اعترفوا بها حينئذ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فإنه يغفر الصغائر والكبائر ، ويتفضل على التائب.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا﴾ هو قميص إبراهيم الذي لبسه ، حين ألقي في النار ، كان في عنقه في الجبّ ، فهو القميص المتوارث ، أو القميص الذي كان عليه. ﴿يَأْتِ بَصِيراً﴾ يصر مبصرا ﴿وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي ائتوني أنتم وأبي وزوجته بنسائكم وذراريكم ومواليكم.

المناسبة :

الكلام مرتبط بما قبله ، بتقدير محذوف ، وهو أن يعقوب لما قال لبنيه : ﴿اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ قبلوا من أبيهم هذه النصيحة ، وعادوا إلى مصر للمرة الثالثة ، يبحثون عن يوسف وأخيه ، بلا يأس ، وإنما بأمل وجدّ في البحث ، فلما التقوا مع يوسف العزيز ، ورق قلبه لاستعطافهم ، عرّفهم بنفسه ، وتم اجتماع الإخوة الاثني عشر.

التفسير والبيان :

فلما ذهبوا في المرة الثالثة ، فدخلوا مصر ، ودخلوا على يوسف عليه السلام ، فقالوا مختبرين بذكر حالهم ، واستعطافهم ، وشكواهم إليه رقة الحال وقلة المال مما يرقق القلب : يا أيها العزيز . وكان أبوهم يرى أن هذا العزيز هو يوسف . قد أصابنا وأهلنا الضرر الشديد من الجدب والقحط والجوع وقلة الطعام ، وأتينا إليك بثمن الطعام الذي نمتاره ، وهو ثمن قليل أو رديء زيوف لا يروج بين التجار في الأسواق ، فأتم لنا الكيل كما عودتنا من إحسانك ، وتصدّق علينا بقبض هذه البضاعة المزجاة ، وتسامح فيها بعد أن تتغاضى عن قلتها أو رداءتها ، إن الله يجزي المتصدقين أحسن الجزاء ، فيخلف لهم ما ينفقون ، ويضاعف الثواب لهم.

وكان القصد من هذا الكلام الرقيق والتضرع والتذلل اختبار حال العزيز ، هل يرق قلبه ، ويظهر نفسه ، ويعلن عن شخصه؟ بعد أن ذكروا له ما أصابهم من الجهد والضيق وقلة الطعام ، وما لدى أبيه من الحزن لفقد ولديه.

وقد نجحوا في هذا الاستعطاف ، فأخذته رقة ورأفة ورحمة على أبيه وإخوته ، وهو في حال الملك والتصرف والسعة ، فأجابهم بقوله ، مستفهما عن مدى استقباح فعلهم السابق بيوسف : هل علمتم قبح ما فعلتم بيوسف وأخيه بنيامين؟ حيث ألقيتم يوسف في الجبّ ، وعرضتموه للهلاك ، وفرقتم بينه وبين أخيه ، وما عاملتم به أخاه من معاملة جافّة قاسية ، حال كونكم جاهلين قبح ما فعلتموه ، من عقوق الوالدين ، وقطيعة الرحم والقرابة ، وذلك كما قال بعض السلف : كل من عصى الله فهو جاهل ، وقرأ : ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾ الآية [النحل ١٦ / ١١٩].

والمراد بهذا الاستفهام التقريع والتوبيخ ، ومراد يوسف تعظيم الواقعة ، أي ما أعظم ما ارتكبتم بيوسف ، كما يقال : هل تدري من عصيت؟ والصحيح أنه

قال ﴿جاهِلُونَ﴾ تأنيسا لقلوبهم وبيانا لعذرهم ، كأنه قال : إنما دفعكم لهذا الفعل القبيح جهالة الصبا أو الغرور ، وكأنه لقنهم الحجة ، كقوله تعالى :﴿ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار ٨٢ / ٦] (١).

وهذا تذكير رقيق بذنوبهم ، تمهيدا لتعريفهم بنفسه ، لا معاتبة ولوما وتوبيخا ، بعد أن حان الوقت في هذه المرة الثالثة من لقاء يوسف مع إخوته ، وكان قد أخفى منهم نفسه في المرتين الأوليين بتقدير الله وأمره ، وهو مصداق قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هذا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف ١٢ / ١٥].

فاغتنموا فرصة هذا التذكير وتساؤل العارف الخبير بأحوالهم ، فسألوه سؤال المتعجب المستغرب المقرّر المثبت أنه أخوهم يوسف : ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ أي إنهم استفهموا استفهام تعجب من موقفه أنهم يترددون إليه من سنتين وأكثر ، وهم لا يعرفونه وهو مع هذا يعرفهم ويكتم نفسه ، ولكنهم في هذه المرة عرفوه بقولهم ذلك ، وتوسموا أنه يوسف ، واستفهموه استفهام استخبار ، وقيل : استفهام تقرير ، وهو أولى في تقديري ، لأنهم كانوا عرفوه بعلامات.

قال ابن عباس : إن إخوته لم يعرفوه حتى وضع التاج عنه ، وكان في قرنه علامة ، وكان ليعقوب مثلها شبه الشامة ، فلما قال لهم : ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ﴾ رفع التاج عنه ، فعرفوه ، فقالوا : ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾ أي إنهم قالوا : من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف.

﴿قالَ : أَنَا يُوسُفُ﴾ قال : نعم أنا يوسف المظلوم العاجز ، الذي نصرني الله وقواني وصرت إلى ما ترون ، وهذا أخي بنيامين الذي فرقتم بيني وبينه ،

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٣٤١

ومقصوده : أن هذا أيضا كان مظلوما كما كنت ، ثم صار منعما عليه من قبل الله تعالى ، كما ترون.

﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ أي قد أنعم الله علينا بالاجتماع بعد الفرقة وبعد طول المدة ، وأعزنا في الدنيا والآخرة. وفيه إشارة إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين ، لأنه أخي.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ..﴾ أي إن كل من يتقي الله حق التقوى فيما أمر به ونهى ، ويصبر على طاعة الله وعلى المحن التي يتعرض لها ، فإن الله حسبه وكافيه من كل سوء ، ومنجيه من كل مكروه ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملا في الدنيا والآخرة. وهذه شهادة من الله بأن يوسف من المتقين الصابرين المحسنين.

﴿قالُوا : تَاللهِ لَقَدْ ..﴾ أجابوه إعلانا للحق واعترافا له بالفضل ، والله لقد فضلك الله علينا ، وآثرك بالعلم ، والحلم ، والخلق ، والملك والسعة والتصرف ، والنبوة أيضا ، وأقروا له بأنهم أساؤوا إليه ، وأخطئوا في حقه ، وأعلنوا بأنهم المذنبون الخاطئون ، الذين لا يعذرون.

وبعد اعتذارهم وإعلان توبتهم صفح عنهم فقال : لا لوم ولا تعيير ولا توبيخ ولا تأنيب عليكم اليوم عندي فيما صنعتم ، وكذا فيما قبله من الأيام ، وخص اليوم بالذكر ، لأنه مظنة التثريب والعتاب.

ثم زادهم الدعاء لهم بالمغفرة ، فقال : يغفر الله لكم ذنوبكم وظلمكم ، وهو أرحم الراحمين لمن تاب إليه وأناب إلى طاعته.

﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا ..﴾ لما عرف يوسف نفسه إخوته ، سألهم عن أبيهم ، فقالوا : ذهب بصره ، أي عمي من كثرة البكاء ، فقال لهم بما عرف بالوحي : اذهبوا بقميصي هذا الذي على بدني ، أو المتوارث عن أجدادي وآبائي إبراهيم

وإسحاق ويعقوب ، فألقوه على وجه أبي فور وصولكم إليه ، يأت مبصرا (ذا بصر) كما كان ، فإن الغشاوة التي ألمت به تزول بالفرح والبشرى ، وذلك بفضل الله وكرمه ، وأتوني بجميع أهليكم من الرجال والنساء والأولاد ، روي أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ جواز الشكوى عند الضّرّ ، أي الجوع ، بل يجب على الإنسان إذا خاف على نفسه الضر من الفقر وغيره ، أن يبدي حالته إلى من يرجو منه النفع ، كما يجب عليه أن يشكو ما به من الألم إلى الطبيب ليعالجه ، ولا يكون ذلك معارضا التوكل :

وهذا ما لم يكن التشكي على سبيل التسخط. ويظل الصبر والتجلّد في النوائب أحسن ، والتعفف عن المسألة أفضل ، وأحسن الكلام في الشكوى سؤال المولى زوال البلوى ، كما قال يعقوب : ﴿**إِنَّما أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**﴾ أي من جميل صنعه ، وغريب لطفه ، وعائدته على عباده.

أما الشكوى لمن لا يؤمل منه إزالتها فهو عبث وسفه ، إلا أن يكون على وجه البثّ والتسلي.

٢ ـ جواز طلب الزيادة على الحق على سبيل الصدقة ، والصدقة كما ذكر مجاهد لم تحرم إلا على نبينا محمد ﷺ. وروى ابن جرير أن سفيان بن عيينة سئل : هل حرمت الصدقة على أحد من الأنبياء قبل النبي ﷺ؟ فقال : ألم تسمع قوله : ﴿**فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ ، وَتَصَدَّقْ عَلَيْنا ، إِنَّ اللهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ**﴾.

٣ ـ استدل مالك وغيره من العلماء على أن أجرة الكيال على البائع : لأن إخوة يوسف قالوا له : ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ فكان يوسف هو الذي يكيل. وكذلك الوزّان والعدّاد وغيرهم ، لأن على البائع تسليم المبيع وتمييزه عما عداه ، إلا إذا باع شيئا معينا أو ما لا يحتاج إلى الكيل أو الوزن أو العدد ، ولأن البائع لا يستحق الثمن إلا بعد إيفاء الحق بالكيل أو الوزن.

وكذلك أجرة النقد (فحص الدراهم التي هي الثمن) على البائع أيضا ، لأنه هو الذي يدّعي الرداءة ، ولأن النفع يقع له ، فصار الأجر عليه.

ويكره للرجل أن يقول في دعائه : اللهم تصدق عليّ ، لأن الصدقة إنما تكون ممن يبتغي الثواب ، والله تعالى متفضل بالثواب بجميع النعم ، لا رب غيره.

٤ ـ استنباط الأحكام من فحوى الكلام وما يصحبه من إشارات ، فإن يوسف وجّه لإخوته استفهاما بمعنى التذكير والتوبيخ بقوله : ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ ما فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ؟﴾ ففهموا منه أنه يوسف ، فقالوا على سبيل استفهام التقرير والإثبات : ﴿أَإِنَّكَ لَأَنْتَيُوسُفُ؟﴾.

ودل قوله ﴿إِذْ أَنْتُمْ جاهِلُونَ﴾ على أنهم كانوا صغارا في وقت أخذهم ليوسف ، وليسوا أنبياء ، لأنه لا يوصف بالجهل إلا من كانت هذه صفته ، ويدل على أنه حسنت حالهم الآن ، أي فعلتم فعلكم إذ أنتم صغار جهال.

وتعرف إخوة يوسف عليه ، فتجاوب معهم وعرفهم بنفسه قائلا : ﴿أَنَا يُوسُفُ﴾ أي أنا المظلوم.

قال ابن عباس : كتب يعقوب إلى يوسف بطلب ردّ ابنه ، وفي الكتاب : من يعقوب صفيّ الله ابن إسحاق ذبيح الله ، ابن إبراهيم خليل الله إلى عزيز مصر :

أما بعد ، فإنا أهل بيت بلاء ومحن ، ابتلى الله جدّي إبراهيم بنمروذ وناره ، ثم ابتلى أبي إسحاق بالذبح ، ثم ابتلاني بولد كان لي أحبّ أولادي إلي ، حتى كفّ بصري من البكاء ، وإني لم أسرق ولم ألد سارقا ، والسّلام.

فلما قرأ يوسف الكتاب ارتعدت مفاصله ، واقشعرّ جلده ، وأرخى عينيه بالبكاء ، وعيل صبره ، فباح بالسرّ.

وأعلن يوسف عن مزيد فضل الله عليه بقوله : ﴿قَدْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنا﴾ أي بالاجتماع بعد الفرقة ، وبالعز بعد الذل ، وبالنجاة والملك.

٥ ـ إن من اتقى الله بالتزام ما أمر واجتناب ما نهى ، وصبر على المصائب وعن المعاصي ، فإن الله يدخر له ثواب إحسانه العمل ، ولا يضيع منه شيئا.

٦ ـ الاعتراف بالذنب أو الخطأ سبيل الحظوة بالعفو والصفح ، فإن قول إخوة يوسف : ﴿وَإِنْ كُنَّا لَخاطِئِينَ﴾ أي مذنبين ، متضمن سؤال العفو ، وقد ظفروا به.

ولا مانع من العفو عن الخطأ وإن كان عمديا ، فهو تجاوز للحق ، أيا كانت صفته ، وكل من اقترف ذنبا متجاوز لمنهاج الحق ، واقع في الشبهة والمعصية.

٧ ـ شهد الله تعالى لنبيه يوسف عليه السلام بصفات المتقين الصابرين المحسنين ، وكفى بشهادة الحق فخرا ، وهذا تعليم وتدريب ومثل عملي لنا.

٨ ـ كانت عبارة يوسف : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ مثلا رائعا في السماحة والعفو والصفح ، فهو عفو لا لوم فيه ولا تعيير ، وهو صفح في حال المقدرة على العقاب ، وهو تنازل عن أي حق دون أي حقد أو كراهية ، وأضيف إليه الدعاء بالمغفرة على الذنب والستر ، والرحمة في عالم الآخرة بين يدي أرحم الراحمين. وهو لا يكون إلا عن وحي ، فكان مرد الفضل في النهاية إلى الله تعالى.

واحتذى نبينا عليه الصلاة والسّلام حذو أخيه يوسف عليه السلام في هذا القول العظيم يوم فتح مكة بإعلان العفو عن قريش ، روى ابن مردويه عن ابن عباس ، والبيهقي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أخذ بعضادتي الباب يوم فتح مكة ، وقد لاذ الناس بالبيت فقال : «الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم قال : ماذا تظنون يا معشر قريش؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، وقد قدرت ، قال : وأنا أقول كما قال أخي يوسف : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فخرجوا كأنما نشروا من القبور».

وقال عطاء الخراساني : طلب الحوائج من الشباب أسهل منه من الشيوخ ، ألم تر قول يوسف : ﴿لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ﴾ وقال يعقوب : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾.

٩ ـ حدثت الفرحة الصغرى بعودة البصر إلى يعقوب حينما ألقي عليه قميص يوسف. وهو ـ في القول الأصح المروي مرفوعا عن أنس عن النبي ﷺ ، فيما ذكر القشيري ـ قميص إبراهيم الذي ألبسه الله أثناء إلقائه في النار من حرير الجنة ، وكان كساه إسحاق ، وكان إسحاق كساه يعقوب ، ويعقوب علقه في عنق يوسف ، لما كان يخاف عليه من العين ، وأخبره جبريل بأن أرسل قميصك فإن فيه ريح الجنة ، وإن ريح الجنة لا يقع على سقيم ولا مبتلى إلا عوفي. وهذا بإعلام الله يوسف به. وقيل : إنه قميص يوسف الذي خلعه من على بدنه ، فإنه إذا ألقي على أبيه انشرح صدره ، وحصل في قلبه الفرح الشديد ، والفرح يقوي الروح ، ويزيل الضعف عن القوى الحسية ، فيقوى بصره ، ويزول عنه ما غشيه بسبب البكاء ، والطب يؤيد ذلك.

١٠ ـ تمت الفرحة الكبرى بطلب يوسف عليه السلام من إخوته إحضار جميع أسرته إلى مصر لاتخاذها دارا ، وكان عددهم سبعين أو ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة.

الفصل السادس عشر من قصة يوسف

إخبار يعقوب بريح يوسف وتأييده ببشارة البشير

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ (٩٦) قالُوا يا أَبانَا اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنَّا كُنَّا خاطِئِينَ (٩٧) قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨)﴾

الإعراب :

﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ﴾ أن لتأكيد الربط بين شرط «لما» وهو ﴿جاءَ﴾ وجوابها وهو ﴿أَلْقاهُ﴾.

البلاغة :

﴿تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ﴾ هذا استنكار من القوم الحاضرين مجلس يعقوب الذين أخبرهم بأن يوسف حي ، وأكدوا كلامه بمؤكدات ثلاثة : القسم وإنّ واللام.

المفردات اللغوية :

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ انفصلت عن بلد مصر وجاوزت حدودها وخرجت من العريش ﴿قالَ أَبُوهُمْ﴾ لمن حضره من ولد ولده ومن حوله من قومه ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لأحس برائحة يوسف ، أشعره الله برائحة القميص حين أقبل به إليه يهوذا من ثمانين فرسخا [1] أي حملته إليه ريح الصبا بإذنه تعالى من مسيرة ثلاثة أيام أو ثمانية أو أكثر ﴿تُفَنِّدُونِ﴾ تنسبوني إلى الفند : وهو ضعف العقل الحادث بسبب الهرم ، أو الخرف ، وجواب ﴿لَوْ لا﴾ محذوف ، تقديره : لصدقتموني ، أو لقلت : إنه قريب.

---

(١) الفرسخ : ٥٥٤٤ م

﴿قالُوا﴾ أي الحاضرون ﴿لَفِي ضَلالِكَ﴾ خطئك ، أو في إفراطك في حبه ، وإكثار ذكره ، وتوقع لقائه بعد طول العهد ﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ﴾ يهوذا ، روي أنه قال : كما أحزنته بحمل قميصه الملطخ بالدم إليه ، فأفرحه بحمل هذا إليه ، وأن : زائدة ﴿أَلْقاهُ عَلى وَجْهِهِ﴾ طرح البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام . ﴿فَارْتَدَّ﴾ رجع بصيرا ، لما انتعش فيه من القوة ، بسبب الفرح والبهجة.

المناسبة :

عمت الفرحة أولاد يعقوب في أرجاء مصر ، بعد تعارفهم ، وانتقل أثر الفرح إلى أرض كنعان في أسعد عودة من رحلتهم الثالثة إلى مصر ، وأظهر الله المعجزة على يد يعقوب عليه السلام بإحساسه برائحة يوسف ، وأيّد الله ذلك الشعور ببشارة البشير ابنه الأكبر الذي اعتصم في مصر ، حتى يأذن له أبوه بالرجوع بعد بقاء أخيه بنيامين.

روى الواحدي عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال : أما قوله : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلى وَجْهِ أَبِي ، يَأْتِ بَصِيراً﴾ فإن نمروذ الجبار ، لما ألقى إبراهيم في النار ، نزل عليه جبريل عليه السلام بقميص من الجنة ، وطنفسة من الجنة ، فألبسه القميص ، وأجلسه على الطنفسة ، وقعد معه يحدثه ، فكسا إبراهيم عليه السلام ذلك القميص إسحاق ، وكساه إسحاق يعقوب ، وكساه يعقوب يوسف ، فجعله في قصبة من فضة ، وعلقها في عنقه ، فألقي في الجب ، والقميص في عنقه.

التفسير والبيان :

ولما خرجت إبل أولاد يعقوب من حدود مصر عائدة إلى أرض كنعان (فلسطين) من بلاد الشام ، قال يعقوب النبي عليه السلام لمن حضره من حفدته وقومه : إني لأشم رائحة يوسف وقميصه ، لولا أن تنسبوني إلى الفند (الخرف وضعف العقل) والكبر.

أخرج عبد الرزاق عن ابن عباس قال : لما خرجت العير ، هاجت ريح ، فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ، فقال : ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ ، لَوْ لا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ فوجد ريحه من مسيرة ثمانية أيام.

قال الرازي : والتحقيق أن يقال : إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات ، لأن وصول الرائحة من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة ، فيكون معجزة ليعقوب عليه السلام على الأظهر أو الأقرب [١].

﴿قالُوا : تَاللهِ ..﴾ قال الحاضرون في مجلس يعقوب له : والله ، إنك لفي خطئك القديم الذي طال أمده بظنك أن يوسف حي يرزق يرجى لقاؤه. قال قتادة : أي من حب يوسف ، لا تنساه ولا تسلاه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام .

﴿فَلَمَّا أَنْ جاءَ الْبَشِيرُ ..﴾ فحينما وصل البريد ، وهو ابنه يهوذا يحمل قميص يوسف ، مبشرا له ببقائه حيا هو وأخوه بنيامين ، ألقاه على وجه يعقوب ، فانقلب فورا بصيرا كما كان ، من شدة الفرح.

قال السّدّي : إنما جاء به (أي يهوذا بن يعقوب) لأنه هو الذي جاء بالقميص ، وهو ملطّخ بدم كذب ، فأحبّ أن يغسل ذلك بهذا ، فجاء بالقميص ، فألقاه على وجه أبيه ، فرجع بصيرا.

﴿قالَ : أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ ..﴾ قال يعقوب لأولاده وحفدته ومن حوله : ألم أقل لكم حين طلبت منكم أثناء ذهابكم إلى مصر : ابحثوا عن يوسف ، ولا تيأسوا من روح الله ورحمته : إني أعلم من الله تعالى بوحي منه أشياء لا تعلمونها ، وأعلم أن الله سيردّ يوسف إليّ. وقوله تعالى : ﴿إِنِّي أَعْلَمُ﴾ كلام مستأنف مبتدأ لم يقع

---

(١) تفسير الرازي : ١٨ / ٢٠٨

عليه القول ، ويجوز إيقاع القول عليه وهو ما قاله لهم سابقا : ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ، وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ﴾.

وحين ذاك قالوا لأبيهم مترفّقين معظّمين متوسّلين : ﴿اسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا﴾ ، فإنّا كنّا مذنبين عاصين لله ، فقد تبنا وأنبنا وندمنا على ما فعلنا معك ومع أخوينا : يوسف وبنيامين.

أجابهم والدهم يعقوب : ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ في المستقبل ، لأنّ ربّي غفور ساتر للذّنوب ، رحيم بالعباد.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ يمتاز الأنبياء عن غيرهم بأن الله تعالى يظهر على أيديهم معجزات خارقة للعادة ، خارجة عن المألوف ، وهذا هو الذي مكّن يعقوب من الإخبار برائحة يوسف وقميصه ، قبل وصول أولاده إليه ، حاملين البشارة بلقائهم الحارّ مع أخيهم يوسف عليه السلام.

وقال ابن عباس : هاجت ريح ، فحملت ريح قميص يوسف إليه ، وبينهما مسيرة ثمان ليال. وعلى هذا القول أيضا يكون الإحساس بالرّائحة محتاجا إلى عناية ربّانيّة ، وتأييد روحاني عميق الإدراك.

٢ ـ وظهرت معجزة أخرى بشفاء يعقوب عليه السلام بوضع القميص على وجهه ، بإرادة الله تعالى وعونه ، فهو إذا أراد شيئا قال له : كن فيكون.

٣ ـ كان كلام الحاضرين في مجلس يعقوب عليه السلام مشوبا بالغلظة والتّهكّم ، مما لا يليق توجيهه لنبيّ إطلاقا ، وهو من بنيه زيادة في العقوق.

٤ ـ لم يجد يعقوب عليه السلام عنده شيئا يعطيه مكافأة للبشير ، وإنّما دعا

له قائلا : هوّن الله عليك سكرات الموت. وهذا الدّعاء من أعظم الجوائز وأفضل العطايا والهبات. والآية دالّة على جواز البذل والهبات عند البشائر. جاء في حديث كعب بن مالك : «فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني ، نزعت ثوبيّ ، فكسوتهما إيّاه ببشارته».

وتدلّ الآية أيضا على جواز إظهار الفرح بعد زوال الغمّ والترّح ، بتفريح الصّبيان وإطعام الطّعام ونحوهما ، وقد نحر عمر بعد حفظه سورة البقرة جزورا.

٥ ـ نصر الله نبيّه يعقوب عليه السلام على أولاده وكلّ من حوله ، كما ينصر أنبياءه الكرام في نهاية المطاف وفي عاقبة الأمور ، وتبيّن أنّ الناس مع الأنبياء كالأقزام مع العمالقة ، فلم يجد أولاد يعقوب عليه السلام بدّا من الاعتذار من أبيهم ، وطلب الدّعاء منه أن يغفر الله لهم ، لأنهم أدخلوا عليه من ألم الحزن ما لم يرتفع الإثم عنه أو يسقط المأثم عنه إلا بإحلاله وتسامحه وعفوه عنهم ، كما عفا عنهم أخوهم يوسف.

وهذا الحكم ثابت فيمن آذى مسلما في نفسه أو ماله أو غير ذلك ظالما له ، فإنه يجب عليه أن يتحلّل منه ويطلب صفحة عنه ومسامحته عليه ، ويخبره بالمظلمة وقدرها ، والصّحيح أنه لا ينفعه التّحليل المطلق دون بيان السّبب ، فإنه لو أخبره بمظلمة لها قدر وبال ، ربّما لم تطب نفس المظلوم في التّحلل منها. روى البخاري وغيره عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء ، فليحلله منه اليوم ، قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح ، أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات ، أخذ من سيّئات صاحبه ، فحمل عليه» ، فقوله صلى الله عليه وسلم : «أخذ منه بقدر مظلمته» يجب أن تكون المظلمة معلومة القدر ، مشارا إليها مبيّنة [1].

---

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٢٦٢

٦ ـ لم يستعجل يعقوب عليه السلام بطلب المغفرة لأولاده والدّعاء لهم ، وإنّما أخّر ذلك ـ كما قال ابن عباس ـ إلى السّحر ، قال طاوس : سحر ليلة الجمعة ، ووافق ذلك ليلة عاشوراء. وهذا رأي الأكثرين.

وهذا الموقف من يعقوب يختلف عن موقف يوسف عليهما السلام ، لأنّ دعاء الأول كان مؤجّلا ، ودعاء الثّاني كان في الحال. والسبب أن حال الأب حال المربّي ، فهو يريد تعظيم الذّنب في أنفسهم ، ولأنّ ذنبهم لم يكن موجّها إليه مباشرة ، وإنما إلى يوسف عليه السلام وأخيه ، ولأن خطأهم ذنب كبير حدثت منه أضرار كثيرة ، فيحتاج إلى توبة نصوح ، وندم شديد ، ولا يمحى بمجرد طلب الاستغفار ، ثمّ إن يوسف عليه السلام كان قادرا على عقابهم وهم ضعاف ، فأراد المبادرة إلى تأمينهم من خوف الانتقام منهم ، وتهدئة نفوسهم ، وإظهارا للسّرور عقب المفاجأة بأنه أخوهم ، وليرى الناس فضل العفو عند المقدرة ، ويصبح للنّاس أسوة حسنة.

الفصل السابع عشر من قصة يوسف

لقاء أسرة يعقوب عليه السلام في مصر

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلى يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُءْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠)﴾

الإعراب :

﴿سُجَّداً﴾ جمع ساجد ، كشهّد جمع شاهد ، وهو حال من واو ﴿خَرُّوا﴾ وهي حال مقدّرة.

البلاغة :

﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ جملة دعائية للتّبرّك وجعل الأمان بمشيئة الله تعالى ، وهي متقدّمة على قوله تعالى : ﴿آمِنِينَ﴾ ، والتّقدير : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله.

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً﴾ المراد بأبويه أبوه وأمه أو خالته من باب التّغليب للأب ، والسّجود متقدّم على الرّفع على السّرير ، لكن قدّم الرّفع لفظا للاهتمام بتعظيمه أبويه.

المفردات اللغوية :

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ في الكلام حذف ، تقديره : فرحل يعقوب عليه‌السلام بأهله أجمعين ، وساروا حتى تلقوا يوسف عليه‌السلام . ﴿آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ ضمّ إليه أباه وأمه ، أو خالته ، نزلت منزلة الأم تنزيل العمّ منزلة الأب في قوله تعالى : ﴿وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ﴾ [البقرة ٢ / ١٣٣] وإسماعيل كان عمّا ليعقوب عليه‌السلام .

﴿وَقالَ﴾ يوسف عليه‌السلام لهم. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ سرير الملك. ﴿وَخَرُّوا لَهُ﴾ أي أبواه وإخوته الأحد عشر. ﴿سُجَّداً﴾ سجود تحية وتكرمة له ، وسجود انحناء لا سجود عبادة ، ولا وضع جبهة على الأرض ، فإن ذلك كان تحيتهم في زمانهم. ﴿تَأْوِيلُ رُءْيايَ﴾ مآلها وعاقبتها. ﴿إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ لم يقل من الجبّ تكرّما ، لئلا يخجل إخوته. ﴿الْبَدْوِ﴾ البادية. ﴿نَزَغَ﴾ أفسد ووسوس ، يقال : نزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحثّ على الشّرّ ، وأصل النّزغ : النّخس ، يقال : نزغ الرّائض الدّابة : إذا نخسها وحملها على الجري ، ونزغه الشيطان : نخسه ، ليحثّه على المعاصي. ﴿لَطِيفٌ﴾ لطيف التّدبير لما يشاء ، إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته. ﴿الْعَلِيمُ﴾ بخلقه وبوجوه المصالح والتّدابير. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ، الذي يفعل كلّ شيء في وقته ، وعلى وجه يقتضي الحكمة.

المناسبة :

بعد أن طلب يوسف عليه‌السلام من إخوته أن يأتوه بأهله أجمعين ، أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان إلى مصر ، فخرج يوسف عليه‌السلام للقائهم ، ومعه بأمر الملك أكابر دولته.

فتمّ لقاء الأسرة في المرّة الرّابعة من رحلات أولاد يعقوب عليه‌السلام إلى مصر ، ورأوا يوسف عليه‌السلام في عزّ وأبهة ، وتحققت رؤيا يوسف عليه‌السلام بسجود إخوته الأحد عشر مع أبيه وأمه أو خالته ، فتمّ الاجتماع بعد الفرقة ، والأنس بعد الكدر.

روي أن يوسف عليه‌السلام وجّه إلى أبيه جهازا ومائتي راحلة ، ليتجهّز إليه بمن معه ، وخرج يوسف عليه‌السلام والملك في أربعة آلاف من الجند والعظماء وأهل مصر للقاء يعقوب نبيّ الله عليه‌السلام .

قيل : إن يعقوب وولده دخلوا مصر ، وهم اثنان وسبعون ، ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا منها مع موسى ، والمقاتلون منهم ست مائة ألف وخمس مائة ، وبضع وسبعون رجلا سوى الصبيان والشّيوخ.

وأقام يعقوب عليه‌السلام عند ابنه يوسف عليه‌السلام أربعا وعشرين سنة ، أو سبع عشرة سنة ، وكانت مدّة فراقه ثماني عشر ، أو أربعين أو ثمانين سنة ، وحضره الموت ، فوصّى يوسف عليه‌السلام أن يحمله ويدفنه عند أبيه ، فمضى بنفسه ودفنه ثمة ، ثم عاد إلى مصر ، وأقام بعده ثلاثا وعشرين سنة.

التّفسير والبيان :

بناء على طلب يوسف عليه‌السلام من إخوته إحضار أهله أجمعين إليه من بلاد كنعان إلى مصر ، للإقامة معه فيها ، حضر أبوه وخالته وإخوته وأسرهم ، فلما أخبر يوسف عليه‌السلام باقترابهم ، خرج لتلقّيهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر الناس بالخروج مع يوسف عليه‌السلام ، لتلقي نبيّ الله يعقوب عليه‌السلام ، فلما دخلوا على يوسف عليه‌السلام في أبهة سلطانه ، بعد أن استقبلهم في الطريق مع جموع غفيرة ، ضمّ إليه أبويه وعانقهما : وهما أبوه وأمه على القول الذي رجّحه

ابن جرير ، بأنّها كانت حيّة ، أو أبوه وخالته ؛ لأن أمه قد ماتت ، فتزوّج أبوه خالته.

وقال لأسرته جميعا : ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأموالكم وأهليكم ، لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون.

ورفع أبويه على سرير ملكه بأن أجلسهما معه ، تكريما لهما ، وسجد له الإخوة الأحد عشر والأبوان سجود تحيّة وإكرام له ، لا سجود عبادة وتقديس ، وكان سجود الانحناء هو تحيّة الملوك والعظماء في زمنهم.

ويلاحظ أن في الآية حذفا في مطلعها تقديره : فجاء يعقوب وأسرته حتى وصلوا إلى مصر ، وفيها تقديم المشيئة ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ على قوله : ﴿آمِنِينَ﴾ لأن القصد اصطحاب الدّخول بالأمان والسّلامة والغنيمة ، وكذلك فيها تقديم وتأخير بين الرّفع على العرش وبين السّجود ، فالسّجود متقدّم على الرّفع على السّرير الملكي ، لكن قدّم الرّفع ، اهتماما بتعظيم أبويه.

وحينئذ أعادت الذّاكرة إلى ذهن يوسف عليه السلام رؤياه السابقة في عهد الصّغر ، فقال لما رأى سجود أبويه وإخوته : يا أبت ، هذا السّجود تأويل رؤياي القديمة حال صغري ، وهي : ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ﴾ وتأويل رؤياي : ما آل إليه الأمر.

إن تلك الرؤيا أصبحت حقيقة واقعة وصحيحة صدقا ، فإن رؤيا الأنبياء حقّ ثابت ، كما أن رؤيا إبراهيم ذبح ولده ، صار سببا لوجوب ذلك الذّبح عليه في اليقظة ، فكذلك صارت هذه الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام ، وحكاها ليعقوب من قبل ، سببا لوجوب ذلك السّجود.

وقد أحسن الله تعالى إليّ وأفاض عليّ من نعمه ، إذ أطلق سراحي من

السّجن ، ورزقني الملك ، وجاء بكم من البادية ، وكانوا أهل بادية وماشية وشظف عيش ، فنقلكم إلى الحضر وترف المدينة.

ولم يذكر إخراجه من البئر ، ترفّعا عن لوم إخوته ، وتكريما لهم ، وحفاظا على حيائهم ، ولأن السّجن كان آخر المحن ، وأخطر من السّقوط في الجبّ ؛ لما فيه من اتّهام بالنّساء ، ولأنه بعد خروجه من البئر صار عبدا لا ملكا ، وصار بعد السّجن ملكا ، فكان الإخراج منه أقرب إلى الإنعام الكامل.

حدث هذا كلّه من بعد أن نزغ الشّيطان ، أي أفسد وأغوى بيني وبين إخوتي ، وقد أضاف النّزغ إلى الشّيطان ؛ لأنه سبب الإفساد ، وتكريما لإخوته.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ﴾ أي إذا أراد أمرا قيّض له أسبابا وقدّره ويسّره ، إنه هو العليم بمصالح عباده ، الحكيم في أقواله وأفعاله ، وقضائه وقدره ، وما يختاره ويريده.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إن العاطفة بين الولد وأبويه طبيعية فطرية ، لذا كان إكرام يوسف عليه السلام لأبويه أشدّ من إكرام إخوته ، فعانقهما وضمّهما إليه ، وأجلسهما على سرير الملك معه ، واكتفى بأن قال لجميع الأسرة : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾.

٢ ـ دلّ قوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ على تأمين الحاكم الدّاخلين إلى بلاده من قطر آخر ، وهو أمان يشمل الأنفس والأهل والأموال.

والمراد بقوله تعالى : ﴿ادْخُلُوا مِصْرَ﴾ كما ذكر ابن عباس : أقيموا بها آمنين ، سمّى الإقامة دخولا لاقتران أحدهما بالآخر.

والأمان الحقيقي لا يكون إلا بمشيئة الله ، لذا علقه بقوله : ﴿إِنْ شاءَ اللهُ﴾ مثل قوله تعالى : ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٧].

٣ ـ أجمع المفسّرون على أنّ سجود أسرة يوسف عليه‌السلام له كان سجود تحيّة وانحناء على عادتهم المألوفة في التّحية ، لا سجود عبادة ولا على الأرض. وقد نسخ الله تعالى ذلك كله في شرعنا.

وبالرّغم من نسخ الانحناء في التّحية ، فإن بعض المسلمين مع الأسف ، لا يتنبهون لذلك ، وينحنون في التّحية والسّلام ، كما يفعل الغربيون الآن. روى ابن عبد البرّ في التّمهيد عن أنس بن مالك قال : قلنا : يا رسول الله ، أينحني بعضنا إلى بعض إذا التقينا؟ قال : «لا» ، قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضا؟ قال : «لا» ، قلنا : أفيصافح بعضنا بعضا؟ قال : «نعم».

وأمّا القيام للقادم ، كما أمر النّبي ﷺ جماعة الأوس بقوله في الحديث الصحيح الذي أخرجه أبو داود عن أبي سعيد : «قوموا إلى سيّدكم وخيركم» يعني سعد بن معاذ ، فهو جائز إذا لم يؤثّر ذلك في نفسه ، فإن أثّر فيه ، وأعجب به ، ورأى لنفسه حظّا ، لم يجز إعانته على ذلك ، لقوله ﷺ : «من سرّه أن يتمثّل له النّاس قياما ، فليتبوأ مقعده من النّار».

وتجوز الإشارة بالإصبع للبعيد عنك ، دون الدّاني القريب ، وإذا سلّم لا ينحني ، ولا أن يقبّل مع السّلام يده ، ولأن الانحناء على معنى التّواضع لا ينبغي إلا لله. وأما تقبيل اليد فإنه من فعل الأعاجم.

ولا بأس بالمصافحة ، فقد صافح النّبي ﷺ جعفر بن أبي طالب حين قدم من الحبشة ، وأمر بها ، وندب إليها ، وقال فيما أخرجه ابن عدي عن ابن عمر ، وهو ضعيف : «تصافحوا يذهب الغلّ».

وروى غالب التّمار عن الشّعبي أن أصحاب النّبي ﷺ كانوا إذا التقوا تصافحوا ،

٤ ـ عدّد يوسف عليه السلام بعض النّعم عليه وعلى آله ، منها الخروج من السّجن ، ومجيء أهله من البادية في أرض كنعان ، واللطف أو الرّفق الإلهي بالعباد حيث جمع الأسرة هذا الجمع الكريم الحافل السّارّ ، بعد إيقاع الشّيطان الحسد بينه وبين إخوته ، وتمّ ذلك كلّه بفعل الله تعالى وفضله.

٥ ـ تحققت رؤيا يوسف الّتي رآها في عهد الصّغر ، واختلف العلماء في مقدار المدة بين تحقق الرؤيا وبين حدوثها ، فقيل : ثمانون سنة ، وقيل : سبعون ، وقيل : أربعون ، وهو قول الأكثرين ، ولذلك يقولون : إن تأويل الرؤيا إنّما صحّت بعد أربعين سنة.

٦ ـ إذا أراد الله تعالى شيئا هيّأ أسبابه ويسّرها ، فحصول الاجتماع بين يوسف عليه السلام وبين أبيه وإخوته مع الألفة والمحبة ، وطيب العيش ، وفراغ البال ، كان في غاية البعد ، إلا أنه تعالى لطيف بعباده ، لأنه عليم بجميع الاعتبارات الممكنة التي لا نهاية لها ، وحكيم محكم في فعله ، حاكم في قضائه ، حكيم في أفعاله ، مبرأ عن العبث والباطل.

الفصل الثامن عشر من قصّة يوسف

دعاء جامع

يتضمّن تحدّث يوسف بنعم الله عليه وطلبه من ربّه حسن الخاتمة

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾

الإعراب :

﴿فاطِرَ السَّماواتِ ..﴾ منصوب على أنه صفة المنادي أو منادى مستقل.

المفردات اللغوية :

﴿مِنَ الْمُلْكِ﴾ بعض الملك وهو ملك مصر. ﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ تأويل الكتب الإلهيّة ، وتعبير الرؤيا ، و ﴿مِنَ﴾ أيضا للتّبعيض لأنه لم يؤت كلّ التّأويل. ﴿فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ خالقهما ومبدعهما. ﴿أَنْتَ وَلِيِّي﴾ ناصري أو متولّي أمري أو منعم عليّ. ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ من آبائي ، أو بعامة الصالحين في الرّتبة ، فعاش بعد ذلك أسبوعا أو أكثر ، ومات وله مائة وعشرون سنة ، أو مائة وسبعة أعوام.

فتنازع المصريون في مدفنه ، فجعلوه في صندوق من مرمر ، ودفنوه في أعلى النّيل ، لتعمّ البركة جانبيه ، ثم نقله موسى عليه السلام إلى مدفن آبائه في فلسطين. أما يعقوب عليه السلام فأقام مع يوسف أربعا وعشرين سنة ، ثم توفي وأوصى أن يدفن بالشام إلى جنب أبيه ، فذهب به ، ودفنه ثمّة ، وعاد وعاش بعده ثلاثا وعشرين سنة.

المناسبة :

بعد أن حمد يوسف عليه السلام ربّه على لطفه ونعمه ، باجتماعه بأبويه وإخوته ، وما منّ الله به عليه من النّبوة والملك ، دعا هذا الدّعاء ، وسأل ربّه عزّ وجلّ ، كما أتمّ نعمته عليه في الدّنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة ، وأن يتوفّاه مسلما ، وأن يلحقه بالصّالحين.

التفسير والبيان :

قال يوسف بعد اجتماعه بأبويه وإخوته : ربّ قد أعطيتني ملك مصر ، وجعلتني حاكما مطلق التّصرف فيها دون منازع ولا معارض ولا حاسد. روي أن يوسف عليه السلام أخذ بيد يعقوب عليه السلام ، وطاف به في خزائنه ، فأدخله خزائن الذهب والفضة ، وخزائن الحلي ، وخزائن الثياب ، وخزائن السّلاح ، فلما أدخله خزائن القراطيس ، قال : يا بني ما أغفلك! عندك هذه

القراطيس ، وما كتبت إليّ على ثمان مراحل ، قال : نهاني جبريل عليه السلام عنه ، قال : سله عن السّبب ، قال : أنت أبسط إليه ، فسأله ، فقال جبريل عليه السلام : أمرني الله تعالى بذلك ، لقولك : ﴿وَأَخافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ فهلا خفتني؟!

﴿وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحادِيثِ﴾ أي الكتب السّماوية وأسرار كلامك ، وتعبير الرؤيا ومصداقيتها ، فتقع كما ذكرت.

و ﴿مِنَ﴾ في قوله : ﴿مِنَ الْمُلْكِ ،﴾ و ﴿مِنْ تَأْوِيلِ ..﴾ للتّبعيض ، لأنه لم يؤت إلا بعض ملك الدّنيا وهو ملك مصر ، وبعض التّأويل.

﴿فاطِرَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أنت خالق السّموات والأرض ومبدعهما.

﴿أَنْتَ وَلِيِّي ..﴾ أنت ناصري ومتولّي أموري وشأني كلّه في الدّنيا والآخرة ، فإن نعمك غمرتني في الدّنيا ، وأملي فيها في الآخرة.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾ أمتني على الإسلام منقادا خاضعا طائعا أوامرك. قال ابن عباس : «ما تمنّى نبيّ قط الموت قبل يوسف عليه السلام».

﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ اجعلني ملحقا بالأنبياء والمرسلين ، على العموم ، وبآبائه على الخصوص وهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، فتوفّاه الله طيّبا طاهرا بمصر ، ودفن في النّيل في صندوق من رخام ، ثم نقل موسى عليه السلام تابوته بعد أربع مائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفن مع آبائه.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى أن سيرة الأنبياء عليهم السلام مثل أعلى في القدوة ، فإن نعم الله تعالى على يوسف عليه السلام في الدّنيا من إيتاء الملك وتعبير الرؤيا ، لم تحجبه عن طلب مرضاة الله تعالى في الآخرة ، لأن العبرة بحسن الخاتمة ،

وبما يلقاه المؤمن من نعيم خالد في الآخرة ، ولأن الآخرة خير وأبقى. وبما أنه نبيّ لم يطلب أقلّ من مرتبة الأنبياء وكرامتهم ، فسأل الله أن يجعله مع الصالحين ، وهم الأنبياء والرّسل عليهم السلام ، في ثوابهم ومراتبهم ودرجاتهم.

أما تمني الموت فلم يكن مطلقا ، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام ، أي إذا جاء أجلي توفّني مسلما ، وهذا قول الجمهور ، فاللهم اجعل وفاتنا على الإيمان.

ولا يجوز في شريعتنا تمنّي الموت ، بدليل ما ثبت عند الإمام أحمد وفي الصّحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به ، فإن كان لا بدّ متمنّيا ، فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي ، وتوفّني إذا كانت الوفاة خيرا لي» ، وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ فيما رواه أحمد ومسلم : «لا يتمنى أحدكم الموت ، ولا يدع به من قبل أن يأتيه ، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله ، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا».

الفصل التّاسع عشر من قصّة يوسف

إثبات نبوّة محمد ﷺ

الإخبار عن المغيبات والإعراض عن التّأمل في الآيات ودعوة النّبي إلى التّوحيد

﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ (١٠٤) وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غاشِيَةٌ مِنْ عَذابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ

السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٠٧) قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحانَ اللهِ وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)﴾

الإعراب :

﴿ذلِكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ .. ذلِكَ﴾ : مبتدأ ، و ﴿مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ ، نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ : خبران له.

﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ .. بِمُؤْمِنِينَ ما﴾ : نافية حجازية ، و ﴿أَكْثَرُ﴾ : اسمها ، و ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ : متعلّق بخبرها. و ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضية. ﴿بَغْتَةً﴾ منصوب على الحال ، وأصله المصدر.

﴿عَلى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي أَنَا﴾ : تأكيد للضمير المستتر في ﴿أَدْعُوا﴾ وفي ﴿عَلى بَصِيرَةٍ﴾ لأنه حال من ﴿أَدْعُوا﴾ و ﴿مَنِ اتَّبَعَنِي﴾ عطف عليه ، يريد : أدعو إليها أنا ، ويدعو إليها من اتّبعني. ويجوز أن يكون ﴿أَنَا﴾ مبتدأ وخبره ﴿عَلى بَصِيرَةٍ﴾ خبر مقدّم ، أي على حجة وبرهان ، لا على هوى. ﴿هذِهِ سَبِيلِي﴾ مبتدأ وخبر.

البلاغة :

﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراضية بين اسم ﴿ما﴾ الحجازية وخبرها ، للدّلالة على أن الهداية بيد الله وحده.

﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ على حذف مضاف ، أي وما تسألهم على تبليغ القرآن الكريم من أجر.

﴿مُعْرِضُونَ﴾ و ﴿مُشْرِكُونَ﴾ سجع : وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير.

المفردات اللغوية :

﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من نبأ يوسف عليه السلام ، والخطاب للرّسول ﷺ. ﴿مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ﴾ أخبار ما غاب عنك يا محمد. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ لدى إخوة يوسف عليه السلام. ﴿إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ في كيده ، أي إلقائه في الجبّ ، و ﴿أَجْمَعُوا﴾ : عزموا عليه. ﴿وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ به ، أي لم تحضرهم ، فتعرف قصّتهم ، فتخبر بها ، وإنما ذلك من تعليم الله تعالى لك ، وقوله : ﴿وَما كُنْتَ

﴿لَدَيْهِمْ ..﴾ إلخ الآية دليل على صدق الإخبار بالمغيب عنك ، والمعنى : هذا النّبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي ، لأنك لم تحضر إخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما همّوا به من أن يجعلوه في غيابة الجبّ ، وهم يمكرون به وبأبيه ، ليرسله معهم. ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدا سمع ذلك ، فتعلّمته منه. وإنما حذف هذا الكلام استغناء بذكره في غير هذه القصة مثل : ﴿ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا﴾ [هود ١١ / ٤٩].

﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ﴾ أي أهل مكة. ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ على إيمانهم ، وبالغت في إظهار الآيات لهم. ﴿بِمُؤْمِنِينَ﴾ لعنادهم وتصميمهم على الكفر. ﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ﴾ على الإنباء أو القرآن الكريم. ﴿مِنْ أَجْرٍ﴾ من جعل تأخذه كما يفعل حملة الأخبار. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ ما هو أي القرآن الكريم إلا عظة للعالمين من الإنس والجنّ. ﴿وَكَأَيِّنْ﴾ وكم من آية ، والمراد بها كثير من الآيات الدّالة على وجود الصانع وحكمته وكمال قدرته وتوحيده ، فالآية هنا : دليل على وجود الصانع ووحدانيته. ﴿يَمُرُّونَ عَلَيْها﴾ يمرّون على الآيات ، أي يشاهدونها. ﴿وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكّرون فيها ، ولا يعتبرون بها.

﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ﴾ حيث يقرّون بوجوده وخالقيته ، أي أنه الخالق الرّازق. ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ به بعبادة الأصنام ، فكانوا يقولون في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك لبيك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك» ، أو يشركون باتّخاذ الأحبار أربابا من دون الله ، ونسبة التّبنّي إليه ، أو القول بالنور والظلمة. قيل : الآية في مشركي مكة ، وقيل : في المنافقين ، وقيل : في أهل الكتاب ، والأولى حملها على العموم.

﴿غاشِيَةٌ﴾ نقمة تغشاهم أو عقوبة تحيط بهم وتعمّهم أو تشملهم. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ بوقت إتيانها. ﴿هذِهِ سَبِيلِي﴾ طريقي. ﴿أَدْعُوا إِلَى اللهِ﴾ إلى دين الله. ﴿عَلى بَصِيرَةٍ﴾ حجة واضحة ومعرفة تامة. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ ومن آمن بي. ﴿وَسُبْحانَ اللهِ﴾ أنزهه تنزيها عن الشّركاء. ﴿وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وما أنا من جملة المشركين ، وهو من جملة سبيله أيضا.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى قصة يوسف عليه السلام ، أراد الحقّ تعالى أن يثبت بها نبوّة النّبي محمد ﷺ ، عن طريق أنها إخبار بالغيب ، والغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ولم يشاهده النّبي ﷺ ولا قومه ، مما يدلّ على كون القرآن كلام الله تعالى ، وكون نبوّة الرّسول ﷺ حقّا وصدقا.

ثم ندّد الله تعالى بموقف المشركين من الإيمان بالله تعالى ، فذكر أن هناك

كثيرا من الآيات الدّالة على وجود الصانع ووحدانيته ، ولكن لا يلتفت إليها أولئك المشركون ، وإنّما يعرضون عنها.

وحسم الحقّ تعالى الموقف ، فأبان أن سبيل دعوة النّبي ﷺ هو الدّعوة إلى التّوحيد ، ورفض الشّرك بمختلف أشكاله وأنواعه.

التّفسير والبيان :

ذلك المذكور من قصة يوسف بدءا من رؤياه الرؤيا وإلقائه في الجبّ إلى أن أصبح حاكم مصر الفعلي ، وبيان موقف إخوته منه ، وحال أبيهم يعقوب عليه السلام ، هو من أخبار الغيب الّتي لم يطّلع عليها النّبي ﷺ ولم يرها هو وقومه ، والخطاب له ، وهي وحي من الله تعالى إليه ، لتثبيت فؤاده ، وصبره على أذى قومه وإعراضهم عن دعوته.

والمقصد الإخبار عن الغيب ، فيكون معجزا ، لأنه ﷺ ما طالع الكتب ، ولم يتتلمذ لأحد ، ولم يكن حاضرا معهم ، فإخباره بهذه القصة الطويلة من غير تحريف ولا غلط إعجاز.

﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ ..﴾ بمثابة الدّليل على كونه من الغيب ، أي وما كنت حاضرا عندهم ، ولا مشاهدا لهم ، حين عزموا على إلقائه في الجبّ ، وهم يمكرون به وبأبيه ، ولكنّا أعلمناك به وحيا إليك ، وإنزالا عليك ، كقوله تعالى في قصّة مريم : ﴿وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران : ٣ / ٤٤] ، وقوله سبحانه : ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَما كُنْتَ بِجانِبِ الطُّورِ إِذْ نادَيْنا﴾ [القصص ٢٨ / ٤٤ ـ ٤٦] ، وقوله عزّ وجلّ : ﴿وَما كُنْتَ ثاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِنا﴾ [القصص ٢٨ / ٤٥].

وبالرّغم من هذه الأخبار المعجزة التي فيها عبرة وعظة لم يؤمن أكثر النّاس ، كما قال تعالى: ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ ..﴾ أي وليس أكثر النّاس بمصدّقين بدعوتك ورسالتك ، ولو حرصت وتهالكت على إيمانهم ، لتصميمهم على الكفر وعنادهم. والمراد بالآية العموم ، كقوله تعالى : ﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرّعد ١٣ / ١]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما : أراد أهل مكة. ووجه اتصال الآية بما قبلها على قول ابن عباس : أن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا هذه القصة من رسول الله ﷺ على سبيل التّعنّت ، واعتقد رسول الله ﷺ أنه إذا ذكرها ، فربّما آمنوا ، فلمّا ذكرها أصرّوا على كفرهم ، فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [القصص ٢٨ / ٥٦] [(١)].

ومعنى الحرص : طلب الشّيء بأقصى ما يمكن من الاجتهاد ، وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ؛ لأن جواب ﴿لَوْ﴾ لا يكون مقدّما عليها ، فلا يجوز أن يقال : قمت لو قمت.

ثم نفى تعالى أن يكون للمشركين عذر بعدم الإيمان بدعوتك فقال : ﴿وَما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ..﴾ أي ما تسأل منكري نبوّتك يا محمد على هذا النّصح والدّعاء إلى الخير والرّشد من أجر ، أي من جعل ولا أجرة ، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحا لخلقه ، فما عليهم إلا الاستجابة لدعوتك ، لأنك لا تقصد إلا اتّباع أمر ربّك ونصحهم الخالص.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾ أي ما هذا القرآن الذي أرسلك به ربّك إلا تذكير وموعظة لكلّ العالمين من الإنس والجنّ ، به يتذكّرون وبه يهتدون ، وينجون به في الدّنيا والآخرة. وهذا دلّ على عموم رسالته ﷺ.

---

(١) تفسير الرّازي : ١٨ / ٢٢٣

والسّبب في أن أكثر النّاس لا يؤمنون أنهم في غفلة عن التّفكّر في الدّلائل الدّالّة على وجود الصانع وتوحيده ، فقال : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ ..﴾ أي وكم من آية دالّة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته في السّموات والأرض من كواكب ثابتة وسيّارة وجبال وبحار ، ونبات وشجر ، وحيوان وحي وميت ، وثمار متشابهة ومختلفة في الطّعوم والرّوائح والألوان والصّفات ، يمرّ على تلك الآيات ويشاهدها أكثرهم ، وهم غافلون عنها ، لا يتفكّرون بما فيها من عبر وعظات ، وكلّها تشهد على وجود الله تعالى ووحدانيته.

وفي كلّ شيء له آية تدلّ على أنه واحد

والآية هنا : الدّليل على وجود الله تعالى وتوحيده.

وأما علماء الفضاء والفلك فدأبهم الرّصد المادي كرصد الحركة أو الثّبات ، واستنباط القوانين العلمية ، لكنهم لا يفكرون غالبا في الخالق الموجد ، وفي عظمة المدبّر والمقدّر.

﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ ..﴾ أي وما يكاد يقرّ أكثر المشركين بوجود الله ، كما قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٥] إلا وتراهم يقعون في الشّرك ، لإشراكهم مع الله الأصنام والأوثان في العبادة.

فكلّ عبادة أو تقديس وتعظيم لغير الله شرك ، روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله : أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك ، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه».

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد بن أبي فضالة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا جمع الله الأوّلين والآخرين ليوم لا ريب فيه ، ينادي مناد : من

كان أشرك في عمل عمله لله ، فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشّركاء عن الشّرك».

وروى التّرمذي وحسّنه ابن عمر : «من حلف بغير الله فقد أشرك» أي حلف بغير الله قاصدا تعظيمه مثل الله فقد أشرك.

وروى أحمد عن محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال : «إن أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر ، قالوا : وما الشّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال : الرّياء ، يقول الله تعالى يوم القيامة : إذا جاز النّاس بأعمالهم ، اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدّنيا ، فانظروا ، هل تجدون عندهم جزاء؟».

وروى أحمد عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال : «يا أيها النّاس ، اتّقوا هذا الشّرك ، فإنه أخفى من دبيب النّمل» ثم بيّن للصحابة كيف يتّقى الشّرك الخفي ، فقال : «قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلمه».

ثم هدد الله تعالى المشركين بالعقاب فقال : ﴿**أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ**﴾ أي أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتشملهم ، أو يأتيهم يوم القيامة فجأة ، وهم لا يحسون ولا هم يشعرون بذلك ، وهذا كالتأكيد لقوله : ﴿**بَغْتَةً**﴾.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿**أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَما هُمْ بِمُعْجِزِينَ. أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلى تَخَوُّفٍ ، فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ رَحِيمٌ**﴾ [النّحل ١٦ / ٤٥ ـ ٤٧].

وقوله تعالى : ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا بَياتاً وَهُمْ نائِمُونَ. أَوَ**

أَمِنَ أَهْلُ الْقُرى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ. أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ؟ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٩٧ ـ ٩٩].

وإبهام السّاعة مبعث الهيبة والخوف من الله دون وازع مشاهد أو قريب.

ثم أبان الله تعالى بعد كل تلك الأدلة هدف دعوة النّبي ﷺ وثقته بها ، فقال : ﴿**قُلْ : هذِهِ سَبِيلِي ..**﴾ أي قل يا محمد للثقلين : الإنس والجن : إن هذه الطريقة التّي أتبعها ، والدّعوة الّتي أدعو إليها وهي شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أدعو إلى دين الله بها ، على يقين ، وحجة واضحة قاطعة ، وبرهان ، أدعو أنا ، ويدعو إليها كل من اتبعني أي آمن بي وصدّق برسالتي. وسبحان الله أي وأنزه الله وأجلّه وأعظمه وأقدسه من أن يكون له شريك أو نظير أو عديل أو نديد أو ولد أو والدّ أو صاحبة أو وزير أو مشير ، تبارك وتعالى وتقدس الله عن ذلك علوا كبيرا : ﴿**تُسَبِّحُ لَهُ السَّماواتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ ، وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾ [الإسراء ١٧ / ٤٤].

وبعد أن أثبت الوحدانية لله نفى الشّرك نفيا قاطعا للرّد على المشركين الذين كانوا يقرون بوجوده ثم يشركون به في العبادة إلها آخر فقال : ﴿**وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ أي أنا بريء من جميع المشركين على مختلف أنواعهم.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يلي :

١ ـ الإخبار بقصة يوسف وغيرها من قصص الأنبياء السّابقين مع أقوامهم من أنباء الغيب الدّالة على المعجزة : وهي كون القرآن كلام الله ، وصدق النّبي ﷺ في دعوته ، فذلك معجزة لرسول الله ﷺ.

٢ ـ نزلت آية ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ تسلية للنّبي ﷺ ، أي حتى ولو أخبرتهم بقصة يوسف ، فلم يؤمنوا ، أي لست تقدر على هداية من أردت هدايته.

٣ ـ مهمة كل نبي تبليغ الوحي المنزل عليه بإخلاص وقصد الثواب عند الله عَزَّوَجَلَّ ، دون تكليف النّاس بشيء من الأجر أو المقابل.

٤ ـ القرآن والوحي عظة وتذكرة للعالمين قاطبة ، لا للعرب خاصة ، إنه تذكرة لهم في دلائل التّوحيد والعدل والنّبوة ، والمعاد والقصص ، والتّكاليف والعبادات ، ففيه منافع عظيمة.

٥ ـ ما أكثر الآيات ، أي الدّلائل الدّالة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته ، في السّموات والأرضين من نجوم وكواكب وبحار وأنهار وجبال ونباتات وأشجار ، وصحار شاسعات ، وأحياء وأموات ، وحيوان وثمرات مختلفة الطعوم والرّوائح والألوان والصّفات. وهذه كلها أدلة محسوسة.

٦ ـ إيمان المشركين مزيف باطل ، فهم يقرون بوجود الله خالقهم وخالق الأشياء كلها ، وهم يعبدون الأوثان. قال ابن عباس : نزلت في تلبية مشركي العرب : لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. وعنه أيضا أنهم النّصارى. وعنه أيضا أنهم المشبّهة الذين يشبهون الله بخلقه ، آمنوا مجملا وأشركوا مفصّلا. وقيل : نزلت في المنافقين ، والأولى حملها على العموم ، والمعنى كما قال الحسن ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ﴾ أي باللسان إلا وهو كافر بقلبه.

٧ ـ عذاب الله وعقابه ، وإتيان السّاعة (يوم القيامة) يأتيان فجأة ، من حيث لا يشعر النّاس بهما.

٨ ـ طريقة النّبي ﷺ وسنته ومنهاجه ، ومنهاج أتباعه المؤمنين به الدّعوة

إلى ما يؤدي إلى الجنة ، على يقين وحق ، وشعار المؤمن دائما : سبحان الله وما أنا من المشركين ، أي أنزه الله عن أي شريك ، ولست من الذين يتخذون من دون الله أندادا أي نظراء لله.

وسمي الدّين سبيلا ، لأنه الطريق الذي يؤدي إلى الثواب ، كما في قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النّحل ١٦ / ١٢٥].

الفصل العشرون من قصّة يوسف

العبرة من القصص القرآني

﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جاءَهُمْ نَصْرُنا فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبابِ ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾

الإعراب :

﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ مبتدأ وخبر ، وهذا إضافة الصّفة بعد حذف الموصوف ، وتقديره: ولدار السّاعة أو الحال الآخرة ، وهذه الإضافة في نيّة الانفصال ، ولهذا لا يستفيد المضاف التّعريف من المضاف إليه.

﴿حَتَّى إِذَا﴾ متعلّقة بمحذوف ، دلّ عليه الكلام ، كأنه قيل : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا فتراخى نصرهم حتى إذا استيأسوا عن النّصر.

﴿وَلكِنْ تَصْدِيقَ﴾ خبر كان المقدرة ، أي ولكن كان ذلك تصديق الذي بين يديه وتفصيلا ، و ﴿هُدىً وَرَحْمَةً﴾ منصوبان بالعطف عليه.

المفردات اللغوية :

﴿إِلَّا رِجالاً﴾ لا ملائكة. ﴿مِنْ أَهْلِ الْقُرى﴾ الأمصار ؛ لأنهم أعلم وأحلم ، بخلاف أهل البوادي لجفائهم وجهلهم. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا﴾ أهل مكة. ﴿عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي آخر أمرهم من إهلاكهم بتكذيبهم رسلهم. ﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ﴾ أي ولدار الحال القادمة أو السّاعة الأخرى أو الحياة الآخرة وهي الجنة. ﴿اتَّقَوْا﴾ الله واتقوا الشّرك والمعاصي ، أي خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه. ﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أهل مكة ، فيؤمنوا.

﴿حَتَّى﴾ غاية محذوف ، دلّ عليه الكلام ، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا ، فتراخى نصرهم. ﴿اسْتَيْأَسَ﴾ يئس ، أي لا يغررهم تمادي أيامهم ، فإن من قبلهم أمهلوا ، حتى أيس الرّسل من النّصر عليهم في الدّنيا أو من إيمانهم ، لانهماكهم في الكفر. ﴿وَظَنُّوا﴾ أيقنوا. ﴿كُذِبُوا﴾ أي ظنّ الأمم أنّ الرّسل أخلفوا ما وعدوا به من النّصر ، وعلى قراءة التّشديد ، أي وظنّ الرّسل أن القوم قد كذبوهم تكذيبا لا إيمان بعده فيما أو عدوهم. ﴿فَنُجِّيَ مَنْ نَشاءُ﴾ وهم النّبي والمؤمنون. ﴿بَأْسُنا﴾ عذابنا. ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ المشركين. ﴿فِي قَصَصِهِمْ﴾ أي الرّسل. ﴿عِبْرَةٌ﴾ أي اعتبار من حال إلى حال. ﴿لِأُولِي الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول. ﴿ما كانَ﴾ هذا القرآن. ﴿يُفْتَرى﴾ يختلق. ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ قبله من الكتب. ﴿وَتَفْصِيلَ﴾ تبيين. ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاج إليه في الدّين. ﴿وَهُدىً﴾ من الضّلالة. ﴿وَرَحْمَةً﴾ ينال بها خير الدّارين. ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدّقونه ، خصّوا بالذّكر لانتفاعهم به دون غيرهم.

المناسبة :

بعد أن أثبت القرآن الكريم نبوّة النّبي محمد ﷺ بدليل إخباره عن المغيبات ، ردّ الله على منكري النّبوة ، فقد كان من شبه منكري نبوّته ﷺ أن الله لو أراد إرسال رسول لبعث ملكا ، كما حكى القرآن عنهم : ﴿لَوْ شاءَ رَبُّنا لَأَنْزَلَ مَلائِكَةً﴾ [فصلت ٤١ / ١٤].

ثم أنذر الله كفار قريش وأمثالهم بالعقاب والعذاب إن لم يؤمنوا ، فإن سنّة الله في عباده واحدة أنهم إن لم يؤمنوا ، حلّ بهم العذاب.

ثم ذكر تعالى أن قصة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوي العقول والأفكار.

التّفسير والبيان :

ختمت سورة يوسف بهذه الخاتمة الدّالّة على وجوب الاتّعاظ والاعتبار بقصته المؤثرة الحادثة بين كنعان ومصر ، وفي ألوان متعددة ، تبتدئ بإلقائه في الجبّ ، ثم صيرورته في بيت العزيز ، ثم في السّجن ، ثم في أعلى مناصب الحكم ، وصف فيها كيد الإخوة وحسدهم ، ومكر النّساء وكيدهنّ ، وصبر يوسف عليه السلام وحكمته ومهارته في إدارة الحكم ، وأخلاقه وتسامحه مع إخوته ، وتعظيمه أبويه.

والمعنى : وما أرسلنا يا محمّد من قبلك رسلا إلا رجالا ، لا ملائكة ولا إناثا ، وكانوا من أهل المدن لا من البوادي ، وكنّا ننزل عليهم الوحي والتّشريع.

وهذا يدلّ على أن الله أرسل الرّسل من الرّجال ، لا من النّساء ، فلم تكن امرأة قط نبيّا ولا رسولا ، وعلى اختيار الرّسل من أهل المدينة ، فلم يبعث الله رسولا من أهل البادية ، لتتبعهم المدن الأخرى ، ولأن أهل البادية فيهم الجهل والجفاء ، وأن أهلا لمدن أرق طباعا وألطف من أهل البوادي ، ولهذا قال تعالى : ﴿**الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً**﴾ [التّوبة ٩ / ٩٧].

قال ابن كثير : وزعم بعضهم أن سارّة امرأة الخليل ، وأم موسى ، ومريم بنت عمران أم عيسى نبيّات ، واحتجّوا بأن الملائكة بشّرت سارّة بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، وبقوله : ﴿**وَأَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ**﴾ [القصص ٢٨ / ٧] وبأنّ الملك جاء إلى مريم فبشّرها بعيسى عليه السلام ، وبقوله تعالى : ﴿**وَإِذْ**

قالَتِ الْمَلائِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفاكِ عَلى نِساءِ الْعالَمِينَ. يا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ٤٢ ـ ٤٣] وهذا القدر حاصل لهن ، ولكن لا يلزم من هذا أن يكنّ نبيّات بذلك [١].

ثم هدد الله المشركين على تكذيبهم بالرّسول ﷺ فقال متعجّبا : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ..﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذّبون لك يا محمّد في الأرض ، فينظروا ويروا كيف كان مصير الأمم المكذّبة للرّسل ، كيف دمّر الله عليهم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وللكافرين أمثالها ، فإن عاقبة الكافرين الهلاك ، وعاقبة المؤمنين النّجاة.

ثم حضّ الله تعالى على العمل لدار الآخرة والاستعداد لها واتّقاء المهلكات فقال : ﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي إن الدّار الآخرة خير للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه ، فهي أفضل من هذه الدّار للمشركين المكذّبين بالرّسل ، أي وكما نجّينا المؤمنين في الدّنيا ، كذلك كتبنا لهم النّجاة في الدّار الآخرة ، وهي خير لهم من الدّنيا بكثير ؛ فإن نعيم الآخرة أكمل من نعيم الدّنيا ، وأبقى وأخلد.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ أي أجهلتم؟ فلا تعقلون أيها المكذّبون بالآخرة ، فإنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم.

ثم بشر الله نبيّه بالنّصر بإخباره أن نصره تعالى ينزل على رسله عليهم السلام عند ضيق الحال واشتداد الأزمة وانتظار الفرج من الله تعالى في أحرج الأوقات إليه ، فقال : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ ..﴾ فيه محذوف ، أي وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فبلغوا أقوامهم رسالتهم الدّاعية إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فكذّبوهم وتمادى أقوامهم في الطغيان والكفر والعناد ،

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٩٦

فتراخى نصرهم ، حتى أيس الرّسل من إيمانهم أو من النّصر عليهم ، لانهماكهم في الكفر ، وظنّت (أيقنت) الأمم أن الرّسل أخلفوا فيما وعدوهم به من النّصر ، وكذّبوهم فيما أخبروهم به عن الله من وعد النّصر ، فجاءهم نصرنا ، أي أتاهم نصر الله فجأة ، فنجّي من نشاء وهم النّبي والمؤمنون ، وحلّ العقاب بالمكذّبين الكافرين ، ولا يردّ بأسنا ، أي لا يمنع عقاب الله وبطشه عن القوم الذين أجرموا ، فكفروا بالله وكذّبوا رسله.

والمعنى على قراءة ﴿كُذِبُوا﴾ بالتّشديد : وظنّ الرّسل أن القوم قد كذّبوهم تكذيبا لا إيمان بعده فيما أو عدوهم.

وهذا تهديد ووعيد لكفار قريش وأمثالهم لعدم إيمانهم بالنّبي ﷺ .

وللآية نظائر كثيرة في القرآن الكريم منها ما اشتمل على وعد الله الرّسل بالنّصر : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ [غافر ٤٠ / ٥١] ، وقوله تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] ، ومنها استنجاز النّصر : ﴿وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، مَتى نَصْرُ اللهِ ، أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة ٢ / ٢١٤].

ومنها بيان سبب العقاب وهو الظّلم والكفر : ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ ، فَما كانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ، وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التّوبة ٩ / ٧٠].

ومنها تقرير سنّة الله الواحدة في عباده وإلحاق النّظائر والأشباه بأمثالها ، وأنه لا ظلم فيها ولا محاباة ، فكفار قريش مثل الكفار السّابقين في استحقاقهم العذاب لارتكابهم سببه وهو الكفر: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٣].

ونقل تفسير الآية على قراءة التّشديد : ﴿كُذِبُوا﴾ على النّحو السّابق عن

عائشة ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لابن أختها عروة بن الزّبير ، وهو يسألها عن قول الله تعالى : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ الآية : «معاذ الله لم تكن الرّسل تظنّ ذلك بربّها ، هم أتباع الرّسل الذين آمنوا بربّهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النّصر ، حتى إذا استيأس الرّسل ممن كذّبهم من قومهم ، وظنّت الرّسل أنّ أتباعهم قد كذّبوهم ، جاءهم نصر الله عند ذلك». وأنكرت عائشة المعنى على قراءة التّخفيف. وقال الرّازي عن تأويل عائشة : وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية.

ونقل تفسير الآية على قراءة التّخفيف ﴿كُذِبُوا﴾ عن ابن عباس وابن مسعود ، قال ابن عباس : «لما أيست الرّسل أن يستجيب لهم قومهم ، وظنّ قومهم أن الرّسل قد كذبوهم ، جاءهم النّصر على ذلك» ، وقال ابن مسعود في آية : ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ﴾ : من إيمان قومهم أن يؤمنوا بهم ، وظن قومهم حين أبطأ الأمر أنهم قد كذبوا ، بالتخفيف. وهذا هو المشهور عن الجمهور [١].

والخلاصة : على قراءة التّخفيف ، الضمير في ﴿وَظَنُّوا﴾ عائد على المرسل إليهم ، لتقدّمهم في الذّكر في قوله تعالى : ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فيكون الضّمير عائدا إلى الذين من قبلهم من مكذّبي الرّسل ، والظّن هاهنا بمعنى التّوهم والحسبان. والمعنى : وظنّ المرسل إليهم أنهم قد كذبهم الرّسل فيما ادّعوه من النّبوة وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العذاب ، وهذا مشهور قول ابن عباس وتأويل عبد الله بن مسعود وسعيد بن جبير ومجاهد. ولا يجوز أن تكون الضّمائر في هذه القراءة على الرّسل ؛ لأنهم

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٤٩٧ ـ ٤٩٨ ، تفسير القرطبي : ٩ / ٢٧٥

معصومون ، فلا يمكن أن يظنّ أحد منهم أنه قد كذبه من جاءه بالوحي عن الله [١].

وعلى قراءة التّشديد وجهان :

الأول ـ أنّ الظنّ بمعنى اليقين ، أي وأيقنوا أن الأمم كذبوهم تكذيبا لا يصدر منهم الإيمان بعد ذلك ، فحينئذ دعوا عليهم ، فهنالك أنزل الله سبحانه عليهم عذاب الاستئصال ، وورود الظنّ بمعنى العلم كثير في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة ٢ / ٤٦] ، أي يتيقنون ذلك.

والثاني ـ أن يكون الظنّ بمعنى الحسبان ، والتّقدير : حتى إذا استيأس الرّسل من إيمان قومهم ، فظنّ الرّسل أن الذين آمنوا بهم كذبوهم ، وهذا التّأويل منقول عن عائشة رضي الله عنها ، قال الرّازي : وهو أحسن الوجوه المذكورة في الآية [٢].

وقال الزّمخشري في قراءة التّخفيف : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا﴾ أي كذبتهم أنفسهم حين حدثتهم بأنهم ينصرون ، أو وظنّوا أنهم قد كذبهم رجاؤهم كقولهم : رجاء صادق ورجاء كاذب ، والمعنى أن مدّة التّكذيب والعداوة من الكفار ، وانتظار النّصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم ، وتمادت ، حتى استشعروا القنوط ، وتوهّموا أن لا نصر لهم في الدّنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب [٣].

ثم ذكر الله تعالى الهدف العام من قصص القرآن ، فقال : ﴿لَقَدْ كانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ أي لقد كان في سرد أخبار الأنبياء المرسلين مع قومهم ، وكيف

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٣٥٤

(٢) تفسير الرّازي : ١٨ / ٢٢٦ وما بعدها.

(٣) الكشّاف : ٢ / ١٥٧

نجّينا المؤمنين ، وأهلكنا الكافرين عبرة وعظة وذكرى لأولي العقول والأفكار الصّحيحة. والاعتبار والعبرة : الانتقال والعبور من جهة إلى جهة. أما المهملون عقولهم فلا ينظرون في الأحداث ولا يستفيدون من دروس التّاريخ ، فلا يفيدهم النّصح.

ثم ذكر الله تعالى مشتملات القرآن فقال : ﴿**ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى**﴾ أي ما كان هذا القرآن الشّامل للقصة وغيرها ، أو ما كان هذا القصص والحديث الذي اشتمل عليه القرآن حديثا يختلق ويكذب من دون الله ، لأنه كلام أعجز رواة الأخبار وحملة الحديث ، وإنما هو كلام الله من طريق الوحي والتّنزيل وتصديق ما تقدّمه من الكتب السّماوية كالتّوراة والإنجيل والزّبور ، أي تصديق ما جاء فيها من الصّحيح والحقّ ، ونفي ما وقع فيها من تحريف وتبديل وتغيير ، فهو مصدّق أصولها الصّحيحة ، لا كلّ ما جاء فيها بعد من حكايات وأساطير لا يتقبّلها العقل السّليم ، وهو أيضا مهيمن عليها وحارس لها.

والقرآن أيضا فيه تفصيل كلّ شيء من الحلال والحرام والمحبوب والمكروه ، والأمر والنّهي ، والوعد والوعيد ، وصفات الله الحسنى ، وقصص الأنبياء على النّحو الثابت الواقع الذي لا تحريف فيه ولا تزويق. ونظير الآية قوله تعالى : ﴿**ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام ٦ / ٣٨].

والقرآن أيضا هدى للعالمين ، ويهدي النّاس إلى طريق الاستقامة والسّداد ، فيخرجهم من الظّلمات إلى النّور ، وينقلهم من الغيّ إلى الرّشاد ، ومن الضّلال إلى السّداد ، ويرشدهم إلى الحقّ والخير والصّلاح في الدّنيا والدّين.

وهو كذلك رحمة عامّة من ربّ العالمين للمؤمنين في الدّنيا والآخرة.

فقه الحياة أو الأحكام :

تضمّنت الآيات الأحكام التّالية :

١ ـ الأنبياء دائما من الرّجال ، ولم يكن فيهم امرأة ولا جنّي ولا ملك. وهذا ردّ على ما يروى عن النّبي ﷺ أنه قال في حديث غير ثابت : «إنّ في النّساء أربع نبيّات : حوّاء ، وآسية ، وأم موسى ، ومريم».

٢ ـ الأنبياء من أهل المدن ، ولم يبعث الله نبيّا من أهل البادية ، لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو ، ولأن أهل الأمصار والقرى أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن البصري : لم يبعث الله نبيّا من أهل البادية قط ، ولا من النّساء ، ولا من الجنّ. وقال العلماء : من شرط الرّسول : أن يكون رجلا آدميا مدنيا ؛ وإنما قالوا : آدميا ، تحرّزا من قوله : ﴿يَعُوذُونَ بِرِجالٍ مِنَ الْجِنِ﴾ [الجن ٧٢ / ٦].

٣ ـ على النّاس قاطبة أن ينظروا بمصارع الأمم المكذّبة لأنبيائهم ، فيعتبروا.

٤ ـ آية ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا ..﴾ فيها تنزيه الأنبياء وعصمتهم عما لا يليق بهم.

والمعنى أو الحكم على قراءة التّخفيف ﴿كُذِبُوا﴾ في رأي الجمهور : ظنّ القوم أنّ الرّسل كذبوهم فيما أخبروا به من العذاب ، ولم يصدقوا. أو ظنّ الأمم أن الرّسل قد كذبوا فيما وعدوا به من نصرهم.

والمعنى أو الحكم ، على قراءة التّشديد ﴿كُذِبُوا﴾ أيقنوا أن قومهم كذبوهم ، أو حسبوا أن من آمن بهم من قومهم كذّبوهم ، لا أن القوم كذّبوا ، ولكن الأنبياء ظنّوا وحسبوا أنهم يكذّبونهم.

٥ ـ في قصص الأمم الغابرة ومنها قصة يوسف عليه السلام وأبيه وإخوته عبرة ، أي فكرة وتذكرة وعظة ، لأولي العقول.

٦ ـ ما كان القرآن حديثا يفتري ويختلق ويكذب من دون الله ، فهو كلام معجز لا يستطيع بشر ولو كان نبيّا أن يأتي بمثله. وكذلك ما كانت قصّة يوسف حديثا يفتري من دون الله تعالى.

٧ ـ القرآن الكريم مصدّق لما تقدّمه من الكتب السّماوية من التّوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى ، ومهيمن عليها وحارس لها.

٨ ـ القرآن الكريم فيه تفصيل كل شيء مما يحتاج إليه العباد من الحلال والحرام ، والشّرائع والأحكام.

وهو أيضا هداية ورحمة من الله تعالى لعباده وللمؤمنين بالغيب ، وإنقاذ للبشرية من الضّلالة إلى النّور ، ومن الفساد إلى النّظام والصّلاح : ﴿ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢].

٩ ـ يمكن توجيه الكلام إلى قصّة يوسف عليه السلام وحدها ، فيكون تعالى وصفها بصفات خمس هي :

أ ـ كونها عبرة لأولي الألباب.

ب ـ ما كان حديثا يفتري ، أي ليس لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يفتري ، لأنه لم يقرأ الكتب ، ولم يتتلمذ لأحد ولم يخالط العلماء ، وليس يكذب في نفسه ؛ لأنه لا يصحّ الكذب منه ، وأكّد تعالى كونه غير مفترى فقال : ﴿وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي أن هذه القصة وردت على الوجه الموافق لما في التّوراة وسائر الكتب الإلهية.

ج ـ وتفصيل كلّ شيء من واقعة يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته.

د ـ كونها هدى في الدّنيا.

هـ ـ كونها سببا لحصول الرّحمة في القيامة لقوم يؤمنون. خصّهم بالذّكر ؛ لأنهم هم الذين انتفعوا به ، كما في قوله تعالى : ﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الرعد

مدنية وهي ثلاث وأربعون آية.

تسميتها :

سمّيت سورة الرّعد ، للكلام فيها عن الرّعد والبرق والصّواعق وإنزال المطر من السّحاب : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ. وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ﴾ [الرّعد ١٣ / ١٢ ـ ١٣] والمطر أو الماء سبب للحياة : حياة الأنفس البشريّة والحيوان والنّبات ، والصّواعق قد تكون سببا للإفناء ، وذلك مناقض للماء الذي هو رحمة ، والجمع بين النّقيضين من العجائب.

ناسبتها لما قبلها :

هناك تناسب بين سورة الرّعد وسورة يوسف في الموضوع والمقاصد ووصف القرآن ، أما الموضوع فكلاهما تضمّنتا الحديث عن قصص الأنبياء مع أقوامهم ، وكيف نجّى الله المؤمنين المتّقين وأهلك الكافرين ، وأما المقاصد فكلّ من السّورتين لإثبات توحيد الإله ووجوده ، ففي سورة يوسف : ﴿أَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾. وفي سورة الرّعد : ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ..﴾ [٢ ـ ٤]. ﴿قُلْ : مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ : اللهُ﴾ [١٦] ، وفيهما من الأدلّة على وجود الصّانع الحكيم وكمال قدرته وعلمه ووحدانيته الشيء الكثير ، ففي سورة يوسف : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾. وفي سورة الرّعد آيات دالّة على

قدرة الله تعالى وألوهيّته مثل الآيات [٢ ـ ٤] ، والآيات [٨ ـ ١١] ، والآيات [١٢ ـ ١٦] ، والآيتان [٣٠ و ٣٣].

وأما وصف القرآن فختمت به سورة يوسف : ﴿ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَهُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. وبدئت سورة الرّعد بقوله سبحانه : ﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ ، وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ﴾.

ما اشتملت عليه السّورة :

تحدثت سورة الرّعد عن مقاصد السّور المدنية التّي تشبه مقاصد السّور المكيّة ، وهي التّوحيد وإثبات الرّسالة النّبوية ، والبعث والجزاء ، والرّد على شبهات المشركين. وأهم ما اشتملت عليه هو ما يأتي :

١ ـ بدئت السّورة بإقامة الأدلّة على وجود الله تعالى ووحدانيته ، من خلق السّموات والأرض ، والشّمس والقمر ، والليل والنّهار ، والجبال والأنهار ، والزّروع والثّمار المختلفة الطّعوم والرّوائح والألوان ، وأن الله تعالى منفرد بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنّفع والضّر.

٢ ـ إثبات البعث والجزاء في عالم القيامة ، وتقرير إيقاع العذاب بالكفار في الدّنيا.

٣ ـ الإخبار عن وجود ملائكة تحفظ الإنسان وتحرسه بأمر الله تعالى.

٤ ـ إيراد الأمثال للحقّ والباطل ، ولمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام ، بالسّيل والزّبد الذي لا فائدة فيه ، وبالمعدن المذاب ، فيبقي النّقي الصّافي ويطرح الخبث الذي يطفو.

٥ ـ تشبيه حال المتّقين أهل السّعادة الصّابرين المقيمي الصّلاة بالبصير ،

حال العصاة الذين ينقضون العهد والميثاق ، ويفسدون في الأرض بالأعمى.

٦ ـ البشارة بجنان عدن للمتّقين ، والإنذار بالنّار لناقضي العهد المفسدين في الأرض.

٧ ـ بيان مهمّة الرّسول وهي الدّعوة إلى عبادة الله وحده ، وعدم الشّرك به ، وتحذيره من مجاملة المشركين في دعوتهم.

٨ ـ الرّسل بشر كغيرهم من النّاس ، لهم أزواج وذريّة ، وليست المعجزات رهن مشيئتهم ، وإنما هي بإذن الله تعالى ، ومهمّتهم مقصورة على التّبليغ ، أما الجزاء فإلى الله تعالى.

٩ ـ إثبات ظاهرة التّغير في الدّنيا ، مع ثبوت الأصل العام لمقادير الخلائق في اللوح المحفوظ.

١٠ ـ الاعلام بأن الأرض ليست كاملة التّكوير ، وإنما هي بيضاوية ناقصة في أحد جوانبها : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها﴾.

١١ ـ إحباط مكر الكافرين بأنبيائهم في كلّ زمان.

١٢ ـ ختمت السّورة بشهادة الله لرسوله ﷺ بالنّبوة والرّسالة ، وكذا شهادة المؤمنين من أهل الكتاب بوجود أمارات النّبي ﷺ في كتبهم. وكان في السّورة بيان مدى فرح هؤلاء بما ينزل من القرآن مصدّقا لما عرفوه من اكتب الإلهية.

القرآن حق

﴿الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١)﴾

الإعراب :

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ مبتدأ وخبر.

﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُ الْحَقُ﴾ : مبتدأ مؤخّر ، ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ﴾ خبر مقدّم ، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِي﴾ مبتدا وخبره ﴿الْحَقُ﴾. ويجوز أن يكون ﴿وَالَّذِي﴾ في موضع جر عطفا على ﴿الْكِتابِ﴾ أو وصفا للكتاب ، والواو زائدة.

البلاغة :

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ إشارة بالبعيد عن القريب ، للدّلالة على علوّ شأن الكتاب. وأل في ﴿الْكِتابِ﴾ للتّفخيم والتّعظيم ، أي الكتاب الكامل في بيانه ، السّامي في إعجازه.

المفردات اللغوية :

﴿المر﴾ البدء بهذه الحروف الهجائية المقطّعة للتّنبيه على إعجاز القرآن الكريم وبيان أن نزوله من عند الله حق لا شكّ فيه ، بالرّغم من كونه بلغة العرب ويتكون من حروف الكلمات التّي ينطقون بها.

﴿تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ﴾ أي هذه الآيات آيات القرآن ، والإضافة بمعنى من ، أو أن الكتاب بمعنى السّورة ، وتلك إشارة إلى آياتها ، أي تلك الآيات آيات السّورة الكاملة. ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي القرآن المنزل إليك من ربّك عطف عام على خاص ، أو عطف صفة على صفة ، أو مبتدأ ، وخبره ﴿الْحَقُ﴾. ﴿الْحَقُ﴾ لا شكّ فيه ، والجملة كالحجّة على الجملة الأولى ، وتعريف ﴿الْحَقُ﴾ أعمّ من أن يكون المنزل صريحا أو ضمنا كالمثبت بالقياس وغيره مما أقرّ القرآن بحسن اتّباعه.

﴿وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ إما أهل مكّة ، أو على العموم. ﴿لا يُؤْمِنُونَ﴾ بأنه من عند الله ؛ لإخلالهم بالنّظر والتّأمل فيه.

المناسبة :

بعد أن وصف الله تعالى القرآن في آخر سورة يوسف بخمس صفات ، أضاف هنا صفة أخرى وهي كونه حقّا من عند الله تعالى.

التّفسير والبيان :

آيات هذه السّورة آيات القرآن البالغ حدّ الكمال ، أو تلك الآيات العظام القدر والشّأن آيات الكتاب وهو القرآن الكريم.

وكلّ القرآن الذي أنزل إليك يا محمد من ربّك حقّ لا شكّ فيه ، وهو على التّفسير الأول بأن الآيات هي السّورة إجمال بعد تفصيل ، أو عموم بعد خصوص ، فبعد أن أثبت تعالى لهذه السّورة وصف الكمال والرّفعة ، عمم هذا الحكم على القرآن جميعه.

ولكن أكثر النّاس لا يصدقون بالمنزل إليك من ربّك ، ولا يقدرون ما في القرآن من سمو التّشريع والأحكام ورعاية المصالح المناسبة لكلّ عصر وزمان. وهذا كقوله تعالى في سورة يوسف : ﴿وَما أَكْثَرُ النَّاسِ ، وَلَوْ حَرَصْتَ ، بِمُؤْمِنِينَ﴾ [١٠٣] ، أي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشّقاق والنّفاق والعناد.

وإذا كان واقع البشريّة اليوم أن أكثر سكان العالم لا يؤمنون بالقرآن الكريم ، وأن المسلمين بالنسبة لغيرهم هم الخمس ، فيكون ذلك معجزة للقرآن الكريم الذي أخبر عن حال أكثر النّاس في الماضي كأهل مكة ، وفي مسيرة التّاريخ ، وفي الوقت الحاضر والمستقبل.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلّت الآية على أنّ آيات القرآن بالغة حدّ الكمال في الإعجاز والبيان ، وأن القرآن الكريم حقّ منزل من عند الله تعالى لا شكّ فيه ولا ريب ، باق على وجه الدهر ، ولكن مع الأسف حجب العناد والكفر كثيرا من النّاس عن الإيمان بما جاء فيه من حكم بالغة ، وأحكام رصينة ، وتشريعات محكمة. وهذا ليس إقرارا لهم ، وإنما هو على سبيل الزّجر والتّهديد.

وقد تمسّك نفاة القياس بهذه الآية ، وقالوا : الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله تعالى ، فهو ليس حقّا ، لأنه لا حقّ إلا ما أنزله الله تعالى.

ومثبتو القياس أجابوا عن ذلك بأن الحكم الثابت بالقياس نازل أيضا من عند الله تعالى ، لأنه تعالى لما أمر بالعمل بالقياس ، كان الحكم الذي دلّ عليه القياس نازلا من عند الله تعالى. وقد بيّنا أن تعريف كلمة ﴿الْحَقُ﴾ وإن دلّ على اختصاص المنزل بكونه حقّا ، فهو أعمّ من المنزل صريحا أو ضمنا ، كالمثبت بالقياس وغيره ، مما نطق المنزل بحسن اتّباعه.

بعض مظاهر قدرة الله في السّموات والأرض

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ وَأَنْهاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾

الإعراب :

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها﴾ الباء متعلّقة برفع ، أو ب ﴿تَرَوْنَها﴾. و ﴿تَرَوْنَها﴾ جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿السَّماواتِ﴾ ، أي أنه ليس ثم عمد البتة ، ويجوز أن تكون في موضع جر ؛ لأنها صفة ل ﴿عَمَدٍ﴾ أي أن ثمّ عمدا ، ولكن لا ترى.

﴿وَزَرْعٌ﴾ معطوف على ﴿جَنَّاتٌ﴾ ، وتقديره : وفي الأرض قطع متجاورات ، وجنات

وزرع ونخيل صنوان مجتمعة من أصل واحد ، ﴿وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾ غير مجتمعة من أصل واحد ، وعلى قراءة الجرّ. ﴿وَزَرْعٌ﴾ معطوف على ﴿أَعْنابٍ﴾ ، فتجعل الجنّات من الزّرع ، وهو قليل.

البلاغة :

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ شبّه إزالة نور النّهار بظلمة الليل بالغطاء الكثيف ، واستعار لفظ ﴿يُغْشِي﴾ من الغطاء الحسي للأمور المعنوية.

المفردات اللغوية :

﴿عَمَدٍ﴾ جمع عماد ، وهو الأسطوانة ، والآية تحتمل ألا عمد أصلا ، أو هناك عمد غير مرئية. ﴿اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ﴾ استواء يليق به ، أو المراد منه المجاز ، أي بالحفظ والتّدبير. ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلّل بالحركة المستمرة والسّرعة المعينة ونحو ذلك. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ كل منهما يسير في فلكه إلى يوم القيامة. ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ يصرف الأمر على وجه الحكمة. ﴿يُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ يبين دلالات قدرته ، وهي الأدلة التّي تقدم ذكرها من الشّمس والقمر. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يا أهل مكة وأمثالكم. ﴿بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي لتوقنوا وتتحققوا كمال قدرته بالبعث ، فتعلموا أن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها قادر على الإعادة والجزاء. واليقين : العلم الثابت الذي لا شكّ فيه.

﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ بسطها طولا وعرضا ليتمكّن الإنسان والحيوان من السّير عليها والانتفاع بمنافعها. ﴿وَجَعَلَ فِيها رَواسِيَ﴾ وخلق فيها جبالا ثوابت. ﴿وَأَنْهاراً﴾ عطفها على الجبال مباشرة ؛ لأنها أسباب تولدها ونبعها. ﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ﴾ متعلّق بقوله تعالى : ﴿جَعَلَ فِيها﴾. ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثّمرات صنفين اثنين كالحلو والحامض ، والأسود والأبيض ، والصغير والكبير ، والذكر والأنثى.

﴿يُغْشِي﴾ يغطي الليل بظلمته ضوء النّهار فيطمسه ، ويصير الجو مظلما بعد ما كان مضيئا. ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور. ﴿لَآياتٍ﴾ دلالات على وحدانية الله تعالى. ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في تلك الآيات وفي صنع الله تعالى ، فإن تكونها وتخصصها بوجه دون وجه دليل على وجود صانع حكيم ، دبّر أمرها ، وهيأ أسبابها.

﴿قِطَعٌ﴾ أي بقاع مختلفة. ﴿مُتَجاوِراتٌ﴾ متلاصقات ، فمنها طيب ومنها سبخ ، ومنها رخو ومنها صلب ، وبعضها صالح للزّرع دون الشّجر وبعضها بالعكس ، وذلك التّخصيص مع التّجاور والطّبيعة الأرضيّة من دلائل قدرة الله تعالى. ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ بساتين.

﴿صِنْوانٌ﴾ جمع صنو ، أي ونخلات يجمعها أصل واحد ، وتتشعّب فروعها. ﴿وَغَيْرُ صِنْوانٍ﴾ آي ومتفرّقات مختلفة الأصول ، وفي الحديث الذي أخرجه التّرمذي «عمّ الرّجل صنو

أبيه». ﴿يُسْقى﴾ أي الجنّات وما فيها. ﴿الْأُكُلِ﴾ ما يؤكل ، فمنها الحلو ومنها الحامض ، ومنها التّمر ومنها الحبّ ، وغير ذلك من الاختلاف شكلا وقدرا ورائحة وطعما ، وهو من دلائل قدرته تعالى ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآياتٍ﴾ لدلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يتدبّرون ويستعملون عقولهم بالتفكّر.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى أن أكثر النّاس لا يؤمنون ، أعقبه ببيان ما يدلّ على التّوحيد والمعاد ، بالاستدلال بأحوال السّموات وأحوال الشّمس والقمر ، وبأحوال الأرض : جبالها وأنهارها ، وبأحوال النّبات من زروع وثمار وأشجار مختلفة الطّعوم والرّوائح والألوان.

وبعد أن بيّن الله تعالى أن القرآن حقّ ، بيّن أن من أنزله قادر على الكمال ، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرته.

التّفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه : أنه الذي خلق السّموات بغير أعمدة ، لا نشاهدها بالعين ، فهي لا عمد لها أصلا ، وقوله : ﴿تَرَوْنَها﴾ مؤكد معنى كونها بغير عمد ، لأن المراد إثبات وجود الله تعالى وقدرته ، فلو كان لها أعمدة ، فلا يكون في الآية دلالة على وجود الله تعالى ، فهي تقوم بقدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره ، وتقوم في الفضاء بإبقائه تعالى ، حتى ولو قيل بتوازن قانون الجاذبية بين النّجوم والكواكب ، فإن ذلك بخلق الله تعالى.

ثم استوى الله تعالى على عرشه استواء يليق به ، والعرش شيء مخلوق ، نؤمن به كما أخبر القرآن ، وهو أعظم من السّموات والأرض ، جاء في الحديث : «ما السّموات السّبع وما فيهنّ وما بينهنّ في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة ، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة» ، وفي رواية : «والعرش لا يقدر قدره إلا الله ﷻ».

وسخّر الشّمس والقمر ، أي ذللهما وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، من دوران وضياء ، وظهور واختفاء ، جاء في آيات أخرى ما يبيّن دورة الشّمس حول نفسها ، وحركة القمر حول الأرض ، فقال تعالى : ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ، ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ. لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٣٨ ـ ٤٠].

وكلّ من الشّمس والقمر وغيرهما من الكواكب السّيارة يجري لأجل مسمّى ، أي لمدة معيّنة هي نهاية الدّنيا ومجيء القيامة ، أو لمدة محددة يتمّ فيها دورانه ، فالشّمس تتمّ دورتها في سنة ، والقمر يتمّ دورته في شهر.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي إنّ الله تعالى يدبّر أمر الكون ويصرفه على وفق إرادته ومقتضى حكمته ، فيحيي ويميت ، ويعزّ ويذلّ ، ويغني ويفقر ، ويهيء الأسباب للنّتائج والمسببات ، ويسيّر الأفلاك في نظام دقيق ثابت لا يخطئ ولا يتغيّر.

﴿يُفَصِّلُ الْآياتِ﴾ أي يبيّن الدّلائل الدّالّة على وجوده تعالى ووحدانيته وقدرته وحكمته وعلمه ورحمته.

﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي يوضح الآيات والدّلالات الدّالة على أنه لا إله إلا هو ، وأنه قادر على أن يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه أولّ مرة ، رجاء أن تتيقّنوا وتتحقّقوا ، أو لتعلموا علم اليقين القاطع الذي لا شكّ فيه أنّ الله قادر على البعث والإعادة ، والحساب والجزاء ، وإحياء الموتى من القبور في أي مكان دفنوا في البرّ أو البحر أو في أجواف الحيوان.

فالذي قدر على خلق السّموات والأرض وما بينهما وما فيهما ، ودبّر نظام الكون والحياة وأمور الخلق بدقة فائقة ، لا يبعد عليه ولا يعجزه البعث الجديد ، وإعادة الأرواح إلى أجسادها ، ثم حساب أصحابها على ما قدّموا في دار الدّنيا.

هـذه هـي الأدلّـة السّـماوية علـى وحدانيـة الله تعـالى وكمـال قدرتـه ، أتبعهـا بالأدلّـة الأرضيّة ، وهي : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي والله تعالى هو الذي جعل الأرض متّسعة ، منبسطة للحياة ، ممتدة في الطول والعرض ، ليتمكّن الإنسان والحيوان من التّنقل فيها بسهولة ، والانتفاع بخيراتها النّباتية والمعدنية كقوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً﴾ [النّبأ ٧٨ / ٦]. ولا يمنع انبساط الأرض للحياة في أجزائها أنها غير كروية أو مسطّحة في حجمها الكلي ، فقد أشار القرآن الكريم لكرويتها في آيات أخرى منها : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهارِ ، وَيُكَوِّرُ النَّهارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزّمر ٣٩ / ٥] والتّكوير : اللف على الجسم المستدير ، فهي مبسوطة ممدودة في نظرنا لنعيش عليها.

وأرساها بجبال راسيات شامخات ، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون ، لسقاية ما فيها من الثّمرات المختلفة الألوان والأشكال والطّعوم والرّوائح.

وجعل فيها من كلّ صنف من أصناف الثّمار زوجين اثنين أي ذكرا وأنثى ، فالشّجر والزّرع لا ينتجان الثّمر والحبّ إلا من عضوين : ذكر وأنثى ، وجعل أيضا من كلّ ثمر صنفين ، إما من حيث الطّعم كالحلو والحامض ، أو من حيث اللون كالأسود والأبيض ، أو الطّبيعة كالحار والبارد.

ونظير الآية قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهاداً ، وَالْجِبالَ أَوْتاداً ، وَخَلَقْناكُمْ أَزْواجاً﴾ [النّبأ ٧٨ / ٦ ـ ٨].

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ﴾ أي يغطي الله ضوء النّهار بظلمة الليل ، ويطرد ظلام الليل بنور النّهار ، كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنا نَوْمَكُمْ سُباتاً ، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِباساً ، وَجَعَلْنَا النَّهارَ مَعاشاً﴾ [النّبأ ٧٨ / ٩ ـ ١١] ، وقال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً﴾ [النّمل ٢٧ / ٨٦] ، وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آياتِهِ مَنامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَابْتِغاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الرّوم ٣٠ / ٢٣].

ثم نبّه الله تعالى في ختام الآية إلى وجوب التّفكّر في تلك الآيات السّماوية والأرضية ، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن في مخلوقات الله وعجائب خلقه وآلائه وحكمه لدلائل وبراهين لمن يتفكّر فيها ويعتبر بعظمتها ، فيستدلّ بها على وجود الله تعالى ، وقدرته ، وكمال علمه ، وإرادته ، مما لا يوجد له مثيل في الكون ، وذلك يستوجب تخصيصه بالعبادة ، والخضوع لسلطانه ، والتّزام أوامره.

ومن الآيات الأرضية اختلاف أجزاء الأرض بالطبيعة والماهية ، وهي مع ذلك متجاورة فقال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ ..﴾ ، أي وفي الأرض أجزاء يجاور بعضها بعضا ، ويقرب بعضها من بعض ، وهي مع تجاورها مختلفة متغايرة الخواص ، فمنها طيب ينبت ما ينفع النّاس ، ومنها سبخة مالحة لا تنبت شيئا ، ومنها صالح للزّرع دون الشّجر وبالعكس ، ومنها الرّخوة ومنها الصّلبة ، وتختلف ألوان بقاع الأرض ، فهذه تربة حمراء ، وهذه صفراء ، وهذه بيضاء ، وهذه سوداء ، وهذه محجرة ، وهذه مرملة ، وهذه سميكة ، وهذه رقيقة ، والكلّ متجاورات ، وهي مختلفة الصّفات ، مما يدلّ على وجود الخالق المختار ، الذي لا إله إلا هو ، ولا ربّ سواه.

وفيها بساتين من أعناب ، وزروع متفاوتة من حبوب مختلفة لتوفير غذاء الإنسان والحيوان ، ونخيل صنوان وغير صنوان ، والصّنوان : ذو الأصول أو الجذوع المجتمعة في منبت واحد كالرّمان والتّين وبعض النّخيل ، وغير الصّنوان : ما كان على أصل أو جذع واحد كسائر الأشجار. جاء في الحديث الصّحيح الذي أخرجه التّرمذي أنّ رسول الله ﷺ قال لعمر : «أما شعرت أن عمّ الرّجل صنو أبيه». وقال البراء رضي الله عنه : الصّنوان هي النّخلات في أصل واحد ، وغير لصّنوان : المتفرّقات.

ويظهر التّفاوت العجيب في بقاع الأرض وأصناف النّبات في أن الأرض

المنبتة لها واحدة ، وتسقى من ماء واحد ، وتتفاوت طعومها ، وتتفاضل مآكلها.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في هذا التّفاوت مع وجود مصادر التّشابه لأدلّة باهرة على وجود الله ووحدانيته ، لقوم يتدبّرون ويفكّرون فيها ، فهذا الاختلاف في أجناس الثّمرات والزّروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها ، حلاوة وحموضة ومرارة وعذوبة وتلوّنا ، وهذا الاختلاف في الأزهار في ألوانها وروائحها وإبداع ورقاتها وزهرها ، مع أنها كلّها تستمد من طبيعة واحدة ، وهو الماء والأرض ، في كلّ ما ذكر آيات لمن كان واعيا ، ومن أعظم الأدلّة على وجود الخالق الفاعل المختار القادر على كلّ شيء ، ومن قدر على الإيجاد والخلق أول مرّة فهو قادر على الإعادة والتّكوين مرّة ثانية ، بل هو أهون عليه.

وختم الآيات الثلاث بما ذكر : ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ، ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دليل على وجوب استخدام النّظر والعقل والفكر ، للتّوصل إلى الاقتناع الذّاتي الحرّ بوجود الخالق ووحدانيته ، وهذا الإعمال للعقل من مقاصد الإسلام ، وفرائض القرآن ، وأصول الدّين.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ من لطف الله بعباده ورحمته بهم وإرشاده لهم أنه أوضح لهم الأدلّة ، ولفت نظرهم إلى ما يدلّ على وجوده وكمال قدرته ، وعلمه ، وإرادته ، فتخصيص كلّ واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته ليس إلا من الله تعالى.

٢ ـ الأدلّة متنوعة : سماوية وأرضية ، فالسّماوية ثلاثة : رفع السّموات بغير أعمدة ، والاستواء على العرش ، وتسخير الشّمس والقمر وتذليلهما وتطويعهما

لغايات معينة في مدّة معينة لمنافع الخلق ومصالح العباد ما داموا في الدّنيا وحتى تقوم السّاعة ، يدبّر الله فيها الأمر ، أي يصرفه على ما يريد بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار ، وإنزال الوحي وبعثة الرّسل وتكليف العباد ، ويبيّن الآيات ، فمن قدر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة ، لذا قال : ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ وهذا إثبات للألوهيّة والرّبوبية والمعاد يوم القيامة ، فمن كان يمكنه تدبير من فوق العرش إلى ما تحت الثّرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن ، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن.

وأمّا الأدلة الأرضية فهي ستّة : بسط الأرض بالنّسبة للنّاظر ليمكن العيش عليها ، وتثبيتها بالجبال الرّاسيات الشّامخات ، وإجراء الأنهار وتفجير الينابيع ، وجعل الثّمار ذات وجهين اثنين ، أي من صنفين متعارضين كالذّكر والأنثى ، والحلو والحامض ، والحار والبارد ، والأبيض والأسود ، وتغطية الليل النّهار ، وتبديد ظلمة الليل بضوء النّهار ، وتفاوت ما تنتجه الأرض من حبوب وزروع وثمار وأشجار ، مجتمعة ذات جذوع متعددة من منبت واحد ، ومتفرّقة ذات جذع مستقلّ بكلّ واحدة منها.

فكلّ ما ذكر يدلّ دلالة قطعيّة على أنّ الكلّ بتدبير الله الفاعل المؤثر المختار ، لا بالطّبيعة ولا بالصّدفة.

٣ ـ لا يفهم من آية : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ ، وآية : ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذلِكَ دَحاها﴾ [النّازعات ٧٩ / ٣٠] أنّ الأرض غير كروية ، فقد ثبتت كرويتها بالأدلّة العلمية العقلية والحسيّة ، ودلّت أقمار الفضاء الدّائرة حول الأرض بما لا يقبل أي شكّ أو جدل على أن الأرض كروية ، وقد صرح بكرويتها علماؤنا كالرّازي [١] ، فإن المقصود أن كل قطعة من الأرض تشاهد كالسّطح ، وأما مجموعها

---

(١) تفسير الرّازي : ١٩ / ٣٠٢

وحجمها العظيم فهو كرة بدليل تثبيتها في الآية هنا بالجبال الرّواسي ، وكذلك في آية أخرى : ﴿وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ [النّبأ ٧٨ / ٧]. وبدليل تكوير الليل على النّهار ، والنّهار على الليل ، والتّكوير : اللف على الجسم المستدير.

٤ ـ قال القرطبي عن آية ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجاوِراتٌ﴾ : في هذا أدلّ دليل على وحدانيته تعالى وعظم صمديته ، والإرشاد لمن ضلّ عن معرفته ؛ فإنه سبحانه نبّه بقوله : ﴿يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ﴾ على أن ذلك كلّه ليس إلا بمشيئته وإرادته ، وأنه مقدور بقدرته ، وهذا أدلّ دليل على بطلان القول بالطّبع (الطّبيعة) ؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتّراب والفاعل له الطّبيعة ، لما وقع الاختلاف [١].

٥ ـ الدّعوة القويّة ، بل الفريضة والإيجاب لإعمال الفكر والعقل ، والاسترشاد بما في الكون من دلائل وعلامات واضحة على وجود الله تعالى ، وكمال قدرته ، وعلمه ، ووحدانيته.

٦ ـ قال الحسن البصري في آية : ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ : المراد بهذه الآية المثل ؛ ضربه الله تعالى لبني آدم ، أصلهم واحد ، وهم مختلفون في الخير والشّرّ والإيمان والكفر ، كاختلاف الثّمار التي تسقى بماء واحد.

إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب ومطالبتهم بإنزال آية

مادية على النّبي ﷺ

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ

---

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٢٨١

الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ (٧)﴾

الإعراب :

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ خبر مقدم ومبتدأ مؤخر ، ولا بد فيه من تقدير صفة لتمكن المعنى أي فعجب أي عجب أو فعجب غريب.

﴿أَإِذا﴾ عامل «إذا» : فعل مقدر دلّ عليه معنى الكلام ، أي : أنبعث إذا كنا ترابا ؛ لأن في قوله : ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ دليلا عليه ، ولا يجوز أن يعمل فيه : ﴿كُنَّا﴾ ؛ لأن «إذا» مضافة إليها ، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف ، ولأنهم لم ينكروا كونهم ترابا ، وإنما أنكروا البعث بعد كونهم ترابا.

وقوله ﴿أَإِذا كُنَّا﴾ إلى آخر قولهم : إما بدل مرفوع من ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وإما منصوب بالقول. والاستفهامان : ﴿أَإِذا﴾ و ﴿أَإِنَّا﴾ للتأكيد وشدة الحرص على البيان.

﴿عَلى ظُلْمِهِمْ﴾ محله النّصب على الحال.

﴿إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ أَنْتَ﴾ : مبتدأ ، وخبره : ﴿مُنْذِرٌ﴾. و ﴿هادٍ﴾ : معطوف على ﴿مُنْذِرٌ﴾ ، فتكون اللام في ﴿لِكُلِ﴾ متعلقة بمنذر أو بهاد ، وقد فصل بين الواو والمعطوف بالجار والمجرور ، وتقديره : إنما أنت منذر وهاد لكل قوم. ويجوز أن يكون ﴿هادٍ﴾ مبتدأ ، و ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ﴾ : الخبر ، واللام متعلقة باستقر.

البلاغة :

بين ﴿بِالسَّيِّئَةِ﴾ و ﴿الْحَسَنَةِ﴾ وبين ﴿مُنْذِرٌ﴾ و ﴿هادٍ﴾ طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ يا محمد من تكذيب الكفار لك وعبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان. ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي فأعجب منه ، أو فعجب غريب أو فحقيق بالعجب تكذيبهم

بالبعث وإنكارهم له. والعجب : تغير النّفس واندهاشها حين رؤية ما يستبعد في العادة. ﴿أَإِذا كُنَّا تُراباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ هذا استفهام إنكاري ، ينكرون فيه إمكان إعادة الخلق بالبعث ، وفاتهم أن القادر على إنشاء الخلق وما تقدم على غير مثال قادر على إعادتهم.

﴿الْأَغْلالُ﴾ جمع غل : وهو طوق حديدي تشد به اليدان إلى العنق. ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بالعذاب قبل السّلامة. ﴿الْمَثُلاتُ﴾ جمع مثلة بوزن سمرة : وهي العقوبة ، أي مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لم يعتبروا بها ، فلا يستهزءوا. وسميت مثلة لما بين العقاب والجريمة من المماثلة ، كما قال تعالى : ﴿وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها﴾ [الشّورى ٤٢ / ٤٠] ومنه سمي عقاب القاتل قصاصا ، لما فيه من المماثلة. ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ الغفر والمغفرة : السّتر ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة. ﴿عَلى ظُلْمِهِمْ﴾ أي مع ظلمهم ، وإلا لم يترك على ظهرها دابة. ﴿لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾ لمن عصاه.

﴿لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ هلا أنزل على محمد. ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ آية حسية كقلب عصا موسى حية ، وجعل يده بيضاء مشعة كالشمس ، وناقة صالح. ﴿مُنْذِرٌ﴾ مخوف الكافرين ، وليس عليك إتيان الآيات ، والإنذار : التخويف. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ الهادي : الذي يرشد النّاس إلى الخير والحق والصواب كالأنبياء والحكماء والعلماء ، أي لكل قوم نبي يدعوهم إلى ربهم بما يعطيه إياهم من الآيات ، لا بما يقترحون ، وهو مدعم عادة بمعجزة من جنس ما هو الغالب عليهم.

المناسبة :

أقام الله تعالى في الآيات السّابقة الأدلة السّماوية والأرضية على قدرته ، ليثبت للناس أن من كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة ، كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته ، لأن القادر على الأقوى الأكمل ، فإنه قادر بالأولى على الأقل الأضعف : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٣].

ثم حكى هنا إنكار المشركين للبعث والقيامة ، وأتبعه بحكاية حماقة أخرى وهي استعجالهم العذاب ، وأردفه بطلباتهم إنزال آيات حسية للتعجيز.

التفسير والبيان :

وإن تعجب أيها الرّسول من تكذيب هؤلاء المشركين لك ، وعبادتهم

ما لا يضر وما لا ينفع من الأصنام ، مع ما يشاهدونه من آيات الله تعالى ودلائله في خلقه على أنه القادر على ما يشاء ، ومع اعترافهم من أنه ابتدأ خلق الأشياء ، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا ، إن تعجب من ذلك ، فالأعجب منه والأغرب تكذيبهم بالبعث والقيامة ، وقولهم : هل تمكن الإعادة بعد الفناء والبلى والصيرورة ترابا؟ وقد تكرر منهم هذا الاستفهام الإنكاري في أحد عشر موضعا ، في تسع سور من القرآن : في الرعد ، والإسراء ، والمؤمنون ، والنّحل ، والعنكبوت ، والسّجدة ، والصافات ، والواقعة ، والنّازعات.

مع أن كل عالم وعاقل يعلم أن خلق السّموات والأرض أكبر من خلق النّاس ، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل ، كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ، بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٣].

ثم حكم الله تعالى حكمه عليهم بأحكام ثلاثة بقوله : ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي أولئك الكافرون الذين جحدوا بربهم ، وكذبوا رسوله ، وتمادوا في عنادهم وضلالهم ؛ لأن إنكار قدرة الله تعالى إنكار له. وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة ، فهو كافر.

وأولئك المقيدون بالسلاسل والأغلال يسحبون بها ، قال أبو حيان : والظاهر أن الأغلال تكون حقيقية في أعناقهم كالأغلال [1] ، كما قال : ﴿إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ ، وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ [غافر ٤٠ / ٧١] وهذا حقيقة ، وحمل الكلام على الحقيقة أولى.

وهم أصحاب النّار الخالدون فيها في الآخرة بقوله : ﴿وَأُولئِكَ أَصْحابُ

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٣٦٦

﴿النَّارِ ..﴾ أي وأولئك أهل النّار الملازمون لها ، المستحقون دخولها ، الماكثون فيها أبدا لا يحولون عنها ولا يزولون بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول : ﴿كَلَّا ، بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين ٨٣ / ١٤] والمراد بذلك التهديد بالعذاب المخلد المؤبد. وهذا يدل على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية.

ولم يقتصر تكذيبهم الرسول على إنكار عذاب الآخرة ، وإنما أنكروا أيضا عذاب الدّنيا ، فقال تعالى : ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ أي ويستعجلك هؤلاء المكذبون بالعقوبة قبل السّلامة منها والعافية من بلائها ، كما قال تعالى : ﴿سَأَلَ سائِلٌ بِعَذابٍ واقِعٍ﴾ [المعارج ٧٠ / ١] وقال : ﴿وَإِذْ قالُوا : اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢] وقال : ﴿وَقالُوا : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ﴾ [ص ٣٨ / ١٦] أي عجّل لنا عقابنا وحسابنا.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم ، وبعبارة أخرى : ويستعجلونك بالعقاب مستهزئين بإنذارك ، والحال أنه قد مضت العقوبات النّازلة على أمثالهم من المكذبين ، كالرجفة والخسف والطوفان ونحوها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ ..﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس على ذنوبهم ، مع أنهم يظلمون ، ويخطئون باللّيل والنّهار ، ولولا حلمه وعفوه لعجل لهم العذاب فور ارتكاب الذنب ، كما قال : ﴿وَلَوْ يُؤاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ، ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر ٣٥ / ٤٥] وقال : ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ، لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا ، لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً﴾ [الكهف ١٨ / ٥٨].

والخلاصة : إن الله يغفر للنّاس مع ظلمهم أنفسهم باكتساب الذنوب ، أي ظالمين أنفسهم ، قال ابن عباس : ليس في القرآن آية أرجى من هذه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقابِ﴾ أي وإنه تعالى شديد العقاب للعصاة.

ويلاحظ أنه تعالى قرن حكم المغفرة والرحمة بأنه شديد العقاب ، كما هو شأن القرآن كثيرا ، ليعتدل الرجاء والخوف ، وليكون الإنسان بين الأمل والحذر ، كما قال تعالى : ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ : رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٤٧] وقال : ﴿نَبِّئْ عِبادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذابِي هُوَ الْعَذابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر ١٥ / ٤٩ . ٥٠] وقال : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف ٧ / ١٦٧] ونحو ذلك من الآيات التي تجمع بين الرجاء والخوف.

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيّب قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ﴾ الآية ، قال رسول الله ﷺ : «لولا عفو الله ورحمته وتجاوزه ، ما هنأ أحدا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكل كل أحد».

ثم ذكر الله تعالى ما طالب به المشركون النّبي ﷺ من معجزة حسية كالأنبياء السّابقين بقصد التعجيز والإصرار على الكفر والطعن في النّبوة والتشكيك في صحتها فقال : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ أي يقول المشركون كفرا وعنادا : لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون ، مثل عصا موسى ، وناقة صالح ، ومائدة عيسى ، فيجعل لنا الصفا ذهبا ، وأن يزيح عنا الجبال ، ويجعل مكانها مروجا وأنهارا.

فرد الله عليهم الشّبهة بآية أخرى : ﴿وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآياتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء ١٧ / ٥٩] أي نخشى تطبيق العقاب على المكذبين ، فإن

سنتنا أن من لم يؤمن بالآيات المنزلة بعد طلبها ، أهلكناهم ودمرناهم بذنوبهم.

وهنا أعرض البيان عن الجواب عن قول المشركين ، إلى توضيح مهمة الرسول التي أرسل بها وهي الهداية والإنذار ، لا تلبية الطلبات ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾ أي إنما أنت رسول عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها ، وأما الآيات فأمرها إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُداهُمْ ، وَلكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧٢].

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ﴾ أي ولكل أمة أو قوم داع من الأنبياء ، يدعوهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإلى الدّين الحق ، وسبيل الخير والرشاد ، كما في آية أخرى : ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ﴾ [فاطر ٣٥ / ٢٤].

ويصح أن يكون ﴿هادٍ﴾ معطوفا على ﴿مُنْذِرٌ﴾ وفصل بينهما بقوله ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ﴾ أي أنت منذر وهاد لكل قوم ، وبه قال عكرمة وأبو الضحى.

والخلاصة : إن الآية نزلت في المشركين والكفار الذين لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر ، وانقياد الشّجر ، وانقلاب العصا سيفا ، ونبع الماء من بين الأصابع ، وأمثال هذه ، فاقترحوا عنادا آيات ، كالمذكورة في الإسراء والفرقان كتفجير الينبوع والرقي في السّماء والملك والكنز ، فقال الله لنبيه ﷺ : إنما أنت منذر تخوفهم من سوء العاقبة ، وناصح كغيرك من الرسل ، ليس لك الإتيان بما اقترحوا ، فالاقتراح إنما هو عناد ، ولم ينزل الآيات إلا إذا تحتم العذاب والاستئصال [1].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ إنكار البعث والقيامة مدعاة للعجب الشّديد ، والله تعالى لا يتعجب ،

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٣٦٧

ولا يجوز عليه التعجب ؛ لأنه تغير في النّفس بما تخفى أسبابه ، وإنما ذكر تعالى ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون.

٢ ـ من أنكر البعث والقيامة ، فهو كافر ، لإنكاره القدرة الإلهية والعلم والصدق في الخبر ، ويساق إلى جهنم بالأغلال والسّلاسل ، وهو خالد في النّار. فهذه أوصاف ثلاثة لمنكري البعث: ﴿أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ ، وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾.

٣ ـ العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية : ﴿هُمْ فِيها خالِدُونَ﴾ أي هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم ، أما أهل الكبائر من المسلمين الذين يرتكبون الجرائم العظام ، كالقتل وشهادة الزور وعقوق الوالدين ، فلا يخلدون في النّار.

٤ ـ طلب المشركين إنزال العقوبة لفرط إنكارهم وتكذيبهم نوع من الطيش والحماقة ، وكفاهم الاعتبار بعقوبات أمثالهم المكذبين ، فالمثلات أي العقوبات كثيرة. وقد تبين من هذه الآية : أن عذاب الاستئصال لا ينزل بهم إلا بالإصرار على الكفر والمعاصي.

٥ ـ حكم سبحانه بتأخير العقوبة عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

٦ ـ إن الله تعالى لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا ، وعن المذنبين إذا تابوا ، وقد يعفو تعالى عن صاحب الكبيرة قبل التوبة في رأي أهل السّنة ، لأن قوله تعالى ﴿عَلى ظُلْمِهِمْ﴾ أي حال اشتغالهم بالظلم ، وحال الاشتغال بالظلم لا يكون المرء فيها تائبا.

قال ابن عباس : أرجى آية في كتاب الله تعالى : ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلى ظُلْمِهِمْ﴾.

٧ ـ وإن الله أيضا شديد العقاب للكافرين إذا أصروا على الكفر.

٨ ـ ليست مهمة النّبي ﷺ تلبية طلبات المشركين واقتراحاتهم ، إنما مهمته الإنذار ، أي التعليم ، فهو منذر لقومه مبين لهم ، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع.

٩ ـ لكل قوم هاد ، أي نبي يدعوهم إلى الله. وقيل : الهادي الله ؛ أي عليك الإنذار ، والله هادي كل قوم إن أراد هدايتهم.

١٠ ـ اجتمع من المشركين كما تحكي هذه الآية ثلاثة طعون : وهي أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنّشر ، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة.

وسبب كل هذه الطعون : أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات ، وقالوا : هذا كتاب مثل سائر الكتب. والإتيان بكتاب معين ، لا يكون معجزا البتة ، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ، كفلق البحر بالعصا ، وقلب العصا ثعبانا.

ولا تعني هذه الآية أنه لم تظهر معجزة تصدق النّبي عليه الصلاة والسّلام سوى القرآن ، ولعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات ، أو أنهم طلبوا منه معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع ، وانشقاق القمر ، ونبوع الماء من بين أصابعه ، وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل.

ويظل القرآن هو المعجزة الكبرى للنّبي ﷺ ، فهو المناسب لزمنه ، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السّحر ، جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم ، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب ، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة ، وهو إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه (الأعمى الذي ولد فاقد البصر) والأبرص ، ولما كان الغالب في أيام الرسول ﷺ الفصاحة

والبلاغة ، جعل معجزته ما كان لائقا بذلك الزمان ، وهو فصاحة القرآن.

فإذا لم يؤمن العرب بهذه المعجزة ، مع كونها أليق بطباعهم ، فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى.

بعض مظاهر علم الله المحيط بكل شيء

﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ (٨) عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعالِ (٩) سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسارِبٌ بِالنَّهارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ (١١)﴾

الإعراب :

﴿اللهُ يَعْلَمُ ما ما﴾ هنا وفي بقية الآية : اسم موصول ، مفعول ﴿يَعْلَمُ﴾ والجمل الفعلية التي بعدها هي الصلات ، والعائد منها كلها محذوف. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهامية منصوبة بيعلم. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ مصدرية.

﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ﴾ من : مبتدأ مرفوع ، و ﴿سَواءٌ﴾ : خبر مقدم ، وهو مصدر بمعنى اسم الفاعل ، فهو مستو.

﴿وَإِذا أَرادَ اللهُ﴾ العامل في ﴿إِذا﴾ ما دل عليه الجواب.

البلاغة :

يوجد طباق في ﴿تَغِيضُ﴾ و ﴿تَزْدادُ﴾ وفي ﴿الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ وفي ﴿أَسَرَّ﴾ و ﴿جَهَرَ﴾ وفي ﴿بِاللَّيْلِ﴾ و ﴿بِالنَّهارِ﴾ وفي ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ و ﴿سارِبٌ﴾ أي ظاهر.

المفردات اللغوية

﴿ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى﴾ أي حملها أو ما تحمله من كون الجنين ذكرا أو أنثى ، واحدا أو متعددا ، وصفات كل ، وغير ذلك ﴿تَغِيضُ﴾ تنقص من زمن أو جسم. ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ﴾ أي وما تنقصه وما تزداده من الجثة والمدة والعدد. ﴿بِمِقْدارٍ﴾ بقدر واحد لا يتجاوزه ولا ينقص عنه ، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٩] فإنه تعالى خص كل حادث بوقت وحال معينين ، وهيأ له أسبابا مسوقة إليه ، تقتضي ذلك.

﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ ما غاب ، وما حضر أو شوهد. والغائب : ما غاب عن الحس ، والشّاهد : الحاضر المشاهد. ﴿الْكَبِيرُ﴾ العظيم الشّأن. ﴿الْمُتَعالِ﴾ المستعلي على كل شيء بالقهر أو بقدرته. ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ﴾ أي في علمه تعالى. ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ مستتر. ﴿بِاللَّيْلِ﴾ بظلامه. ﴿وَسارِبٌ﴾ ظاهر بارز بالنهار ، بذهابه في سربه أي طريقه.

﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ﴾ له ملائكة تعتقب في حفظه ورعايته ، أو تتعاقب على كتابة أقو اله وأفعاله ، جمع معقّبة ، من عقّبه : جاء عقبه ، والتاء للمبالغة ، لا للتأنيث ، والمراد : ملائكة يتعاقبون على الإنسان بالليل والنّهار. ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ قدامه. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ ورائه أي من جوانبه. ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي بأمره وإعانته ، أو يحفظونه من بأس الله متى أذنب بالاستمهال أو الاستغفار له ، أو يحفظونه من المضار. ﴿لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ﴾ من العافية والنّعمة أي لا يسلبهم نعمته. ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾ من الأحوال الجميلة بالأحوال القبيحة والمعاصي. ﴿سَواءٌ﴾ عذابا. ﴿فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ من المعقبات ولا غيرها. ﴿وَما لَهُمْ﴾ لمن أراد الله بهم سوءا. ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ أي غير الله. ﴿مِنْ والٍ﴾ ناصر يمنعه عنهم ، و ﴿مِنْ﴾ : زائدة ، وهذا دليل على أن خلاف مراده محال.

المناسبة :

بعد أن حكى الله سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له ، أورد الأدلة على قدرته على ذلك بعلمه المحيط بكل شيء ، فهو يعلم ما في الأجنّة التي في البطون ، ويعلم الغائب عنا والمشاهد لنا ، ويعلم السّر وأخفى ، ويعلم جميع أجزاء الإنسان

المتناثرة ومواضعها في البر والبحر وأجواف الحيوان ، فيعيدها مرة أخرى.

وبعد أن حكى عن المشركين أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول ﷺ ، بيّن أنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، فيعلم من حالهم أنهم : هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد ، أو لأجل التعنت والعناد؟ وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات ، أو يزداد إصرارهم على الكفر واستكبارهم؟.

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء ، فهو يعلم بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات ، أهو ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، حسن أو قبيح ، ذو خصائص وأوصاف ، طويل العمر أو قصيره ، كما قال تعالى : ﴿**وَيَعْلَمُ ما فِي الْأَرْحامِ**﴾ [لقمان ٣١ / ٣٤] وقال : ﴿**هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ**﴾ [النجم ٥٣ / ٣٢] وقال : ﴿**يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ، فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ**﴾ [الزمر ٣٩ / ٦].

وإذا أمكن معرفة نوع الجنين علميا بالتحليل مثلا من كونه ذكرا أو أنثى ، فلا يكون ذلك معارضا الآية ، لأن علم الله لا ينحصر به ، وإنما علمه واسع محيط بكل شيء من الخواص والصفات الأخرى.

﴿**وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ**﴾ أي والله يعلم ما تنقصه الأرحام وما تزداده من الجثة (سقطا أو تماما) والمدة (أقل من تسعة أشهر أو تسعة أو أكثر إلى عشرة) والعدد (واحدا أو متعددا) والدم (إراقة حتى يخسّ الولد ، وعدم إراقة حتى يتم الولد ويعظم).

والإحصاء العلمي دل على أن الجنين لا يزيد بقاؤه في بطن أمه عن ٣٠٥ أو ٣٠٨ أيام ، وهناك رأي في المذهب المالكي أن عدة المطلقة سنة قمرية (٣٥٤ يوما).

وأما ما يذكر في المذاهب لأقصى مدة الحمل (أربع سنين عند الشافعية والحنابلة ، وخمس سنين عند المالكية ، وسنتان عند أبي حنيفة) فمستنده الاستقراء وأخبار الناس ، والناس قد يخطئون أو يتوهمون وجود الحمل في فترة زمنية ما ، وليس في ذلك أي نص شرعي ثابت.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ أي وكل شيء عنده تعالى بأجل معين ، أو بقدر واحد ، لا يزيد عنه ولا ينقص ، كقوله : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٩]. وجاء في الحديث الصحيح الذي رواه الجماعة عن أسامة بن زيد : أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابنا لها في الموت ، وأنها تحب أن يحضره ، فبعث إليها يقول : «إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمروها فلتصبر ولتحتسب».

﴿عالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ﴾ أي يعلم كل شيء غائب عن العباد لا تدركه أبصارهم ، ومشاهد لهم مرئي ، ولا يخفى عليه منه شيء ، الكبير الذي هو أكبر من كل شيء ، المتعال على كل شيء ، قد أحاط بكل شيء علما ، أي شمل علمه كل شيء ، وقهر كل شيء ، فخضعت له الرقاب ، ودان له العباد طوعا وكرها.

ويلاحظ أن هذه الآية استوفت بيان كمال علم الله تعالى ، ففي مطلع الآية الذي هو كلام مستأنف أوضح تعالى أنه عالم بالجزئيات والمفردات ، ثم ذكر أنه عالم بمقادير الأشياء وحدودها لا تتجاوزها ولا تقتصر عليها ، وخصص كل حادث بوقته بعينه وبحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية ، ثم أضاف أنه عالم بأشياء خفية لا يعلمها إلا هو ، وهي أشياء جزئية من خفايا علمه ، فهو يعلم الباطن والظاهر ، والغائب : وهو ما غاب عن الحس ، والشاهد : وهو ما حضر للحس ، ثم ذكر أن علمه محيط بجميع الأشياء ، لا فرق فيه بين الخفي السرّ أو الظاهر المعلن فقال : ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ ..﴾ أي أنه تعالى محيط علمه بجميع خلقه ، وأنه سواء منهم من أسرّ قوله وأخفاه أو جهر به وأعلنه ، فإنه يسمعه لا يخفى عليه

شيء ، كما قال : ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفى﴾ [طه ٢٠ / ٧] وقال : ﴿وَيَعْلَمُ ما تُخْفُونَ وَما تُعْلِنُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٢٥].

وقالت عائشة رضي الله عنها : سبحان الذي وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة ، تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وأنا في جنب البيت ، وإنه ليخفى عليّ بعض كلامها ، فأنزل الله : ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجادِلُكَ فِي زَوْجِها ، وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحاوُرَكُما ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١].

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أي يعلم أيضا ما هو مختف في قعر بيته في ظلام الليل ، والتنصيص على هذه الحالة تنبيه على رقابة الله في كل مكان قد يظن صاحبه أنه بتواريه عن أنظار الناس ، لا يطلع عليه أحد.

﴿وَسارِبٌ بِالنَّهارِ﴾ أي ظاهر ماش في ضوء النهار ، فإن كلاهما في علم الله على السواء ، كقوله تعالى : ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ، وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ ، وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ ، وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [يونس ١٠ / ٦١].

ثم ذكر الله تعالى وسيلة إثبات المعلومات وخزائن المعارف والوقائع لمواجهة أصحابها بها مع علمه تعالى بكل شيء ، وهي : ﴿لَهُ مُعَقِّباتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ أي للإنسان ملائكة حفظة ، ملائكة في الليل تعقب ملائكة النهار ، وبالعكس فهم يتعاقبون يتعاقبون على حراسته وحفظه من المضار ومراقبة أحواله ، ويتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والتدوين أو الكتابة ، سواء خيرا أو شرا. فالضمير عائد إلى ﴿مِنْ﴾ في قوله : ﴿سَواءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ﴾ وقيل : الضمير يعود على اسم الله في عالم الغيب والشهادة.

فلهؤلاء الملائكة الحفظة وظائف ، منها : حفظ الإنسان في الليل والنهار من المضارّ والحوادث بإذن الله وأمره ورعايته ، ويقوم به ملائكة معينون وعددهم اثنان يحرسه أحدهما من ورائه والآخر من قدامه ، ومنها حفظ الأعمال من خير أو شر ، ويقوم به ملائكة آخرون ، وهما اثنان عن اليمين والشمال ، يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات ، وصاحب الشمال يكتب السيئات ، كما قال تعالى : ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ. ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق ٥٠ / ١٧ ـ ١٨] فصار مجموع ملائكة كل إنسان أربعة أملاك بالنهار ، وأربعة آخرين بالليل ، وهم حافظان وكاتبان ، كما جاء في الحديث الصحيح عند البخاري : «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل ، وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم وهو أعلم بكم : كيف تركتم عبادي؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون» وفي الحديث الآخر : «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء ، وعند الجماع ، فاستحيوهم وأكرموهم».

قال ابن عباس : ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ : ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه.

ومن علم أن الملائكة الحفظة ترصد عليه أعماله وتحصي أقواله وأفعاله ، تهيّب من مخالفة أوامر ربه ، وكان حذرا من المعاصي ، حتى لا تسجل عليه ، ويفاجأ بها يوم القيامة ، كأنه شريط مسجل من وقت التكليف (البلوغ والعقل) إلى الوفاة.

وقوله ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي يحفظونه بأمر الله وبإذنه ، فحفظهم إياه متسبب عن أمر الله لهم بذلك. أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب بدعائهم له ، وسؤالهم ربه أن يمهله ، رجاء أن يتوب وينيب ، كقوله : ﴿قُلْ : مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهارِ مِنَ الرَّحْمنِ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٢].

ثم بيّن الله تعالى مزيد فضله وعدله بأنه لا عقاب بدون جريمة ، فقال :

﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ..﴾ أي إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم وينتقم منهم إلا بتغيير ما بأنفسهم بأن يكون منهم الظلم والمعاصي والفساد وارتكاب الشرور والآثام التي تهدم بنية المجتمع وتدمر كيان الأمم.

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجه عن أبي بكر الصديق ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الناس إذا رأوا الظالم ، فلم يأخذوا على يديه ، يوشك أن يعمهم الله بعقاب».

وهذا مؤكد للآية : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٨ / ٢٥].

وواقع التاريخ الإسلامي في القرون الماضية يدل دلالة واضحة على أن الله تعالى لم يغيّر ما كان عليه حال الأمة الإسلامية من عزة ومنعة ، ورفاه واستقلال ، وعلم وتفوق في السياسة والاقتصاد والاجتماع ، إلا بعد أن غيروا ما بأنفسهم ، فحكموا بغير القرآن ، وأهملوا دينهم ، وتركوا سنة نبيهم ، وقلدوا غيرهم ، وضعفت روابط التعاون بينهم ، وساءت أخلاقهم ، وانتشرت الموبقات بينهم ، وقد وعد الله الأرض من يصلحها بقوله : ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٥] أي الصالحون لعمارتها ، وقوله : ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ ، يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٢٨].

ثم وصف تعالى قدرته المطلقة على العذاب فقال : ﴿وَإِذا أَرادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً ..﴾ أي وإذا أراد الله بقوم سوءا من فقر أو مرض أو احتلال ونحوها من أنواع البلاء ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ، وما لهم من غير الله تعالى ناصر يلي أمورهم ، ويدفع عنهم ، أي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، فتلك الآلهة المزعومة لا تستحق الألوهية لعجزها عن فعل شيء نافع أو دفع أذى ضار.

وهذا يدل على أن الله قادر في أي وقت على إيقاع العذاب بالناس ، فليس من العقل والحكمة في شيء استعجالهم ذلك.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إن الله تعالى عالم بالجزئيات وبالكليات ، وبالماضي والحاضر والمستقبل ، وبالباطن والظاهر أو السر المخفي والمعلن المجاهر به ، وبالغائب عن مسامعنا وأبصارنا والشاهد الحاضر.

٢ ـ استدل مالك والشافعي بآية : ﴿وَما تَغِيضُ الْأَرْحامُ وَما تَزْدادُ﴾ على أن الحامل تحيض ، قال ابن عباس في تأويلها : إنه حيض الحبالى ، وهو قول عائشة ، وأنها كانت تفتي النساء ، الحوامل إذا حضن أن يتركن الصلاة. وقال عطاء والشعبي وغيرهما ، وأبو حنيفة : لا تحيض ، لأنه لو كانت الحامل تحيض ، وكان ما تراه من الدم حيضا ، لما صح استبراء الأمة بحيض ، وهو إجماع ، فتماسك الحيض علامة على شغل الرحم ، واسترساله علامة على براءة الرحم ، فمحال أن يجتمع مع الشغل ، لأنه لا يكون دليلا على البراءة لو اجتمعا.

٣ ـ وفي هذه الآية دليل أيضا على أن الحامل قد تضع حملها لأقل من تسعة أشهر وأكثر ، وأجمع العلماء على أن أقل الحمل ستة أشهر ، وأن عبد الملك بن مروان ولد لستة أشهر ، وله أمثال كثيرون.

وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة.

واختلف العلماء في أكثر الحمل ، فقال مالك في المشهور عنه ، خمس سنين ، وقال الشافعي وأحمد : أربع سنين ، وقال أبو حنيفة : سنتان. ولا أصل لهذه المسألة إلا الاجتهاد والرد إلى ما عرف من أحوال النساء.

قال ابن العربي : نقل بعض المتساهلين من المالكيين أن أكثر مدة الحمل تسعة أشهر[١].

٤ ـ تخصيص الممكنات بخواص وأوصاف معينة دليل على كمال القدرة الإلهية ، والدليل : ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدارٍ﴾ أي بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه ، فكلمة بمقدار تعني عدم النقصان والزيادة ، وقال قتادة : في الرزق والأجل ، والمقدار : القدر ، ويقال : ﴿بِمِقْدارٍ﴾ : قدر خروج الولد من بطن أمه ، وقدر مكثه في بطنها إلى خروجه. قال القرطبي : وعموم الآية يتناول كل ذلك.

٥ ـ الله عالم الغيب والشهادة ، أي هو عالم بما غاب عن الخلق وبما شاهدوه ، فالغيب : مصدر بمعنى الغائب ، والشهادة : مصدر بمعنى الشاهد. وهذا تنبيه على انفراده تعالى بعلم الغيب ، والإحاطة بالباطن الذي يخفى على الخلق ، فلا يجوز أن يشاركه في ذلك أحد.

والله سبحانه الكبير أي الذي كل شيء دونه ، المتعال عما يقول المشركون ، المستعلي على كل شيء بقدرته وقهره.

والله تعالى يعلم ما أسرّه الإنسان من خير وشر ، كما يعلم ما جهر به من خير وشر ، ويستوي في علم الله المستخفي بالليل والسارب بالنهار ، أي يستوي في علم الله السرّ والجهر ، والظاهر في الطرقات ، والمستخفي في الظلمات.

٦ ـ للإنسان بتخصيص الله ملائكة أربعة في الليل ، وأربعة في النهار ، حافظان وكاتبان ، وهي تتعاقب عليه ليلا ونهارا ، وتتعقب أعماله وتتبعها

---

(١) أحكام القرآن : ٣ / ١٠٩٧

بالحفظ والكتابة. قال الحسن البصري : المعقبات أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر.

والمراد من قوله ﴿مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي بأمر الله وبإذنه ، وتكون ﴿مِنْ﴾ بمعنى الباء ، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض. وقال الفرّاء : في الكلام تقديم وتأخير ، تقديره : له معقبات من أمر الله ، من بين يديه ومن خلفه يحفظونه.

وفائدة جعل الملائكة موكلين علينا بالحفظ : أنها تدعونا إلى الخيرات والطاعات ، وليكون الإنسان حذرا من المعاصي.

وفائدة كتابة أعمال العباد : قال المتكلمون : الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى ، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة ، وإن كان بالضد فبالضد.

٧ ـ لا يغير الله ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، إما منهم أو من الناظر لهم ، أو ممن هو منهم بسبب ، كما غيّر الله بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة بأنفسهم.

والمراد بالآية عند المفسرين : أنه تعالى لا يغير ما بالناس من النعم بإنزال الانتقال إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد [١].

وهذا المعنى موجّه للجماعة ، أما الفرد فقد يتعرض للمصائب بذنوب الغير ، ولا يشترط أن يتقدم منه ذنب ، كما قال ﷺ ، وقد سئل : أنهلك وفينا الصالحون؟ قال فيما رواه البخاري في المناقب : «نعم إذا كثر الخبث» أي الفسق والفجور. وقال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٨ / ٢٥].

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٢٢

٨ ـ إذا أراد الله بالناس بلاء من أمراض وأسقام ، فلا مرد لبلائه وقيل : إن معنى الآية : إذا أراد الله بقوم سوءا ، أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاء ويعملوه ، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم ، حتى يبحث أحدهم عن حتفه بكفه ، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمه. ولا ملجأ ولا ناصر لأحد من مراد الله وعذابه.

والأولى تفسير الآية بأنه ليس للبشرية من يلي أمورها غير الله ، الذي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، أما الآلهة المزعومة من أصنام وأوثان ونحوها فلا تستطيع أو تفعل شيئا ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٣].

مظاهر ألوهية الله وربوبيته وقدرته

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ (١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلاَّ كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ لِيَبْلُغَ فاهُ وَما هُوَ بِبالِغِهِ وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ (١٥)﴾

الإعراب :

﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ مفعولان لأجله بتقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع ، أو حال من البرق أو من المخاطبين أي خائفين وطامعين.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ الَّذِينَ﴾ : اسم موصول ، و ﴿يَدْعُونَ﴾ : صلته ، وعائده محذوف أي يدعونهم ، كما حذف من قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٩٤] أي تدعونهم. ﴿كَباسِطِ كَفَّيْهِ﴾ الكاف : متعلقة بصفة مصدر محذوف ، أي الاستجابة كاستجابة باسط كفيه ، ويكون على هذا التقدير حرفا فيه ضمير انتقل إليه من : كائنة. ويجوز أن يجعل الكاف اسما ، أي الاستجابة مثل استجابة باسط كفّيه ، ولا يكون في الكاف ضمير. ويجوز الاستثناء من الفعل المصدر والظرف والحال. ولام ﴿لِيَبْلُغَ فاهُ﴾ متعلقة بباسط.

البلاغة :

يوجد طباق بين ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ وبين ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾.

﴿إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ ..﴾ تشبيه تمثيلي ، شبه حال الكافرين في دعاء الأصنام بمن أراد أن يغترف الماء ليشربه بكف مبسوط. أو شبه عدم استجابة الأصنام لمن يدعونها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بعيد.

المفردات اللغوية :

﴿الْبَرْقَ﴾ شرارة ضوئية تظهر في السماء بسبب تصادم الأجرام السماوية ﴿خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي من أجل الإخافة من الصواعق ، والطمع في المطر ، وفيها مضاف محذوف ، أي إرادة خوف وطمع ، أو إخافة وإطماعا ، أو حال أي خائفين طامعين ، وإطلاق المصدر بمعنى المفعول أو الفاعل للمبالغة. ومعنى الخوف والطمع : أن وقوع الصواعق يخاف عند لمع البرق ، ويطمع في الغيث.

﴿السَّحابَ﴾ الغيم المنسحب في الهواء ﴿الثِّقالَ﴾ بالمطر ، وهو جمع ثقيلة ، وإنما وصف به السحاب ، لأنه اسم جنس في معنى الجمع ﴿الرَّعْدُ﴾ الصوت المسموع خلال السحاب بسبب احتكاك الأجرام السماوية ، أي أنه ينشأ عن احتراق الهواء بالشرارة ظهور البرق ، الذي يحدث من تصادم سحابتين مختلفتي الشحنة الكهربائية ، ثم ينشأ عن تفريغ جزء من الهواء الذي يحدثه البرق احتكاك الهواء الذي يطرده البرق وظهور الرعد.

﴿الصَّواعِقَ﴾ جمع صاعقة وهي التي تحدث بسبب الاحتكاك الكهربائي بين كهربة السحب

وكهربة الأرض عند تقارب السحب من الأرض ، فتنشأ عنه صاعقة تحرق ما تقع عليه ﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ﴾ أي الكفار يخاصمون النبي ﷺ في الله تعالى ، والجدل : شدة الخصومة ﴿الْمِحالِ﴾ القوة أو الأخذ للأعداء.

﴿لَهُ﴾ تعالى ﴿دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ أي كلمته وهي لا إله إلا الله أو الدعاء الحق ، فإنه الذي يحق أن يعبد ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ يعبدون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ من غيره وهم الأصنام ﴿لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ مما يطلبونه ﴿إِلَّا كَباسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْماءِ﴾ أي إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء على حافة البئر ، يطلب منه أن يبلغه ، ليبلغ فاه بارتفاعه من البئر إليه ﴿وَما هُوَ بِبالِغِهِ﴾ أي بالغ فاه أبدا ، فكذلك ما هم بمستجيبين لهم ﴿وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ﴾ أي عبادتهم الأصنام أو حقيقة الدعاء ﴿إِلَّا فِي ضَلالٍ﴾ ضياع وخسار وبطلان.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ يحتمل أن يكون السجود على حقيقته ، فإنه يسجد له الملائكة والمؤمنون من الثقلين (الإنس والجن) طوعا حالتي الشدة والرخاء ، ويسجد له الكفار كرها حالة الشدة والضرورة. والمنافقون من الكفار ، إذ يسجدون كرها. ويحتمل أن يكون المراد : ينقادون لإحداث ما أراده الله فيهم من أفعاله ، شاؤوا أو أبوا ، لا يقدرون أن يمتنعوا عليه.

﴿وَظِلالُهُمْ﴾ جمع ظل وهو الخيال المقابل للشمس الذي يظهر للشيء المادي القائم أي ويسجد ظلالهم ، أو تنقاد أيضا حيث تخضع لمشيئة الله في الامتداد والتقلص والفيء والزوال ﴿بِالْغُدُوِّ﴾ جمع غداة : وهي أول النهار ﴿وَالْآصالِ﴾ جمع أصيل : وهو ما بعد العصر إلى المغرب.

سبب النزول :

نزول الآية (١٣):

﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ﴾ : ذكر الرواة سببين لنزول هذه الآية ، أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس : أن أربد بن قيس وعامر بن الطّفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ فقال عامر : يا محمد : ما تجعل إليّ إن أسلمت؟ قال : لك ما للمسلمين ، وعليك ما عليهم ، قال : أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال : ليس ذلك لك ولا لقومك ، فخرجا ، فقال عامر : إني أشغل عنك وجه محمد بالحديث ، فاضربه بالسيف ، فرجعا ، فقال عامر : يا محمد ، قم معي أكلمك ، فقام معه ، ووقف يكلمه ، وسلّ (أربد) السيف ، فلما وضع يده على قائم

السيف ، يبست ، والتفت رسول الله ﷺ ، فرآه ، فانصرف عنهما ، فخرجا ، حتى إذا كانا بالرّقم (موضع) أرسل الله على أربد صاعقة ، فقتلته ، فأنزل الله : ﴿اللهُ يَعْلَمُ ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثى﴾ إلى قوله ﴿شَدِيدُ الْمِحالِ﴾. وأما عامر فأرسل الطاعون عليه ، فخرجت فيه غدّة كغدة الجمل ، ومات في بيت سلولية.

وذكر الواحدي ما رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده والنسائي والبزار عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ بعث رجلا مرّة إلى رجل من فراعنة العرب ، فقال : اذهب فادعه لي ، فقال : يا رسول الله ، إنه أعتى من ذلك ، قال : اذهب فادعه لي ، قال : فذهب إليه ، فقال : يدعوك رسول الله ، قال : وما الله ، أمن ذهب هو ، أو من فضة أو من نحاس؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره ، وقال : وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك ، فقال : ارجع إليه الثانية فادعه ، فرجع إليه ، فعاد عليه مثل الكلام الأول ، فرجع إلى النبي ﷺ فأخبره ، فقال : ارجع إليه ، فرجع الثالثة ، فأعاد عليه ذلك الكلام ، فبينا هو يكلمني ، إذ بعثت إليه سحابة حيال رأسه ، فرعدت ، فوقعت منها صاعقة ، فذهبت بقحف رأسه ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَيُرْسِلُ الصَّواعِقَ ، فَيُصِيبُ بِها مَنْ يَشاءُ ، وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحالِ﴾[1].

المناسبة :

بعد أن خوّف الله تعالى عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا مردّ له ، أتبعه بهذه الآيات المشتملة على أمور ثلاثة ، فهي دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته ، وتشبه النعم والإحسان حينا ، وتشبه العذاب والقهر والنقمة حينا آخر.

---

(١) أسباب النزول للواحدي ١٥٦ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٠٥ ، تفسير القرطبي : ٩ / ٢٩٦ ـ ٢٩٨ الكشاف : ٢ / ١٦٢

التفسير والبيان :

الله تعالى هو الذي يسخر البرق : وهو ما يرى من النور اللامع ساطعا من خلال السحاب ، بسبب تقارب سحابتين مختلفتين في الشحنة الكهربائية ، ويريكم إياه تخويفا ، فيخاف منه المسافر والمزارع الذي جمع حبوبه في البيدر (الجرين) ويحذر عواقبه كل إنسان من خطف البصر ، أو مجيء السيول الجارفة ، وطمعا ، أي يرجو نفع المطر من كان بحاجة إليه لسقي زرعه وشجره وغسل الجو من الأتربة والرمال والدخان والميكروبات. فالناس في الظواهر العامة قسمان : إما فرح طامع بالخير بالنسبة إليه ، وإما متشائم متبرم عابس لما يصيبه من شر أو ضر بالنسبة إليه.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ﴾ أي والله سبحانه هو الذي يوجد السحب المحملة المترعة بالماء ، وهي لكثرة مائها ثقلية قريبة إلى الأرض. قال مجاهد :السحاب الثقال : الذي فيه الماء.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ أي أن الرعد بلسان الحال لا بلسان المقال ينزه الخالق عن الشريك والعجز ، ويعلن خضوعه له ، وانقياده لقدرته وحكمته ، كما قال تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ، وَلكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء ١٧ / ٤٤].

وتسبح الملائكة ربهم وتنزهه عن الصاحبة والولد ، من هيبته وإجلاله.

ويرسل الله الصواعق نقمة ، ينتقم بها ممن يشاء ، ولهذا تكثر في آخر الزمان ، روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال : «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة ، حتى يأتي الرجل القوم ، فيقول : من صعق قبلكم الغداة ، فيقولون : صعق فلان وفلان وفلان».

وكل من الرعد والبرق إما بشير خير أو نذير شر ، لذا أمرنا النبي ﷺ بالدعاء حين رؤيتهما ، روى البخاري وأحمد عن سالم عن أبيه قال : كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال : «اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك».

ويسن عند رؤية البرق والرعد أن يقول : ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً ، وَيُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقالَ ، وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ روى مالك في موطئه عن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ، ترك الحديث ، وقال : «سبحان الذي يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته». وروى أحمد عن أبي هريرة أنه كان إذا سمع الرعد قال : «سبحان من يسبح الرعد بحمده». وروى أبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تأخذ الصاعقة ذاكرا الله عَزَّوَجَلَّ ». وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : كان النبي ﷺ إذا سمع صوت الرعد يقول : «سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، وهو على كل شيء قدير فإن أصابته صاعقة ، فعليّ ديته».

﴿وَهُمْ يُجادِلُونَ فِي اللهِ﴾ وبالرغم من هذه الأدلة الدالة على قدرة الله وألوهيته ، يجادل الكفار ويشكون في عظمة الله تعالى وأنه لا إله إلا هو ، قال مجاهد : جادل يهودي النبيﷺ ، وسأله عن الله تعالى : من أي شيء هو؟

وهو سبحانه شديد المحال أي شديد القوة والأخذ ، والمماحلة : وهي شدة المماكرة والمكايدة لأعدائه ، فيدبر لهم الحيلة لإنزال العقاب الشديد بهم من حيث لا يشعرون ، يقال : تمحل لكذا : إذا تكلف استعمال الحيلة ، واجتهد فيه.

وهو القادر على إنزال العذاب من فوقكم ومن تحت أرجلكم : ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل ٢٧ / ٥١] ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود ١١ / ١٠٢].

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ ، فإنهم لم يقتصروا على إنكار نبوته ، بل تجاوزوا ذلك إلى إنكار الألوهية.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ أي لله تعالى دعوة الصدق والدعاء والتضرع ، لا لغيره من الأصنام والأوثان والملائكة والبشر الذين اتخذوا آلهة. وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما : دعوة الحق : كلمة التوحيد : لا إله إلا الله ، أي لله من خلقه أن يوحّدوه ويخلصوا له.

وذكر في الكشاف وجهان للآية : الأول . إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل ، أي أن دعوة الإسلام دعوة الحق المختصة به. والثاني . إضافة الدعوة إلى الحق الذي هو الله عز وعلا أي أن الدعاء لله الحق الذي يسمع فيجيب [١].

وهذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم رسول الله ﷺ في شأن الوعيد بالعقاب الذي هددهم به. قال أبو حيان عن ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِ﴾ : والذي يظهر أن هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، كقوله : ﴿وَلَدارُ الْآخِرَةِ﴾ والتقدير : لله الدعوة الحق ، بخلاف غيره ، فإن دعوتهم باطلة ، والمعنى أن الله تعالى ، الدعوة له هي الدعوة الحق ، وهو رد على الكفار في إثبات آلهة مع الله ، فمن يدعو الله فدعوته هي الحق ، بخلاف أصنامهم التي جادلوا في الله لأجلها ، فإن دعاءها باطل لا يتحصل منه شيء ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ..﴾ أي إن الذين يدعون من دون الله الأصنام

---

(١) الكشاف : ٢ / ١٦٢ قال أبو حيان : وهذا الوجه الثاني الذي ذكره الزمخشري لا يظهر ؛ لأن مآله إلى تقدير : الله دعوة الله وهذا التركيب لا يصح.

البحر المحيط : ٥ / ٣٧٦

والأوثان والمعبودات الباطلة وهم المشركون ، لا يجيبونهم إطلاقا ، ولا يستجيبون لهم دعاء ، ولا يسمعون لهم نداء ، ولا يحققون لهم نفعا ولا يدفعون عنهم ضرا ، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد ، طالبا وصوله إلى فمه ، وهو عطشان ، والماء جماد لا يعقل دعاء ، ولا يلبي نداء ، ولا يشعر به. ويلاحظ ما عليه هذا التشبيه من واقعية ومن بسط الكفين كما يبسطها الداعي إلى الله.

فهذا مثل ضربه الله ليأس عبدة غير الله من الإجابة لدعائهم ، لتنبيه عقولهم وحواسهم ، والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض الماء باليد. قال الشاعر :

فأصبحت فيما كان بيني وبينها* من الودّ مثل القابض الماء باليد ﴿**وَما دُعاءُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ**﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في خسار وضياع وبطلان ، فإن دعاءهم لهم غير مجاب ، كما أن دعاءهم الله غير مجاب أيضا.

ثم بين الله تعالى كمال قدرته وعظمته وسلطانه فقال : ﴿**وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ..**﴾ أي ولله يخضع وينقاد كل شيء طوعا من المؤمنين والملائكة في حالي الشدة والرخاء ، وكرها من الكافرين في حال الشدة ، بل كل شيء من مخلوقات الكون من إنسان وحيوان ونبات وجماد خاضع منقاد للخالق الذي خلقهم وأوجدهم. وكذلك تسجد لله وتخضع ظلال كل من له ظل مما ذكر في الصباح الباكر وفي آخر النهار ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص ، أو لإرادة الدوام ، كما هو الشأن في استعمالات العرب. والسجود لله دال على الربوبية ، فلا يستحق العبادة سوى الله تعالى.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى ما يلي :

١ ـ بيان كمال قدرة الله تعالى ، وأن تأخير العقوبة عن العصاة ليس عن عجز ، وكل ما ذكر في الآية من البرق والسحاب والرعد والصواعق دلائل ملموسة على قدرة الله عَزَّوَجَلَّ ، وأنه شديد القوة والأخذ ، والمحال أو المماحلة : وهي المماكرة والمغالبة.

فحدوث البرق مثلا دليل عجيب على قدرة الله تعالى : لأن السحاب مركب من أجزاء رطبة مائية ، ومن أجزاء هوائية ونارية ، والغالب عليه الأجزاء المائية ، والماء جسم بارد رطب ، والنار جسم حار يابس ، فتغليب النار على الماء المتضادين ، لا بد له من صانع مختار ، يظهر الضد من الضد.

والأجزاء المائية من السحاب ، سواء قيل : إنها حدثت في جو الهواء أو تصاعدت من أبخرة البحار ، لا بد أن يكون حدوثها بإحداث حكيم قادر محدث.

وصوت الرعد المرعب بسبب تصادم كتل الهواء نتيجة تفريع جزء منه بالبرق دليل آخر على القدرة الإلهية.

والصواعق المخيفة المدمرة المتولدة من السحاب والتي تحدث بسبب احتكاك كهربة السحب بكهربة الأرض برهان واضح على الألوهية ، ووجود موجود متعال عن النقص والإمكان.

٢ ـ كل شيء في الوجود من إنسان وحيوان ونبات وجماد وجنّ وملائكة يسبح بحمده ، فالرعد يسبح بحمد الله ، والملائكة تسبح أيضا بحمد الله من هيبته وإجلاله ، والتسبيح : التنزيه عن الشريك والوالد والولد والصاحبة ، والتقديس لله تعالى ، ولكن الناس لا يفقهون تسبيح من سواهم.

٣ ـ هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل الدالة على كمال قدرة الله ، يجادلون في الله ، ويشككون في وجوده وألوهيته ، والله شديد القوة والأخذ ، والعقاب ، ومغالبة هؤلاء المشككين المجادلين بالباطل.

٤ ـ لله الدعوة الحق ، فمن يدعوه فدعوته هي الحق ، أما دعاء الأصنام وأمثالها من الآلهة المزعومة دون الله فهو باطل لا يفيد شيئا.

٥ ـ الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله لا يحققون لأحد مطلبا ، وما استجابتهم إلا كاستجابة الماء لباسط كفيه إلى الماء ، والماء جماد لا يشعر بأحد ولا بحاجته إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاء داعيه ، فكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ، ولا يستطيع إجابتهم ، ولا يقدر على نفعهم.

٦ ـ دل قوله : ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ ..﴾ على أنه يجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد لله إما طوعا أو كرها ، فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول ، أو أن كل من السموات والأرض يعترفون بعبودية الله تعالى ، على ما قال : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، لَيَقُولُنَّ : اللهُ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٥].

وقيل : إن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع ، وكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى ؛ لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل.

٧ ـ دل قوله : ﴿وَظِلالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصالِ﴾ على أن كل شخص ، سواء كان مؤمنا أو كافرا ، فإن ظله يسجد لله. قال مجاهد : ظل المؤمن يسجد لله طوعا ، وهو طائع ، وظل الكافر يسجد لله كرها ، وهو كاره. وقيل : إن المراد من سجود الظلال أي ظلال الخلق : ميلانها من جانب إلى جانب ، وتختلف طولا وقصرا بسبب انحطاط الشمس وارتفاعها ، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب. وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر ؛ لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

وحدانية الله

ومثل المؤمن والمشرك تجاه الوحدانية

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)﴾

لبلاغة :

﴿قُلِ : اللهُ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي الله خالق السموات والأرض.

﴿الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ و ﴿الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾ فيهما طباق.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾ فيهما استعارتان ، استعار لفظ الأعمى للمشرك ، والبصير للمؤمن ، واستعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ الهمزة للإنكار ، أي بل جعلوا.

المفردات اللغوية :

﴿قُلْ﴾ يا محمد لقومك ﴿مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي خالقهما ومتولي أمرهما ﴿قُلِ : اللهُ﴾ إن لم يجيبوا فلا جواب غير أن تقول : الله الخالق ؛ إذ لا جواب لهم سواه ، ولأنه الجواب البين الذي لا يمكن المراء فيه ، أو أنه لقنهم الجواب ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ أي كيف اتخذتم من غيره أصناما تعبدونها؟ والمراد أنه ألزمهم بذلك أن اتخاذهم منكر بعيد على مقتضى العقل ، والاستفهام للتوبيخ ﴿لا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلا ضَرًّا﴾ لا يقدرون على جلب نفع إليها أو دفع ضر عنها ، فكيف يستطيعون إنفاع الغير ودفع الضر عنه؟ وكيف تركتم مالك السموات والأرض؟ وهو دليل ثان على ضلالهم وفساد رأيهم في اتخاذهم أولياء ، رجاء أن يشفعوا لهم.

﴿هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ﴾ الكافر الجاهل ، والمؤمن العالم العاقل ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُماتُ وَالنُّورُ﴾ الكفر والإيمان؟ لا.

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ بل أجعلوا ، والهمزة للإنكار ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفة لشركاء داخلة في حكم الإنكار ﴿فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي خلق الله بخلق الشركاء ، أي ما اتخذوا لله شركاء خالقين مثله ، حق يتشابه عليهم الخلق ، فيقولوا : هؤلاء خلقوا كما خلق الله ، فاستحقوا العبادة كما استحقها ، ولكنهم اتخذوا شركاء عاجزين لا يقدرون على ما يقدر عليه الناس ، فضلا عما يقدر عليه الخالق.

وهو استفهام إنكاري ، أي ليس الأمر كذلك ، ولا يستحق العبادة إلا الخالق ﴿قُلِ: اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي لا خالق غيره ، فيشاركه في العبادة ، فهو لا شريك له في الخلق ، فلا شريك له في العبادة ، أي أنه جعل الخلق يستوجب العبادة ويلزم منه ذلك ، ثم نفاه عما سواه ليتوصل إلى الآتي وهو قوله : ﴿وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي هو المتوحد بالألوهية ، الغالب على كل شيء.

المناسبة :

بعد أن بيَّن الله تعالى أن كل من في السموات والأرض ساجد له ، خاضع لقدرته وعظمته ، عاد إلى الرد على عبدة الأصنام ، لإثبات الوحدانية ، وحدانية الألوهية ووحدانية الربوبية ، حتى لا يجدوا مناصا من الاعتراف بها.

التفسير والبيان :

قل للمشركين أيها الرسول : من خالق السموات والأرض؟ ثم أجب عنهم الجواب المتعين الذي لا مناص منه ، وهو الذي يقرون به ؛ لأنهم كانوا يقرون بأن الله هو الخالق كما قال تعالى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ : مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٥] وقل لهم إذن : الله خالقهما وربهما ومدبرهما.

قال الزمخشري : وقوله : ﴿قُلِ : اللهُ﴾ حكاية لاعترافهم وتأكيد له عليهم ؛ لأنه إذا قال لهم : من رب السموات والأرض؟ لم يكن لهم بد من أن يقولوا : الله.

ثم قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات

هي جمادات ، وإذا كنتم مقرين بوجود الله ، فما بالكم اتخذتم من دونه نصراء عاجزين وأولياء تعبدونهم ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا؟!

وإذا كانت تلك الآلهة لا تملك لنفسها النفع والضر ، فهي لا تملك لعابديها بطريق الأولى نفعا ولا ضرا. فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ، ومن عبد الله وحده لا شريك له ، فهو على نور من ربه؟ لهذا قال : ﴿قُلْ : هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ ..﴾.

أي قل لهم مبينا لهم سوء اعتقادهم : هل يتساوى الأعمى الذي لا يبصر شيئا ، والبصير الذي يدرك الحق ويهدي الأعمى إليه؟ أم هل تتساوى الظلمات والنور؟ جمع الظلمات وأفرد النور ؛ لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل والكفر متعددة.

والمراد : هل يمكن لأحد الحكم بتساوي الكافر والمؤمن ، وتساوي الكفر والإيمان ، فالكافر كالأعمى ، والكفر كالظلمات ، والمؤمن كالبصير ، والإيمان كالنور؟

﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ بل جعلوا أي جعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق ، وحينئذ تشابه خلق الشركاء بخلق الله عندهم ، فحينما جعلوا لله شركاء موصوفين بالخلق مثل خلق الله ، تشابه ذلك عليهم ، فيعبدونهم ، مع أنهم لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، فكيف يشركون في العبادة ، أفمن يخلق كمن لا يخلق؟! وهذا بمعنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج ٢٢ / ٧٣].

والمراد : ليس الأمر على هذا النحو ، فإنه تعالى لا يشابهه شيء ، ولا يماثله شيء ، ولا ندّ له ، ولا وزير له ، ولا ولد له ولا صاحبة ، وهؤلاء المشركون عبدوا آلهة ، وهم معترفون أنها مخلوقة لله ، وهم عبيد له ، كما صرحوا في تلبيتهم :

«لبيك لا شريك لك إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك» وكما أخبر القرآن عنهم : ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللهِ زُلْفى﴾ [الزّمر ٣٩ / ٣]. وتضمن هذا الاستفهام التعجب منهم والإنكار عليهم والتهكم بهم.

وبعد أن ناقشهم تعالى في فساد اعتقادهم ، وأبان عدم وجود المسوغات لاتخاذ غير الله إلها معه ، لعجزه وضعفه ، قرر الحكم النهائي بقوله : ﴿قُلِ : اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ..﴾ أي قل لهم يا محمد مبينا وجه الحق : الله خالق كل شيء ، خالقكم وخالق أصنامكم وخالق جميع المخلوقات ، فإذا فكرتم تفكيرا سويا وجدتم أن الله هو المتفرد بالخلق والإيجاد وهو المتوحد بالألوهية ، المستحق للعبادة وحده ، الغالب على كل شيء ، فكيف تعبدون أصناما لا تنفع ولا تضر؟!

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآية على ما يأتي :

١ ـ تثبيت الحقيقة الأبدية الخالدة وهي أن الله تعالى وحده هو خالق السموات والأرض وجميع مخلوقات الكون.

ومن له صفة الخلق والإيجاد هو المستحق للعبادة والتقديس.

٢ ـ دل قوله : ﴿قُلْ : أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِياءَ﴾ على اعترافهم بأن الله هو الخالق ، وهو معنى آية أخرى : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ : اللهُ﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٦١] أي فإذا اعترفتم بأن الله هو الخالق فلم تعبدون غيره؟ وذلك الغير لا ينفع ولا يضر ، وهو إلزام صحيح بالحجة القاطعة التي لا مجال لردها أو الطعن فيها.

٣ ـ ضرب الله مثلا للمشركين بالأعمى للكافر والبصير للمؤمن ، وإذا كان مسلّما لدى كل البشر ألا يستوي الأعمى والبصير ، فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر الحق والمشرك الذي لا يبصر الحق.

ثم ضرب الله تعالى مثلا للشرك والإيمان بالظلمات والنور.

٤ ـ طمس الله على عقول المشركين ، فلم يقتنعوا بما سبق ، بل جعلوا لله شركاء فاقدة أهم مقومات الألوهية وهو الخلق والإبداع ، فهي عاجزة عن خلق أي شيء ، فلا يمكن بعدئذ أن تنافس مخلوقات الله ، ولو كان للعالم صانعان لاشتبه الخلق ، ولم يتميز فعل هذا عن فعل ذلك ، فبم يعلم أن الفعل من اثنين؟! والمشركون حينما اتخذوا آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله ، التبس الأمر عليهم ، فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم. وهو تهكم بهم ، فإنهم في الحقيقة يرون كل شيء من خلق الله ، وأن هذه الآلهة لم تخلق شيئا ، ومع هذا فإنهم يعبدونها من دون الله.

٥ ـ الله خالق كل شيء ، فلزم لذلك أن يعبده كل شيء. والآية رد على المشركين والقدرية الذين زعموا أنهم خلقوا كما خلق الله. والله تعالى هو الواحد قبل كل شيء ، والقهار الغالب لكل شيء ، الذي يغلب في مراده كل مريد ، فكيف يصح بعد هذا القول بشريك لله؟!

٦ ـ استدل أهل السنة بهذه الآية على خلق الأفعال ، أي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى ، وأن العبد لا يخلق فعل نفسه ؛ لأن فعله شيء والله خالق كل شيء ، وإنما يحصل منه الكسب والتوجيه واختيار ما خلق الله له.

أما المعتزلة فقالوا : إن العبد يفعل ويحدث ، ولا نقول : إنه يخلق كخلق الله تعالى ، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة ، والله تعالى منزه عن ذلك كله ، فلا يلزمهم أنهم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه.

وقال المجبرة : عين ما هو خلق الله تعالى هو كسب العبد وفعل له. وهذا عين الشرك ؛ لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين ، وكل شريك له حق في فعل الآخر.

مثل الحق والباطل ومآل السعداء والأشقياء

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ (١٩)﴾

الإعراب :

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ جار ومجرور ، في موضع نصب على الحال من الضمير المجرور في ﴿عَلَيْهِ﴾ وتقديره : ومما يوقدون عليه كائنا أو مستقرا في النار.

﴿ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال من ضمير ﴿يُوقِدُونَ﴾. ولا يجوز أن يكون ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلقا بيوقدون ؛ لأنهم لا يوقدون في النار ، وإنما يوقدون على الذهب ، كائنا في النار.

﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ مبتدأ ، و ﴿مِثْلُهُ﴾ : صفة له ، وخبره إما ﴿يُوقِدُونَ﴾ أو ﴿فِي النَّارِ﴾.

﴿جُفاءً﴾ حال من ضمير ﴿فَيَذْهَبُ﴾ عائد على الزبد ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنى﴾ مبتدأ مؤخر وخبر مقدم ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ مبتدأ ، خبره : ﴿لَوْ أَنَّ ..﴾.

البلاغة :

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ..﴾ تشبيه تمثيلي ، وجه الشبه منتزع من متعدد ، شبّه فيه الحق بالماء المستقر على الأرض ، وبالجوهر الصافي من المعادن ، وشبّه الباطل برغوة الماء وخبث المعدن الطافي عليه لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل.

﴿فَسالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها﴾ أي فسالت مياه الأودية ، فهو مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه.

﴿يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي أمثال الحق وأمثال الباطل.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا .. وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ بينهما طباق السلب.

﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ شبه الكافر الجاهل بالأعمى على سبيل الاستعارة.

المفردات اللغوية :

﴿مِنَ السَّماءِ ماءً﴾ مطرا من السحاب أو من جانب السماء ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ أنهار ، جمع واد : وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء بكثرة ، ثم استعمل للماء الجاري فيه ، وتنكيرها ؛ لإتيان المطر على التناوب بين البقاع ﴿بِقَدَرِها﴾ بمقدارها الذي علم الله تعالى أنه نافع ، أو بمقدار مثلها في الصغر والكبر ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً﴾ رفعه ، والزبد : ما يعلو وجه الماء من رغوة وقذر ونحوه ﴿رابِياً﴾ عاليا عليه مرتفعا فوقه ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ من جواهر الأرض وفلزاتها كالذهب والفضة والنحاس والحديد ومن : للابتداء ، أو للتبعيض ، والضمير للناس ، وإضماره للعلم به ﴿ابْتِغاءَ حِلْيَةٍ﴾ طلب زينة ﴿أَوْ مَتاعٍ﴾ ينتفع به كالأواني إذا أذيبت ، وآلات الحرب والحرث ، والمقصود من ذلك بيان منافعها ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي مثل زبد السيل ، وهو خبثه وهو الذي ينفيه الكير ﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ﴾ أي المذكور مثل الحق والباطل وأهل كل.

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ﴾ من السيل وما أوقد عليه من المعادن ﴿فَيَذْهَبُ جُفاءً﴾ يزول باطلا مرميا به ، فالجفاء : ما يرميه الوادي من الزبد إلى جوانبه ﴿وَأَمَّا ما يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ من الماء والمعادن ﴿فَيَمْكُثُ﴾ يبقى وينتفع به أهلها ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ زمانا ، كذلك الباطل يضمحل وينمحق ، وإن علا على الحق في بعض الأوقات ، والحق ثابت باق ، أي أن الحق في إفادته وثباته كالماء النافع الذي يستقر في الأرض ، وكالمعدن الذي ينتفع به في صوغ الحلي واتخاذ الأمتعة المختلفة ويدوم ذلك مدة متطاولة ، والباطل في قلة نفعه وسرعة زواله كزبد الماء أو غثائه ورغوته ، وخبث المعدن وشوائبه ﴿كَذلِكَ﴾ المذكور ﴿يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ يبين ، لإيضاح المشتبهات.

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا لِرَبِّهِمُ﴾ أطاعوه ، أي للمؤمنين الذين استجابوا بالطاعة لله ، واللام متعلقة

بيضرب ﴿الْحُسْنى﴾ الجنة ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ وهم الكفار ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ من العذاب ﴿أُولئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسابِ﴾ المؤاخذ بكل ما عملوه ، لا يغفر منه شيء ، أو المناقشة في الحساب ، بأن يحاسب الإنسان بذنبه ، لا يغفر منه شيء ﴿وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مرجعهم النار ﴿وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ المستقر والفراش هي ، والمخصوص بالذم محذوف.

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ ..﴾ الهمزة للإنكار ، أي فيؤمن ويستجيب كالحمزة ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمى﴾ عمى القلب لا يؤمن بالنبي ﷺ كأبي جهل ، والمراد لا يستويان ، ولا يتشابهان ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ يتعظ ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى وجود دعوتين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل ، وأن دعوة الله هي دعوة الحق ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل ، ولما شبه تعالى المؤمن والكافر والإيمان والكفر ، بالبصير والأعمى ، والنور والظلمات ، ذكر مثلا آخر للإيمان والكفر ، وأبان مثلا للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، فجعل مثل الحق وأهله في ثباته وبقائه بالماء النازل من السماء فينفع الأرض والناس ، وبالمعدن الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ، وجعل مثل الباطل في اضمحلاله وفنائه وسرعة زواله وانعدام منفعته بزبد السيل الذي يرمي به ، وزبد المعدن الذي يطفو فوقه إذا أذيب.

التفسير والبيان :

اشتملت الآية الأولى على مثلين للحق وهو القرآن أو الإيمان في ثباته وبقائه ونفعه ، والباطل وهو الكفر في اضمحلاله وفنائه ، فقال تعالى : ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ..﴾.

أي أنزل الله تعالى من السحاب مطرا ، فأخذ كل واد بحسبه صغرا وكبرا ، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها في استيعاب الإيمان سعة وضيقا ، فحمل السيل

المتجمع من ذلك المطر زبدا عاليا طافيا فوقه ، وهذا هو المثل الأول للحق والباطل أو الإيمان والكفر.

ثم ذكر تعالى المثل الثاني : ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ ..﴾ أي ومثل الحق أو الإيمان كالمعدن النافع من ذهب أو فضة أو حديد أو نحاس ونحوها الذي يستخلص من التراب والشوائب ، بواسطة السبك في النار ، ليجعل حلية أو آنية أو سلاحا أو متاعا ينتفع به ، ويعلوه الخبث والشوائب الطافية عند الانصهار ، وهو مثل الباطل.

﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْباطِلَ﴾ أي المذكور مثل الحق والباطل إذا اجتمعا ، فالحق في استقراره ونفعه كالماء المستقر النافع والمعدن النقي الصافي ، والباطل في زواله وعدم نفعه كالرغوة التي يقذفها السيل على جوانبه ، وخبث المعدن عند انصهاره ، فالباطل لا دوام له أمام الحق.

ثم ذكر الله تعالى اضمحلال الباطل وذهابه بقوله : ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ ..﴾ أي أن الزبد الطافي فوق الماء يتبدد ويزول ويذهب في جانبي السيل ، ويعلق على حافتيه ، فتنسفه الرياح ، وأما النافع من الماء والمعدن فيبقى مستقرا في الأرض ، أما الماء فنشربه ونسقي به الزرع ، وأما المعدن فنستفيد منه إما بالحلي أو بصناعة الأواني والأسلحة والأمتعة ، كما قال تعالى عن الحديد : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٢٥].

﴿كَذلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ﴾ أي أنه تعالى كما بيّن لكم هذه الأمثال ، فكذلك يضربها بيّنات ، لإيضاح الفوارق بين أصول الاعتقاد الجوهرية من الإيمان والكفر ، والحق والباطل.

والخلاصة : إن القرآن الكريم الذي تجسد فيه الحق ونور الإيمان مثله في إحياء القلوب به مثل الماء الذي يحيي الأرض بعد موتها ، ومثل المعدن النقي

الصافي الذي يحقق منافع كثيرة للناس. وأما الكفر وضلالات الشرك وباطل اعتقاد المشركين ، فهو عديم النفع سريع الزوال ، يتبدد فورا ، فهو كرغوة الماء وغثاء السيل الذي يضمحل وتعصف به الرياح ، وخبث المعدن الذي يستبعد ويلقى جانبا.

وما ضرب هذا المثل الرائع إلا لخير الإنسان ، الذي عليه أن يقدر مآل أمره ، وما ينتظره من سعادة وشقاوة في المعاد ، فإذا كان يوم القيامة وعرض الناس وأعمالهم على ربهم ، فيزيغ الباطل ويتلاشى ، وينتفع أهل الحق بالحق.

وقد ضرب الله تعالى في أول سورة البقرة للمنافقين مثلين من النار والماء ، فقال تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ ناراً ، فَلَمَّا أَضاءَتْ ما حَوْلَهُ ..﴾ [١٧] ثم قال : ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُماتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [١٩].

وضرب سبحانه للكافرين في سورة النور مثلين ، فقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ﴾ [٣٩] والسراب يكون في شدة الحر ، ثم قال : ﴿أَوْ كَظُلُماتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ ..﴾ [٤٠].

وجاء في السنة أمثال مشابهة ، فشبّه النبي ﷺ أحوال المنتفعين بسنته بأحوال أراض ثلاث سقط عليها الماء ، ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ، فنفع الله بها الناس ، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان ، لأتمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به ، فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» وهذا مثل مائي يشبه المثل الذي ضربه الله تعالى للمنافقين.

وروى الإمام أحمد والشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : «مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش وهذه الدواب التي يقعن في النار ، يقعن فيها ، وجعل يحجزهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فذلك مثلي ومثلكم أنا آخذ بحجزكم عن النار ، هلّم عن النار ، فتغلبوني ، فتقتحمون فيها» وهذا مثل ناري أبان فيه النبي ﷺ حرصه على إبعاد أمته من النار ، وتساقط بعضهم فيها كتساقط الفراش ، وهو كالمثل الذي ضربه الله للمنافقين.

ثم أبان الله تعالى مستأنفا الكلام مصير أهل الحق وأهل الباطل ، ومآل السعداء والأشقياء ، ترغيبا وترهيبا ، فقال : ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجابُوا ..﴾ أي الجنة للذين أطاعوا الله ورسوله ، وانقادوا لأوامره ، وصدقوا أخباره الماضية والآتية ، فلهم الجزاء الحسن ونعيم الجنة والثواب العظيم ، كما قال تعالى : ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ﴾ [يونس ١٠ / ٢٦] وقال : ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى ، وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾ [الكهف ١٨ / ٨٨].

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا ..﴾ أي والذين لم يطيعوا الله ورسوله ، لا ينفعهم في الآخرة الفداء بجميع ما في الدنيا وضعف ما فيها ، أي لا يمكنهم في الدار الآخرة أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ، ومثله معه. ولو كان لهم ذلك لافتدوا به ، ولكن لا يتقبل الله منهم ؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا ، أي فداء وتوبة.

أولئك الذين لم يطيعوا الله لهم سوء العذاب في الدار الآخرة ، ويناقشون على كل ما قدموه ، لا يغفر منه شيء ، ومن نوقش الحساب عذب ، ومرجعهم إلى النار وبئس المستقر مستقرهم. وفي هذا تهويل شديد ، وتخويف عظيم ، لغفلتهم من اتباع أوامر ربهم ، وتقربهم إليه ، وانغماسهم في شهواتهم.

ثم نزل في حمزة ﷺ وأبي جهل ، كما ذكر ابن عباس قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ ..﴾ أي لا يستوي من يعلم من الناس أن المنزل إليك يا محمد من ربك هو الحق الذي لا شك فيه ولا لبس فيه ، بل هو كله حق ، فأخباره كلها حق ، وأوامره ونواهيه عدل ، كما قال تعالى : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً﴾ [الأنعام ٦ / ١١٥] أي صدقا في الإخبار ، وعدلا في الطلب ، لا يستوي من صدّق بما جاء به محمد ﷺ ، ومن لم يصدق به ، وكان أعمى لا يستبصر ، ولا يهتدي إلى خير ، ولا يفهمه ، ولو فهمه ، ما انقاد له ولا صدقه ، ولا اتبعه.

إنما الذي ينتفع بهذه الأمثال ويعتبر بها ويتعظ ويعقل هم أولو العقول السليمة ، والأفكار الصحيحة ، والآراء الرشيدة.

ونظير الآية : ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ ، وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

أبانت الآيات أمورا ثلاثة :

١ ـ تشبيه الحق والإيمان بالماء المستقر والمعدن النقي الصافي ، وتشبيه الباطل والكفر بالزبد الذي يعلو الماء ، فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية ، وتنسفه الرياح ، أو تشبيهه بالطافي فوق المعدن المذاب فكذلك الكفر وشبهاته وخيالاته تذهب وتضمحل ، ويبقى الجوهر الصافي من الماء ، والمعدن النقي.

وهذان المثلان اللذان ضربهما الله للحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، يلفتان النظر إلى عواقب الأمور.

وقيل وهو ما يروى عن ابن عباس : المراد تشبيه القرآن وما يدخل منه

القلوب بالمطر ، لعموم خيره وبقاء نفعه ، وشبّه القلوب بالأودية ، يدخل فيها من القرآن مثلما يدخل في الأودية بحسب سعتها وضيقها.

٢ ـ للطائعين أهل السعادة الذين أجابوا إلى ما دعا الله من التوحيد والنبوات الجزاء الحسن ، وهو النصر في الدنيا ، والنعيم المقيم غدا في الآخرة.

وللعصاة أهل الشقاوة الذين لم يجيبوا إلى الإيمان بنبوة محمد ﷺ ، لا يتمكنون من فداء أنفسهم في الآخرة بملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، ولهم سوء العذاب ، فلا يقبل لهم حسنة ، ولا يتجاوز لهم عن سيئة ، ومسكنهم ومقامهم النار ، وبئس الفراش الذي مهدوا لأنفسهم ، فهذه أربعة أنواع من العذاب والعقوبة : عدم قبول الفداء ، والتعرض لسوء الحساب ، ومأواهم جهنم ، وبئس المهاد مهادهم أي بئس المستقر هي.

٣ ـ مثل آخر للمؤمن والكافر ، روي أنه نزل في حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، وأبي جهل خزاه الله ، فالمؤمن بالمنزل من الله على نبيه ، المتحقق بصدقه ، العامل بما بلغه إليه منه هو المستبصر الواعي العاقل ، والكافر هو الجاهل بالدين أعمى القلب ، وأولو العقول هم المتعظون المعتبرون بذلك.

أوصاف أولي الألباب السعداء وجزاؤهم

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها وَمَنْ صَلَحَ

مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾ إما صفة لأولي الألباب ، وإما مبتدأ ، خبره : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾.

﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ مرفوع بالعطف على ضمير ﴿يَدْخُلُونَها﴾ المرفوع ، وحسن العطف لوجود الفصل بضمير المفعول. ويجوز نصبه على أنه مفعول معه. ولا يجوز عطفه بالجر على ﴿لَهُمْ عُقْبَى﴾ لأن العطف على الضمير المجرور إنما يكون بإعادة حرف الجر. وأجاز الكوفيون ذلك من غير إعادة حرف الخفض.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدل من ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ ، أو مبتدأ ، خبره : ﴿يَدْخُلُونَها﴾.

﴿بِما صَبَرْتُمْ﴾ متعلق بعليكم ، أو بمحذوف ، أي هذا بما صبرتم ، ولا يتعلق بسلام ؛ فإن الخبر فاصل ، والباء : للسببية أو البدلية.

البلاغة :

﴿سِرًّا﴾ و ﴿عَلانِيَةً﴾ و ﴿بِالْحَسَنَةِ﴾ و ﴿السَّيِّئَةَ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ﴾ المأخوذ عليهم ، وهم في عالم الذر أو كل عهد ، وهو ما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبيته حين قالوا : بلى ، أو ما عهده الله تعالى عليهم في كتبه. ﴿وَلا يَنْقُضُونَ الْمِيثاقَ﴾ ما وثقوه من المواثيق بينهم وبين الله تعالى وبين العباد ، والنقض : الفك بترك الإيمان أو الفرائض ، وهو تعميم بعد تخصيص. ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام ، والرحم وموالاة المؤمنين ، ويندرج في ذلك مراعاة جميع حقوق الناس. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ تمتلئ قلوبهم مهابة منه وجلالا له. والخشية : الخوف مع العلم بمن تخشاه.

﴿وَيَخافُونَ سُوءَ الْحِسابِ﴾ فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ، ويخشون خطر الحساب. ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الطاعة والبلاء وعن المعصية. ﴿ابْتِغاءَ﴾ طلب. ﴿وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي طلب رضاه ، لا غيره من أغراض الدنيا ، كالفخر أو السمعة ونحوهما. ﴿وَأَقامُوا الصَّلاةَ﴾ المفروضة. ﴿وَأَنْفَقُوا ..﴾ في الطاعة بعض ما رزقهم الله. ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون

السيئة بالحسنة ، فيجازون الإساءة بالإحسان كالأذى بالصبر ، والجهل بالحلم ، أو يتبعون السيئة الحسنة ، فتمحوها. ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة ، وهي ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ إقامة يقيمون فيها. ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْواجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي ومن صلح ، وإن لم يعملوا بعملهم ، يكونون في درجاتهم تكرمة لهم ، وهو دليل على أن الدرجة تعلو بالشفاعة ، والتقييد بالصلاح دلالة على أن مجرد الأنساب لا تنفع. ﴿مِنْ كُلِّ بابٍ﴾ من أبواب الجنة أو من أبواب المنازل ، أول دخولهم للتهنئة. ﴿سَلامٌ﴾ قائلين : سلام عليكم ، بشارة بدوام السلامة. ﴿بِما صَبَرْتُمْ﴾ بصبركم في الدنيا. ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ عقباكم.

المناسبة :

هذه الآية متعلقة بما قبلها ، فهي تذكر الصفات الحميدة لأولي الألباب ، أو الصفات المذكورة في قوله تعالى : ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ ومن اتصف بهذه الصفات لهم سعادة الدنيا والآخرة.

التفسير والبيان :

يصف الله تعالى أولي الألباب من المؤمنين الذين تحققوا من نبوة النبي محمد ﷺ واعتقدوا أن ما أنزل إليه هو الحق ، يصفهم بالصفات التالية :

١ . الوفاء بالعهد :

الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم من الاعتراف بربوبية الله تعالى ، وبالمواثيق بينهم وبين ربهم ، وبينهم وبين العباد. وعهد الله : كل ما قام الدليل على صحته من الأدلة العقلية والسمعية ، والعهد : اسم للجنس ، أي بجميع فروض الله ، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده ، ويدخل فيه التزام جميع الفروض ، وتجنب جميع المعاصي.

٢ . عدم نقض الميثاق :

أي لا يخلّون بواجبات العهد والتزاماته ، ولا ينقضون عهد الإيمان مع ربهم ، ولا بالعقود التي يبرمونها مع الناس من بيع وشراء وسائر المعاملات ، حتى لا يكونوا

كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان ، روى الشيخان والترمذي والنسائي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان» وفي رواية أربع ومنها : «وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر».

فعدم نقض الميثاق في رأي الأكثرين قريب من الوفاء بالعهد ، وهما مفهومان متلازمان ، وإن كانا متغايرين ، ونص على منع النقض تأكيدا عليه. أو أنه تعميم بعد تخصيص. قال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق في بضع وعشرين موضعا في القرآن ، عناية بأمره ، واهتماما بشأنه.

٣ . صلة الرحم ورعاية جميع الحقوق الواجبة لله وللعباد :

الذين يصلون كل ما أمر الله بصلته ونهى عن قطعه من حقوق الله ، ومنها مؤازرة النبي ﷺ ونصرته في الجهاد ، وحقوق العباد ، ومنها صلة الرحم. جاء في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «من أحبّ أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه» ومنها الإحسان إلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف. ونص على هذا الوصف مع دخوله في الوصفين السابقين للتأكيد ، ولئلا يظن ظان أن الوفاء بالعهد مقصور على ما بين الإنسان وبين الله تعالى.

٤ . الخوف من الله :

ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، يراقبون الله في ذلك. والخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن يخشاه ، لذا خص الله العلماء بمزيد الخشية ، فقال : ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر ٣٥ / ٢٨].

٥ . الخوف من العذاب :

ويحذرون سوء الحساب في الدار الآخرة ، فيخافون المناقشة في الحساب ؛ لأن من نوقش الحساب عذّب ، ويحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا ؛ لأن الحساب يشمل كل صغير وكبير ، ومن خاف الحساب أقبل على الطاعة ، وتجنب المعصية. ويلاحظ أن الوصف الرابع إشارة إلى الخشية من الله ، وهذا يقتضي خوف الجلال والمهابة والعظمة ، وهذا الوصف إشارة إلى الخوف من سوء الحساب.

٦ . الصبر :

وهو حبس النفس على ما تكره : والذين صبروا على الطاعة وعن المعصية ، وحال البلاء ، ففعلوا الطاعات والتكاليف ، وامتنعوا من المعاصي والسيئات أو المنكرات ، ورضوا بالقضاء والقدر عند التعرض للمصائب ، وكان صبرهم بقصد مرضاة الله ﷻ ونيل ثوابه ، لا رياء ولا سمعة.

٧ . إقامة الصلاة :

والذين أقاموا الصلاة أي أدّوها مستكملة أركانها وشروطها التامة ، مع خشوع القلب لله تعالى على الوجه المرضي.

٨ . الإنفاق في وجوه الخير :

وأنفقوا بعض ما رزقناهم في السر والجهر بحسب مقتضى الحال ، فيسرّون النفقة بينهم وبين ربهم حتى لا يكون قصدهم الرياء والسمعة ، ويعلنونها أحيانا للناس إذا كانت بقصد التشجيع والتعليم والقدوة ، سواء كان إنفاقا واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أو مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمساكين الأباعد.

٩ . مقابلة السيئة بالإحسان :

ويدفعون الإساءة بالإحسان كالجهل بالحلم ، والأذى بالصبر ، كما قال تعالى : ﴿وَإِذا خاطَبَهُمُ الْجاهِلُونَ قالُوا : سَلاماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٦٣] ﴿وَإِذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧٢] ، ويتبعون السيئة بالحسنة لمحوها ، لقوله ﷺ فيما يرويه أحمد عن أبي ذر : «إذا عملت سيئة ، فاعمل بجنبها حسنة تمحها» وفي رواية أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر : «وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن».

والثابت أن المعاملة الكريمة مع المسيء وغيره أفضل وأجدى وأوقع أثرا ؛ لأنها تهوّن الأمر ، وتستل الأحقاد ، وتكون عاقبتها أسلم.

وبعد أن وصف الله المؤمنين العقلاء بتلك الصفات الحميدة ، ذكر جزاءهم بقوله : ﴿أُولئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر لهم العقبى الحسنة والسعادة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فهو النصر على الأعداء ، وأما في الآخرة فهو الجنة.

ثم أوضح هذه العقبى فقال : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ ..﴾ أي تلك العقبى هي الجنات التي يقيمون فيها إقامة دائمة.

يدخلونها هم والصالحون المؤمنون من أزواجهم وأصولهم وفروعهم ، وهو دليل على أن سمو الدرجة يكون بالشفاعة ، وأن التقييد بالصلاح يدل على أن مجرد الأنساب لا تنفع ، فلا تفيد الأنساب شيئا إذا لم تقرن بالعمل الصالح ، وكما قال تعالى : ﴿فَإِذا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٠١] وقال سبحانه : ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ وَلا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٨٨ ـ ٨٩] وقال النبي ﷺ لفاطمة في مرض موته فيما رواه الترمذي : «يا فاطمة بنت محمد ، سليني من مالي ما شئت ، لا أغني عنك من الله شيئا».

وتأتيهم الملائكة عند دخولهم الجنة من أبواب مختلفة قائلين لهم : سلام عليكم بصبركم ، أي أمن دائم عليكم ، ورحمة من ربكم ، فنعم عقبى الدنيا الجنة. فقوله ﴿سَلامٌ﴾ مشتمل على محذوف تقديره : ويقولون : سلام عليكم.

روى ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول ، فيقول لهم : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وكذلك كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الأحكام التالية :

١ ـ وجوب الوفاء بالعهد : وهو يشمل كل حقوق الله وفرائضه وحقوق العباد.

٢ ـ تحريم نقض المواثيق الإلهية والبشرية : فإذا عقد الإنسان عهدا في طاعة الله ، أو مع الناس ، لم يجز نقضه.

٣ ـ وجوب صلة الأرحام ورعاية جميع حقوق الله وحقوق العباد ، وذلك يتناول جميع الطاعات والإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم.

٤ ـ الخوف من سوء الحساب : وهو الاستقصاء فيه والمناقشة ، ومن نوقش الحساب عذّب ، كما روى الشيخان عن عائشة.

٥ ـ الصبر بإخلاص لله تعالى على الطاعة ، وعن المعصية ، وعلى الرزايا والمصائب ، والحوادث والنوائب.

٦ ـ إقامة الصلاة : وهو أداؤها بفروضها وخشوعها في مواقيتها.

٧ ـ الإنفاق من بعض المال سرا وجهرا ، بأداء الزكاة المفروضة والتطوع بالصدقات المندوبة في سبيل الله تعالى.

٨ ـ درء السيئة بالحسنة ، أي الدفع بالعمل الصالح السيء من الأعمال ، كالتخلق بالأخلاق الطيبة في مواجهة أذى الناس ، كالحلم في وجه الجهل ، والصبر في وجه الأذى ، ودفع الشر بالخير ، والمنكر بالمعروف ، واتباع السيئة بالحسنة لمحو أثرها ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ الْحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ﴾ [هود ١١ / ١١٤] وقوله ﷺ فيما رواه أحمد والترمذي والحاكم والبيهقي عن أبي ذر : «وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن».

٩ ـ للسعداء الطائعين عاقبة الآخرة : وهي الجنة بدل النار ، والدار غدا داران : الجنة للمطيع ، والنار للعاصي.

وجنان عدن : وسط الجنة ، وسقفها عرش الرحمن ، جاء في صحيح البخاري «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة ، وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجّر أنهار الجنة».

١٠ ـ يدخل الجنة مع المؤمن الصالح آباؤه وأزواجه وأبناؤه إن صدقوا وصلحت أعمالهم ، وإن لم يعملوا مثل أعمالهم ، واشتراط العمل الصالح كاشتراط الإيمان ، ولكن من فضل الله تعالى وإكرام المؤمن وثواب المطيع : سروره واجتماعه مع قراباته في الجنة ، وحضور أهله معه فيها ، وان دخلها كل إنسان بعمل نفسه من زاوية العدل ، وبرحمة الله تعالى من ناحية الفضل.

١١ ـ التقييد بالصلاح بقوله : ﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ ..﴾ دليل على أن مجرد الأنساب لا تنفع ، فلا تفيد الأنساب شيئا إذا لم تقرن بالعمل الصالح.

١٢ ـ تدخل أفواج الملائكة من مختلف أبواب الجنة مهنئة المؤمنين ، ومبشرة لهم بالسلامة ، قائلين لهم : ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِما صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي قد

سلمتم من الآفات والمحن ، أو هو خبر بمعنى الدعاء ، أي ندعو لكم بدوام السلامة ، سلمكم الله ، وهذا يتضمن الاعتراف بالعبودية. والسلام عليكم كان بصبركم على ملازمة الطاعة ، ومفارقة المعصية ، فنعم عاقبة الدار التي كنتم فيها ، عملتم فيها ما أعقبكم هذا الذي أنتم فيه ، فالعقبى على هذا اسم ، وهو قول ابن سلام. أو فنعم عقبى الجنة عن النار أو عن الدنيا ، وهو قول أبي عمران الجوني.

١٣ ـ استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال : إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم ، فكانوا به أجل مرتبة من البشر ، ولو كانوا أقل مرتبة من البشر ، لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجبا علو درجاتهم وشرف مراتبهم [١].

صفات الأشقياء وجزاؤهم

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)﴾

المفردات اللغوية :

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ﴾ ذكر في مقابلة الأولين الذين يوفون بعهد الله. ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالكفر والظلم والمعاصي وإثارة الفتن. ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ الطرد أو البعد من رحمة الله. ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ العاقبة السيئة في الدار الآخرة ، وهي جهنم ، أو سوء عاقبة الدنيا ؛ لأنه في مقابلة عقبى الدار للسعداء.

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٤٥ ـ ٤٦

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى صفات السعداء وجزاءهم الذي أعده لهم في دار الكرامة ، ذكر حال الأشقياء وما هيأه لهم من عذاب النار ، وأتبع الوعد بالوعيد ، والثواب بالعقاب ، على ما هي عليه عادة القرآن للموازنة والمقابلة ، وليكون البيان كاملا فيكون أدعى للامتثال والزجر ، فقال : ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ﴾.

التفسير والبيان :

وصف الله تعالى الأشقياء بصفات ثلاث هي :

١ ـ نقض العهد : والذين ينقضون عهد الله الذي ألزمه عباده وأمر به. سواء ما يتعلق به سبحانه من الإيمان بوحدانيته وقدرته وإرادته ، والإيمان بأنبيائه ورسله وكتبه وما أوحى لهم به ، أو ما يتعلق بحقوق الناس.

ونقض العهد : بألا ينظر في الأدلة الدالة على وجود الله وتوحيده أصلا ، أو بأن ينظر فيها ويعلم صحتها ثم يعاند ، فلا يعمل بعلمه ، أو بأن ينظر في الشبهة ، فيعتقد خلاف الحق.

وقوله : ﴿مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ﴾ أي من بعد الإقرار بصحته والالتزام به.

٢ ـ قطع ما أمر الله به أن يوصل ، أي قطع كل ما أوجب الله وصله ، من لإيمان به وبرسله ، وقطع الرحم والقرابات ، وعدم صلة المؤمنين وسائر أصحاب الحقوق وعدم التعاون معهم.

٣ ـ الإفساد في الأرض ، أي ويفسدون في الأرض بأعمالهم الخبيثة ، يظلمون أنفسهم وغيرهم ، ويدعون إلى غير دين الله ، ويلحقون الظلم بالنفوس

والأموال ، ويرتكبون كل ما يؤدي إلى تخريب البلاد ، وإثارة الفتن ، وتأجيج نار الحرب والدمار.

ثم أبان تعالى ما يستحق هؤلاء من عقاب ، فقال : ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر يستحقون اللعنة ، أي الطرد من رحمة الله والإبعاد من خيري الدنيا والآخرة.

﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي ولهم سوء العاقبة والمآل ، وهو عذاب جهنم ، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها ، كما قال سبحانه سابقا : ﴿وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهادُ﴾ [الآية : ١٨].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآية إلى الأحكام التالية :

١ ـ تحريم نقض العهد الإلهي بالإيمان وإيتاء الحقوق ، الذي أقام عليه تعالى لأدلة العقلية والسمعية ، وأوجب الوفاء به في قرآنه وكتبه المنزلة على أنبيائه.

٢ ـ تحريم قطع ما أمر الله بوصله من صلة الأرحام والإيمان بجميع الأنبياء ، والتعاون مع المؤمنين.

٣ ـ تحريم الإفساد في الأرض بالكفر وارتكاب المعاصي والظلم وإثارة الفتن ، وارتكاب كل ما يؤدي إلى دمار البلاد وتخريبها ، وإتلاف الأموال والحقوق واغتصابها والاعتداء عليها.

٤ ـ المرتكبون لهذه المنكرات والفواحش لهم اللعنة ، أي الطرد والإبعاد من لرحمة ، ولهم سوء الدار ، أي سوء المنقلب ، وهو جهنم.

الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله لمن آمن بالله

﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلاَّ مَتاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾

الإعراب :

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بدل من قوله : ﴿مَنْ أَنابَ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا﴾ معطوف على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ وفي الآية تقديم وتأخير ، وما سبق ذلك اعتراض.

﴿طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ طُوبى﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿لَهُمْ﴾ ، والجملة خبر المبتدأ : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ﴾. ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ : معطوف مرفوع على ﴿طُوبى﴾. وقرئ : ﴿وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ بالنصب ، على أنه منادى مضاف ، حذف منه حرف النداء ، أي يا حسن مآب ، ويجوز أن يكون ﴿طُوبى﴾ منصوبا بفعل مقدر ، أي أعطاهم طوبى لهم ، وأعطاهم حسن مآب ، فهذا معطوف بالنصب على ما سبقه.

البلاغة :

﴿يَبْسُطُ﴾ و ﴿يَقْدِرُ﴾ و ﴿يُضِلُ﴾ و ﴿يَهْدِي﴾ بينهما طباق.

﴿إِلَّا مَتاعٌ﴾ تشبيه بليغ ، حذف منه أداة الشبه ووجه التشبيه ، أي ما الحياة الدنيا إلا مثل الذي يتمتع به الإنسان في منزله كالقصعة ونحوها ، في حقارته وسرعة زواله.

المفردات اللغوية :

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ يوسعه ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيقه أو يعطي بقدر الكفاية فقط ﴿وَفَرِحُوا﴾ أي أهل مكة فرح بطر ﴿بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما بسط لهم في الدنيا وما نالوه فيها ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في جنب الآخرة ﴿إِلَّا مَتَاعٌ﴾ إلا متعة لا تدوم ، وشيء قليل يتمتع به ويذهب ، والمعنى : أن الكفار بطروا بما نالوا من الدنيا ، ولم يستخدموه فيما يوصلهم إلى نعيم الآخرة ، واغتروا بما هو قليل النفع سريع الزوال.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿لَوْ لا﴾ هلا ﴿أُنْزِلَ عَلَيْهِ﴾ على محمد ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ كعصا موسى ويده ، وناقة صالح ﴿يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ﴾ إضلاله ، فلا تغني عنه الآيات شيئا ؛ لأنه عاند وأعرض عن الحق ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنابَ﴾ يرشد إلى دينه من رجع عن العناد وأقبل إلى الحق. والمعنى : هذا جواب فيه تعجب من قولهم ، كأنه قال لهم : ما أعظم عنادكم ، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم ، فلا سبيل إلى اهتدائهم ، وإن أنزلت كل آية ؛ ويهدي إليه من أناب ، أي من رجع عن العناد.

﴿وَتَطْمَئِنُ﴾ تسكن ﴿بِذِكْرِ اللهِ﴾ أي بتوحيده ووعده ﴿تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ قلوب المؤمنين ، والمعنى أن قلوب المؤمنين تسكن وتستأنس بتوحيد الله وتذكر وعده ، وتعتمد عليه وترجو منه ، فتطمئن.

﴿طُوبى﴾ مصدر من الطيب ، أي لهم العيش الطيب والنعمة والخير والسرور ، والحسنى والكرامة. وقيل : هي شجرة في الجنة ، يسير الراكب في ظلها مائة عام. ﴿مَآبٍ﴾ مرجع ومنقلب.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك ، بيّن أنه تعالى الذي يبسط الرزق ويقدر في الدنيا ؛ لأنها دار امتحان ، فبسط الرزق على الكافر لا يدل على كرامته ، والتقتير على بعض المؤمنين لا يدل على إهانتهم ، فلا تعلق للرزق بالكفر والإيمان ، فربما وسع على الكافر دون المؤمن استدراجا له ، وضيق على المؤمن دون الكافر زيادة في أجره وثوابه.

ثم ذكر تعالى مقالة للمشركين ، كثر في القرآن حكايتها وهي طلب آية

مادية حسية تدل على نبوة محمد ﷺ ؛ لإنكار هم أن القرآن آية دالة على النبوة ، فرد الله عليهم أن اقتراح الآيات على الرسل جهل.

ثم ذكر سبحانه حال المؤمنين المتقين وثوابهم عند الله تعالى. والتحدث عن المشركين والمؤمنين هنا مناسب لما ذكر سابقا من بيان عاقبة المؤمن وعاقبة المشرك.

التفسير والبيان :

لما ذكر الله تعالى أن للمشركين سوء الدار ، ناسب ذكر حكم الرزق في الدنيا ، وأنه لا تعلق له بالإيمان والكفر ، فقال تعالى : ﴿**اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ ..**﴾ أي أن الله تعالى هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ، ويقتر على من يشاء ، لما له في ذلك من الحكمة والعدل ، بصرف النظر عن كون الإنسان مؤمنا أو كافرا ، فقد يضيق الله الرزق على المؤمن ابتلاء واختبارا ، وزيادة في أجره ، وقد يوسع الله الرزق على الكافر استدراجا له وحرمانا منه في الآخرة ، عدالة ، فليست سعة الرزق للكافر دليلا على الكرامة والرضا ، وليس التقتير على المؤمن دليلا على الإهانة والسخط. كما قال تعالى في شأن رزق الكافر : ﴿**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَبَنِينَ ، نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ ، بَلْ لا يَشْعُرُونَ**﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٥٦] وقال : ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف ٧ / ١٨٢].

ثم ذكر الله تعالى حال المشركين في حال الغنى فقال : ﴿**وَفَرِحُوا ..**﴾ أي وفرح مشركو مكة بالدنيا فرح بطر ، ولم يعرفوا غيرها ، وجهلوا ما عند الله. لكن ما نعيم الدنيا بالنسبة للآخرة إلا متاع زائل ، وشيء قليل ذاهب ، يزول بسرعة.

أخرج أحمد ومسلم والترمذي عن المستورد أخي بني فهر قال : قال رسول الله

ﷺ : «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم ، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة.

وأخرج الترمذي عن ابن مسعود قال : «نام رسول الله ﷺ على حصير ، فقام وقد أثّر في جنبه ، فقلنا : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك ، فقال : ما لي وللدنيا ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها».

ولما أوضح تعالى أن المشركين اغتروا بمتاع الحياة الدنيا ، وطمست المادة على مشاعرهم وقلوبهم ، ذكر ما ترتب على الغرور والتأثر بالمادة ، فطلبوا من النبي ﷺ آية واحدة مادية تدل على صدق نبوته ، لعدم إيمانهم بكون القرآن معجزة مصدقة ، وبرهانا قاطعا على ذلك ؛ لأنهم قوم ماديون ، لا مجال لمخاطبة العقل لديهم ، والقائل : عبد الله بن أبي أمية وأصحابه ، فقال تعالى حاكيا اقتراحهم : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾.

أي ويطلب أهل مكة المشركون قائلين : هلا أنزل على محمد آية أو معجزة قاهرة ظاهرة مادية مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام ، كقولهم : ﴿فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ٥].

والله قادر على إجابة ما سألوا ، لكن جاء في الحديث : «إن الله أوحى إلى رسوله ، لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبا ، وأن يجري لهم ينبوعا ، وأن يزيح الجبال من حول مكة ، فيصير مكانها مروج وبساتين : إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك ، فإن كفروا أعذبهم عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة ، فقال : بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة».

ورد الله عليهم بأن إنزال الآيات لا يؤثر في هداية ولا ضلال ، بل الأمر كله بيد الله : ﴿قُلْ: إِنَّ اللهَ يُضِلُّ ..﴾ أي ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم ، فلا فائدة لكم في نزول الآيات ، إن لم يرد الله هدايتكم ، فمن كان على

صفتكم من التصميم والعناد في الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائكم ، وإن أنزلت كل آية ، فإن الضلال والهداية بيد الله ، والله يضل من يشاء ، أي كما أضلكم بعد ما أنزل من الآيات ، وحرمكم الاستدلال بها ، يضلكم عند نزول غيرها ، ويهدي إليه من أناب ، أي رجع عن العناد وأقبل على الحق أو الإسلام أو الله عَزَّوَجَلَّ ، فهاء ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد إلى واحد من المذكورات ؛ على تقدير : ويهدي إلى دينه وطاعته من رجع إليه بقلبه.

وللآية نظائر كثيرة منها : ﴿وَلَوْ أَنَّنا نَزَّلْنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتى ، وَحَشَرْنا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً ، ما كانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللهُ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام ٦ / ١١١] ﴿وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠١] ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ، حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس ١٠ / ٩٦ . ٩٧].

ثم ذكر الله تعالى من يستحقون الهداية : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أي يهدي الله الذين صدقوا بالله ورسله ، وسكنت قلوبهم إلى توحيد الله ووعده ، أنسا به ، واعتمادا عليه ، ورجاء منه ، ألا بتذكر الله ، وتأمل آياته ، ومعرفة كمال قدرته عن بصيرة ، تطمئن قلوب المؤمنين ، ويذهب القلق والاضطراب عنهم ، بما وقر في تلك القلوب من نور الإيمان ، كما قال تعالى : ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٣] والمؤمن إذا تذكر عقاب الله ، خاف ، كما قال : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال ٨ / ٢] وإذا تذكر المؤمن وعده تعالى بالثواب والرحمة ، اطمأن قلبه وهدأت نفسه : ﴿وَإِذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُهُ ، زادَتْهُمْ إِيماناً ، وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال ٨ / ٢].

ثم أبان الله تعالى جزاء المؤمنين فقال : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أي للذين آمنوا وعملوا الصالحات العيش الطيب والنعمة والخير وحسن الثواب ، وحسن المرجع.

والطوبى في رأي ابن عباس : الجنة ، وروي عنه أنها شجرة في الجنة ، ورجح القرطبي أنها شجرة في الجنة ، فقال : والصحيح أنها شجرة [١] ؛ للحديث المرفوع عن عتبة بن عبد السّلمي وهو صحيح على ما ذكره السهيلي : «نعم شجرة تدعى طوبى».

وللحديث المرفوع أيضا عن أبي سعيد الخدري فيما رواه الإمام أحمد : «طوبى : شجرة في الجنة ، مسيرة مائة سنة ، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها» وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام ، لا يقطعها» ولا حرج على فضل الله ولا على قدرته ، ففي الجنة كما ثبت في الحديث الذي أخرجه الجماعة إلا النسائي عن أبي هريرة : «فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر».

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على الآتي :

١ ـ الله تعالى مصدر الرزق ، يوسع فيه على من يشاء ، ويقتره على من يشاء ، على وفق حكمته وعدله.

٢ ـ الكفار وكل أصحاب النزعات المادية يفرحون في الدنيا ، ولا يعرفون غيرها ، ويجهلون ما عند الله من أفضال ونعم وخيرات كثيرة.

٣ ـ ليست الدنيا في جانب الآخرة إلا متاع من الأمتعة ، وشيء قليل سريع الزوال.

٤ ـ اقتراح الآيات على الرسل جهل ، بعد أن رأوا آية واحدة تغني عن كل آية ، هي القرآن ، تدل على الصدق ، وصحة النبوة والوحي ، وكونه كلام الله.

---

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٣١٧ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٥١٢

٥ ـ لا تعلق للرزق بالإيمان والكفر ، فقد يرزق الله الكافر ، ويحرم المؤمن ، استدراجا للأول ، وابتلاء واختبارا للثاني.

٦ ـ الإضلال والهداية من الله ، وللإنسان دور فيهما ، فالكافر هو الذي عاند وعارض ولم يؤمن ، فلم يهده الله ، والمؤمن هو الذي آمن وعمل الصالحات ، فزاده الله هدى.

٧ ـ للمؤمنين الذين يعملون الصالحات الجنة والخير والنعمة والفرح وحسن المرجع ، وفي هذا ترغيب في الطاعة ، وتحذير من المعصية ، ومن سوء العقاب والمصير.

محمد صاحب الرسالة والرسول وبيان عظمة القرآن

وقدرة الله الشاملة

﴿كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِما صَنَعُوا قارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كانَ عِقابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَجَعَلُوا

لِلَّهِ شُرَكاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ (٣٤)﴾

الإعراب :

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ : جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف ، أي لكان هذا القرآن. وما بعده جمل فعلية في موضع نصب ؛ لأنها صفة قرآن. وجاء ﴿سُيِّرَتْ﴾ و ﴿قُطِّعَتْ﴾ بلفظ التأنيث لتأنيث الجبال والأرض ، وجاء ﴿كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾ على التذكير ، لوجود الفصل الذي يتنزل منزلة إلحاق التأنيث.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دارِهِمْ تَحُلُ﴾ : إما للتأنيث ، أي قارعة تحل قريبا من دارهم ، وهي جملة فعلية في موضع رفع صفة : قارعة ، وتقديره : قارعة حالة ، وإما للخطاب ، أي أو تحل أنت قريبا من دارهم ، وهو معطوف على خبر ﴿وَلا يَزالُ﴾ أي : ولا يزال الكافرون تصيبهم بصنيعهم قارعة ، أو حالا أنت قريبا من دارهم.

البلاغة :

﴿كَذلِكَ أَرْسَلْناكَ﴾ : تشبيه مرسل مجمل.

المفردات اللغوية :

﴿كَذلِكَ﴾ أي مثل ذلك وهو إرسال الرسل ، أي كما أرسلنا الأنبياء قبلك أرسلناك ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها﴾ مضت وتقدمتها أمم ﴿لِتَتْلُوَا﴾ تقرأ ﴿الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ﴾ أي القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ﴾ حيث قالوا لما أمروا بالسجود له : وما الرحمن؟ أي وهم يجحدون ببليغ الرحمة ، فلم يشكروا نعمه ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ لا مستحق للعبادة سواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتابِ﴾ مرجعي ومرجعكم.

﴿سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾ أي نقلت عن أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ﴾ شققت فجعلت عيونا وأنهارا ، أو تصدعت من خشية الله عند قراءته ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتى﴾ بأن يحيوا لما آمنوا ﴿بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ

﴿جَمِيعاً﴾ أي لله القدرة على كل شيء ، لا لغيره ، فلا يؤمن إلا من شاء إيمانه دون غيره ، إن أوتوا ما اقترحوا ، وهو إضراب عما تضمنته ﴿لَوْ﴾ من معنى النفي ، أي بل الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، إلا أن إرادته لم تتعلق بذلك ، لعلمه بأن قلوبهم لا تلين له.

﴿يَيْأَسِ﴾ المراد يعلم ، وهو لغة هوازن ، وهو رأي الأكثر ، وقيل : هو يأس على الحقيقة ، أي أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمانهم ، مع ما رأوا من أحوالهم ، علما منهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا.

﴿أَنْ لَوْ يَشاءُ اللهُ أَنَ﴾ : مخففة من الثقيلة ، أي أنه لو شاء الله لهدى الناس جميعا إلى الإيمان من غير آية ، ومعناه : نفي هدى بعض الناس ، لعدم تعلق المشيئة باهتدائهم ﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة ﴿بِما صَنَعُوا﴾ بصنعهم أي كفرهم ﴿قارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم بصنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجدب ، وتفزعهم وتقلقهم ﴿أَوْ تَحُلُ﴾ أي القارعة ، ويجوز أن يكون الخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ، فإنه حل بجيشه قريبا من دارهم عام الحديبية ، أو إنه حل مكة ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ بالنصر عليهم ، أو الموت أو القيامة أو فتح مكة ﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ لامتناع الكذب في كلامه ، وقد حل بالحديبية حتى أتى فتح مكة.

﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ ..﴾ أي كما استهزئ بك ، وهذه تسلية للنبي ﷺ ﴿فَأَمْلَيْتُ﴾ أمهلت مدة طويلة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بالعقوبة ، أي هو واقع موقعه ، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك. وهذه تسلية للنبي ﷺ ﴿قائِمٌ عَلى كُلِّ نَفْسٍ﴾ رقيب وحافظ عليها ﴿بِما كَسَبَتْ﴾ بما عملت من خير وشر ، وهو الله ، كمن ليس كذلك من الأصنام ، لا ﴿قُلْ : سَمُّوهُمْ﴾ له من هم ، أي صفوهم فانظروا هل لهم ما يستحقون به العبادة ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ بل تخبرون الله ﴿بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بشريك ، والاستفهام إنكار ، أي لا شريك له ، إذ لو كان لعلمه ﴿أَمْ﴾ بل تسمونهم شركاء ﴿بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ بظن باطل لا حقيقة له في الواقع ﴿مَكْرُهُمْ﴾ كفرهم ﴿عَنِ السَّبِيلِ﴾ طريق الهدى ﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ بالقتل والأسر ﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُ﴾ أشد وأنكى منه ﴿وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ﴾ من عذابه ﴿مِنْ واقٍ﴾ مانع أو حافظ.

سبب النزول :

نزول الآية (٣١):

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ : أخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس ، قال : قالوا للنبي ﷺ : إن كان كما تقول ، فأرنا أشياخنا الأول ، نكلمهم من الموتى ، وافسح لنا هذه الجبال ـ جبال مكة التي قد ضمتنا ، فنزلت : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبالُ﴾

الآية. ورواية ابن جرير وأبي الشيخ ابن حيان الأنصاري عن ابن عباس أنهم قالوا : سيّر بالقرآن الجبال ، قطّع بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا ، فنزلت.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي قال : قالوا للنبي ﷺ : لو سيرت لنا جبال مكة ، حتى تتسع ، فنحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض ، كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح ، أو أحييت لنا الموتى ، كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه ، فأنزل الله : ﴿**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً**﴾ الآية.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله ﷺ : إن كنت نبيا كما تزعم ، فباعد جبلي مكة أخشبيها (جبلين فيها) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة ، حتى نزرع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى ، حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة ، حتى نذهب ونجيء في ليلة ، كما زعمت أنك فعلته ، فنزلت هذه الآية.

المناسبة :

بعد أن قص الله علينا ما طلبه المشركون من آيات تثبت نبوة محمد ﷺ ، أوضح أن محمدا كغيره من الرسل مع أقوامهم ، طلبوا الآيات من أنبيائهم ، وأجابهم الله إلى مطلبهم ، ولكنهم لم يؤمنوا ، فعذبوا بعذاب الاستئصال.

ولو أرادوا آية ، فقد أعطيناك هذا الكتاب ، وأنت تتلوه ، والله قادر على كل شيء من الإتيان بما اقترحوه ، ولكنه لا يحقق المقصود. ثم هددهم الله بداهية تحل بهم ، ثم أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ على استهزائهم به.

التفسير والبيان :

مثلما أرسلنا رسلا في الأمم الماضية ، أرسلناك يا محمد في هذه الأمة لتبلغهم

رسالة الله إليهم ، وما أوحيناه إليك ، وقد كذّب الرسل من قبلك ، فلك بهم أسوة ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم ، قال تعالى : ﴿تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنا إِلى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [النحل ١٦ / ٦٣] وقال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فَصَبَرُوا عَلى ما كُذِّبُوا وَأُوذُوا ، حَتَّى أَتاهُمْ نَصْرُنا ، وَلا مُبَدِّلَ لِكَلِماتِ اللهِ ، وَلَقَدْ جاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام ٦ / ٣٤].

والخلاصة : إننا أرسلناك بكتاب تبلّغه للناس وتقرؤه عليهم ، كما أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك ، ولما كذّب الرسل ، انظر كيف نصرناهم وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ﴾ أي والحال أن هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء ، لا يقرون به ، ولا يشكرون نعمه وفضله ، وقالوا : إن له شريكا.

﴿قُلْ : هُوَ رَبِّي ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي قل لهم : إن الرحمن الذي تكفرون به ، أنا مؤمن به معترف ، مقرّ له بالربوبية والألوهية ، فهو متولي أمري وخالقي ، وهو ربي لا إله إلا هو ، لا رب غيره ولا معبود سواه.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي توكلت عليه في جميع أموري ، وفوضتها إليه ، ووثقت به.

﴿وَإِلَيْهِ مَتابِ﴾ أي إليه أرجع وأنيب ، فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه ، أو إليه توبتي ، بمعنى قوله : ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر ٤٠ / ٥٥].

ثم بيّن الله تعالى عظمة القرآن وشأنه وتفضيله على سائر الكتب المنزلة قبله ، فقال : ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً ..﴾ أي لو كان هناك في الكتب الماضية كتاب تسيّر بتلاوته الجبال عن أماكنها ، أو تقطع به الأرض وتشقق وتجعل أنهارا

وعيونا ، أو تكلم به الموتى في قبورها بإحيائهم بقراءته ، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره ، بل هو الأولى لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثله ، ولا بسورة من مثله ، ولأنه الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لا لاشتماله على الأدلة الكونية الدالة على وجود الصانع ، والأحكام والأنظمة التي تصلح البشر وتسعدهم في الدارين. والآية مثل قوله تعالى : ﴿**لَوْ أَنْزَلْنا هذَا الْقُرْآنَ عَلى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾ [الحشر ٥٩ / ٢١].

﴿**بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً**﴾ بل مرجع الأمور كلها إلى الله عَزَّوَجَلَّ ، ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل الله فلا هادي له ، ومن يهد الله فما له من مضل ، فهو سبحانه صاحب الإرادة والأمر في إنزال الآيات ، وهو القادر على كل شيء ، فلو كان تحقيق طلب ما اقترحوه مناسبا مشتملا على الحكمة والمصلحة ، لأنجزه تعالى ، ولكن كفى بالقرآن آية لأولي الألباب ، والإرادة الإلهية لم تتعلق بغير ذلك ؛ لعلمه تعالى ألا فائدة في مجاراتهم ، وأن قلوبهم لا تلين ، فهي كالحجارة أو أشد قسوة ، فكان الإضلال والهداية مرتبطا بنظام السببية ، أي أن الله أنزل في القرآن آيات كافية للهداية ، فمن أعرض عنها ضل ، فكان ترك الآيات سببا في ضلاله.

﴿**أَفَلَمْ يَيْأَسِ ..**﴾ أي ألم يعلم المؤمنون أن الله قادر لو شاء على هداية الناس أجمعين إلى الإيمان بالقرآن.

أو ألم ييأس الذين آمنوا من إيمان جميع الخلق ، ويعلموا أو يتبينوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا إلى دينه ، فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ، ولا أنجع في العقول والنفوس من هذا القرآن. ثبت في الصحيح الذي رواه البخاري أن رسول الله ﷺ قال : «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله

البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة». والمراد : أن معجزة كل نبي انقرضت بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد ، لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار ، قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى من غيره أضله الله.

﴿وَلا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ أي لا تزال القوارع والبلايا من القتل والأسر ، والسلب تصيب الكافرين في الدنيا بسبب تكذيبهم لك وتماديهم في الكفر ، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا ، كما قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٢٧].

﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ حتى ينجز الله وعده لك فيهم ، بنصرك عليهم ، وهو فتح مكة كما قال ابن عباس وآخرون ، أو حتى ينتهي هذا العالم بالنسبة لكفار آخرين.

﴿إِنَّ اللهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعادَ﴾ إن الله ينجز وعده الذي وعدك به ، من النصر عليهم ، ولا ينقض وعده لرسله بالنصر لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة ، كما قال سبحانه : ﴿فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤٧].

ثم أنزل الله تسلية لنبيه عن استهزائهم بطلب هذه الآيات ، وتخفيفا عما كان يشق عليه من ذلك ، وعن تكذيب بعض قومه ، فقال : ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ ..﴾ أي إن كذّبك بعض قومك واستهزأ بك المشركون منهم ، وطلبوا آيات منك عنادا ومكابرة ، فاصبر على أذاهم ، فلك في الرسل المتقدمين أسوة ، ثم بين تعالى شأنه معهم فقال : ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أنظرتهم وأجّلتهم مدة من الزمان ، ثم أوقعت بهم العذاب ، فانظر كيف عقابي لهم حين عاقبتهم ، كما قال

تعالى : ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَها ، وَهِيَ ظالِمَةٌ ، ثُمَّ أَخَذْتُها ، وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج ٢٢ / ٤٨] وجاء في الصحيحين : «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿وَكَذلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذا أَخَذَ الْقُرى وَهِيَ ظالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾». والمراد بالآية أني سأنتقم من هؤلاء الكفار ، كما انتقمت من أولئك المتقدمين.

ثم ذكر الله تعالى ما يكون توبيخا لهم على موقفهم وعقلهم ، وما يدعو إلى التعجب منهم فقال : ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ ..﴾ أي إن الله مطلع على كل نفس ، عالم بما يكسبونه من أعمال الخير أو الشر ، ولا يخفى عليه خافية ، قادر على كل شيء كما قال : ﴿وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ ، وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس ١٠ / ٦١] ﴿وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها﴾ [الأنعام ٦ / ٥٩] ﴿وَما مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُها ، وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّها وَمُسْتَوْدَعَها ، كُلٌّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ﴾ [هود ١١ / ٦].

وبما أن الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء ، فكيف يجعلون القادر العالم كمن لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا ، وكيف يتخذونه ربا يطلبون منه النفع ودفع الضر؟! والمراد نفي المماثلة.

ثم أكد تعالى ما سبق بقوله : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكاءَ﴾ أي واتخذوا شركاء لله ، عبدوها معه ، من أصنام وأوثان وأنداد.

ثم وبخهم مرة أخرى بقوله : ﴿قُلْ : سَمُّوهُمْ﴾ أي صفوهم لنا ، وأعلمونا بهم ، واكشفوا عنهم حتى يعرفوا ، فإنهم لا حقيقة لهم ، وليسوا أهلا للعبادة لعدم نفعهم وضرهم.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِما لا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بل أتخبرونه بشركاء معبودين لا وجود لهم ؛ لأنه لو كان لها وجود في الأرض ، لعلمها ؛ لأنه لا تخفى عليه

خافية. وهذا نفي لوجودها. والاستفهام : استفهام توبيخ.

﴿أَمْ بِظاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي بل أتسمونهم شركاء بظن من القول أنهم ينفعون ويضرون ، أم بباطل من القول ، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر ، وسميتموها آلهة كما قال تعالى : ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ، ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ ، وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ ، وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى﴾ [النجم ٥٣ / ٢٣].

والخلاصة : إن آية ﴿أَفَمَنْ هُوَ قائِمٌ ..﴾ حجاج للمشركين وتوبيخ لهم وتعجيب من عقولهم ، ويقصد منه نفي الدليل العقلي والدليل النقلي على استحقاق تلك الشركاء للعبادة

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾ أي لا فائدة من هذا النقاش أو الحجاج معهم ، فإنهم قوم زيّن لهم كفرهم وكيدهم : وهو ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار ، كقوله تعالى : ﴿وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٢٥].

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي وصرفوا عن سبيل الحق وسبيل الله والدين القويم ، بما زين لهم من صحة ما هم عليه.

﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ ..﴾ أي ومن يخذله الله لكفره وعصيانه ، فما له من أحد يوفقه إلى الهداية وسلوك طريق النجاة والسعادة ، مثل قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً﴾ [المائدة ٥ / ٤١] وقوله سبحانه : ﴿إِنْ تَحْرِصْ عَلى هُداهُمْ ، فَإِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ، وَما لَهُمْ مِنْ ناصِرِينَ﴾ [النحل ١٦ / ٣٧].

ثم ذكر الله تعالى جزاءهم فقال : ﴿لَهُمْ عَذابٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ أي لهم

عقاب شديد في الدنيا بأيدي المؤمنين بالقتل والأسر والذلة والحرب ، أو البلايا في أجسامهم ونحو ذلك من المصائب.

﴿وَلَعَذابُ الْآخِرَةِ أَشَقُ﴾ أي والعذاب المدخر في الآخرة أشد وأنكى من عذاب الدنيا ، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين فيما رواه مسلم عن ابن عمر : «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة» لأن عذاب الدنيا مؤقت ، وذاك دائم أبدا في نار ، هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا.

﴿وَما لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ واقٍ﴾ أي وما لهم ساتر يقيهم ويحفظهم من العذاب ويحميهم ، ولا شفاعة لأحد عند الله إلا بإذنه.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ إرسال الرسل قبل إرسال محمد ﷺ كان ظاهرة عامة ، قد يؤمن بهم بعض أقوامهم ، وقد يكذبهم الأكثرون ، ويكفرون بالرحمن.

٢ ـ كما أرسل الله رسلا إلى أمم وأعطاهم كتبا تتلى عليهم ، كذلك أعطى الله نبيه محمدا ﷺ هذا الكتاب (القرآن) وهو يتلوه عليهم ، فلما ذا اقترحوا غيره.

٣ ـ الله هو الإله بحق الذي لا إله غيره ، ولا معبود سواه ، وهو واحد بذاته ، وإن اختلفت صفاته ، عليه يتوكل العبد ويعتمد ويثق ، وإليه مرجع العباد غدا ، وعليه يتوكل المؤمن اليوم وفي كل وقت ، رضى بقضائه ، وتسليما لأمره.

٤ ـ لو كان هناك كتاب سماوي يقوم بنقل الجبال من أماكنها ، وتفجير الأنهار والعيون وشق الأرض ، وتكليم الموتى لإحيائها ، لكان هذا القرآن ، ولو فعل هذا قرآن قبل قرآنكم لفعله قرآنكم.

٥ ـ ليعلم البشر أن الله لو يشاء لهدى الناس جميعا من غير أن يشاهدوا الآيات ، ويروا المعجزات ، وينظروا في دلائل الكون. ولكن ما شاء تعالى هداية جميع الناس.

٦ ـ لا يزال الكافرون في كل زمان تصيبهم داهية مهلكة من صاعقة ، أو أسر أو جدب أو زلزال أو بركان ، أو غيرها من العذاب والبلاء كما نزل بالمستهزئين ، وهم رؤساء قريش.

وقد تصيب من حولهم ممن هو قريب منهم ، فيتأثرون بالعذاب.

٧ ـ دلت آية ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ﴾ على تسلية النبي ﷺ والتبصير له على سفاهة قومه ، فإن أقوام سائر الأنبياء استهزءوا بهم ، كما أن قومك يستهزئون بك. ودلت أيضا على تهديدهم ، فإنه تعالى يمهلهم مدة ليؤمن من علم الله أنه يؤمن منهم ، ثم لما حق القضاء أخذهم بالعقوبة ، وكما صنع بمن قبلهم يصنع بمشركي مكة ، وبكل الكفار في كل زمان.

٨ ـ لا مماثلة إطلاقا بين الله تعالى النافع والضارّ بسبب فعل العبد وبين الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ، فالله تعالى هو القادر على كل شيء ، وهو العالم بكل شيء ، وتقدير الآية : أفمن هو قائم على كل نفس بالرقابة والحفظ بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع؟!

٩ ـ ليس للأصنام حقيقة تذكر ، فلا وجود للشركاء مع الله ، وما يعتمد عليه المشركون إن هو إلا مجرد ظن لا يغني من الحق شيئا ، وباطل من القول لا يفيد شيئا ، وكل ما في الأمر أن الشيطان زين لهم سوء اعتقادهم وصدهم عن سبيل الله ودينه الحق ، أو زين لهم ضلالهم وكفرهم.

١٠ ـ من يخذله الله ويعلم أنه لا يهتدي ، فماله من هاد يقدر على هدايته وتوفيقه والأخذ بيده إلى طريق النجاة والسعادة.

١١ ـ للمشركين الصادّين عن الحق وديـن التوحيد العذاب في الدنيا بالقتل والسبي والأسر والذم والإهانة ، وغير ذلك من الأسقام والأمراض والمصائب ، والعذاب الأشد في الآخرة ، وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله ، ولا دافع يدفعه عنهم.

ففي الآية إخبار بأنه تعالى جمع لهم بين عذاب الدنيا ، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق ، وأنه لا دافع لهم عنه ، لا في الدنيا ولا في الآخرة.

صفة الجنّة وموقف أهل الكتاب من نبوّة النّبي ﷺ

وشبهات المشركين حولها

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا واقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ (٣٨) يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ (٣٩)﴾

الإعراب :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ مبتدأ مرفوع ، وخبره إما محذوف ، تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الجنّة ، وهو قول سيبويه ، وإما قوله : ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ﴾ وهو قول الفرّاء.

﴿حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ منصوب على الحال.

البلاغة :

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ﴾ تشبيه مرسل مجمل.

﴿أُكُلُها دائِمٌ ، وَظِلُّها﴾ فيه إيجاز بالحذف ، أي وظلّها دائم ، حذف منه الخبر بدليل السابق.

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾ فيه من المحسنات البديعية ما يسمّى المقابلة.

﴿أَرْسَلْنا رُسُلاً﴾ فيهما جناس اشتقاق.

﴿يَمْحُوا﴾ .. ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بينهما طباق.

﴿قُلْ : إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ فيه قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة ، أي ليس لك إلا الأمر بعبادة الله.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾ من باب التّهييج والإلهاب والبعث للسّامعين على الثّبات في الدّين والتّصلّب فيه ، وعدم التأثّر بالشّبهة بعد التّمسّك بالحجة ، وإلا فكان رسول الله ﷺ من شدّة الشّكيمة بمكان.

المفردات اللغوية :

﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ أي صفتها التي هي مثل في الغرابة. ﴿أُكُلُها﴾ ما يؤكل فيها. ﴿دائِمٌ﴾ لا ينقطع ثمرها ولا يفنى. ﴿وَظِلُّها﴾ واحد الظّلال ، فيه خبر محذوف ، أي دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها. ﴿تِلْكَ عُقْبَى﴾ أي الجنة عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشّرك ومآلهم ومنتهى أمرهم. ﴿وَعُقْبَى الْكافِرِينَ النَّارُ﴾ لا غير ، وفي ترتيب النّظمين إطماع للمتّقين وإقناط للكافرين. ﴿وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني المسلمين من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام وأصحابه من مؤمني اليهود ، ومن آمن من النّصارى ، وهم ثمانون رجلا : أربعون بنجران ، وثمانية باليمن ، واثنان وثلاثون بالحبشة ، أو عامّتهم ، فإنهم كانوا يفرحون بما يوافق كتبهم.

﴿الْأَحْزابِ﴾ جمع حزب : وهو الطّائفة المتحزّبة ، أي المجتمعة لشأن من الشؤون كحرب أو مكيدة ونحوهما ، وهم الذين تحزّبوا عليك من المشركين واليهود ، مثل كعب بن الأشرف اليهودي وأصحابه. ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو ما يخالف شرائعهم أو ما يوافق ما حرّفوه منها ، وكذكر الرّحمن وما عدا القصص. ﴿قُلْ : إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ﴾ جواب للمنكرين ، أي قل لهم : إنّي أمرت فيما

أنزل إليّ بأن أعبد الله وأوحّده ، ولا سبيل إلى إنكاره ؛ وأما ما تنكرونه مما يخالف شرائعكم فليس ببدع اختلاف الشّرائع والكتب الإلهية في جزئيات الأحكام. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا﴾ لا إلى غيره. ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ وإليه مرجعي للجزاء ، لا إلى غيره ، وهذا هو القدر المتّفق عليه بين الأنبياء ، وأما ما عدا ذلك من التّفاريع فمما يختلف بالأعصار والأمم ، فلا معنى لإنكارهم الاختلاف فيه.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ﴾ أي مثل هذا الإنزال المشتمل على أصول الديانات المجمع عليها. ﴿أَنْزَلْناهُ حُكْماً﴾ أي أنزلنا القرآن يحكم بين الناس في القضايا والوقائع بما تقتضيه الحكمة. ﴿عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب ، ليسهل لهم حفظه وفهمه. ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ﴾ أي الكفار فيما يدعونك إليه من ملّتهم على سبيل الافتراض ، كالصّلاة إلى قبلتهم بعد ما حوّلت عنها. ﴿بَعْدَ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ ينسخ ذلك. ﴿وَلِيٍ﴾ ناصر. ﴿واقٍ﴾ حافظ أو مانع من عذابه ، أي مالك من أحد ينصرك ، ويمنع العقاب عنك ، وهو حسم لأطماعهم ، وتهييج للمؤمنين على الثّبات على دينهم.

﴿أَزْواجاً﴾ نساء. ﴿وَذُرِّيَّةً﴾ أولادا ، كما هي لك. ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ﴾ وما صحّ له ولم يكن في وسعه. ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تقترح عليه ، وحكم يلتمس منه. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ بمشيئته وإرادته ، فإنهم عبيد مربوبون لله تعالى. ﴿أَجَلٍ﴾ مدة أو وقت. ﴿كِتابٌ﴾ مكتوب فيه تحديده ، أي لكل وقت وأمد تحديد أو حكم معين يكتب على العباد ، على ما يقتضيه استصلاحهم.

﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه. ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يبقي ما يشاء من الأحكام حسبما تقتضي حكمته ، وقيل : يمحو سيئات التائب ، ويثبت الحسنات مكانها. ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ أي أصل الكتب ، وهو اللوح المحفوظ ، وهو الذي لا يتغيّر منه شيء ، وهو ما كتبه في الأزل ، فما من كائن إلا وهو مكتوب فيه ، أو العلم الإلهي.

سبب النّزول :

نزول الآية (٣٨):

قال الكلبي : عيّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرّجل مهمّة إلا النّساء والنّكاح ، ولو كان نبيّا كما زعم ، لشغله أمر النّبوة عن النّساء ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ ، وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً﴾[1].

---

(١) أسباب النّزول للواحدي ١٥٨

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : قالت قريش حين أنزل : ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ : ما نراك يا محمد تملك من شيء ، لقد فرغ من الأمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ﴾[1].

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى عذاب الكفار في الدّنيا والآخرة ، أتبعه بذكر ثواب المتّقين وما أعدّه للمؤمنين من جنّات النّعيم ، وذلك هو شأن القرآن الكريم ، إذا وصف النّار وعذابها ، ذكر الجنّة ونعيمها ، مثل المذكور في سورة الفرقان : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ، وَأَعْتَدْنا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً. إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ، سَمِعُوا لَها تَغَيُّظاً وَزَفِيراً. وَإِذا أُلْقُوا مِنْها مَكاناً ضَيِّقاً مُقَرَّنِينَ ، دَعَوْا هُنالِكَ ثُبُوراً. لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً واحِداً ، وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً. قُلْ : أَذلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، كانَتْ لَهُمْ جَزاءً وَمَصِيراً. لَهُمْ فِيها ما يَشاؤُنَ خالِدِينَ ، كانَ عَلى رَبِّكَ وَعْداً مَسْؤُلاً﴾ [١١ ـ ١٦].

ثم ذكر تعالى فرح مؤمني أهل الكتاب بتوافق القرآن مع المنزل إليهم من ربّهم ، وإنكار فئة آخرين لذلك.

ثم أورد الله تعالى شبهات المشركين لإبطال نبوّة النّبي ﷺ ، كالطّعن بتعدّد الزّوجات ، وعجزه عن الإتيان بالمعجزات ، فردّ الله عليهم بأن محمدا ﷺ كسائر الأنبياء له أزواج وأولاد ، وأن أمر المعجزات مفوّض إلى الله تعالى ، لا إلى أحد سواه ، وأن إنزال العذاب محدد بأجل معيّن ، ولكلّ أجل كتاب ، أي لكل حادث وقت معيّن.

---

(١) لباب النّقول في أسباب النّزول بهامش تفسير الجلالين للسيوطي ٣٣٤

التّفسير والبيان :

فيما نقصّه عليك ، أو فيما يتلى عليك صفة الجنّة ونعتها الذي يشبه المثل في الغرابة ، تلك الجنّة التي وعدها الله للمتّقين ، ذات أنهار تجري في أرجائها وجوانبها ، وحيث شاء أهلها ، يفجّرونها تفجيرا ، ويوجّهونها حيث أرادوا ، كما قال تعالى : ﴿**مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا ماءً حَمِيماً ، فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ**﴾ [محمّد ٤٧ / ١٥].

﴿**أُكُلُها دائِمٌ وَظِلُّها**﴾ أي ما يؤكل فيها من الفواكه والمطاعم والمشارب لا ينقطع ، ولا يفنى ، وكذلك ظلّها دائم لا ينسخ ولا يزول ، فليس فيها شمس ولا حرّ ولا برد : ﴿**لا يَرَوْنَ فِيها شَمْساً وَلا زَمْهَرِيراً**﴾ [الدّهر ٧٦ / ١٣]. وفي الصّحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف ، وفيه : قالوا : يا رسول الله ، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا ، ثم رأيناك تكعكعت ، فقال : «إنّي رأيت الجنّة ، فتناولت منها عنقودا ، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدّنيا».

وبعد وصف الجنّة بهذه الصّفات الثلاث ، قال تعالى : ﴿**تِلْكَ عُقْبَى ..**﴾ أي تلك الجنّة هي عاقبة ومصير أهل التّقوى ، وعاقبة الكافرين النار ، بسبب كفرهم وذنوبهم ، كما قال تعالى : ﴿**لا يَسْتَوِي أَصْحابُ النَّارِ وَأَصْحابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفائِزُونَ**﴾ [الحشر ٥٩ / ٢٠].

والمراد أن ثواب المتّقين منافع خالصة عن الشّوائب موصوفة بصفة الدّوام. والآية إطماع للمؤمنين المتّقين ، وإقناط للكافرين.

ثم ذكر الله تعالى انقسام أهل الكتاب فئتين من القرآن ، فقال : ﴿**وَالَّذِينَ**

﴿آتَيْناهُمُ﴾ أي والذين آتيناهم الكتاب من اليهود والنّصارى قسمان : فالقائمون بمقتضاه يفرحون بما أنزل إليك من القرآن الكريم ؛ لما في كتبهم من الشواهد على صدقه ، والبشارة به ، كما قال تعالى : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ ، أُولئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [البقرة ٢ / ١٢١] ، وهم جماعة من اليهود كعبد الله بن سلام وأصحابه ، وجماعة من النّصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران.

ومن الأحزاب ، أي ومن جماعة أهل الكتاب الذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ ، مثل كعب بن الأشرف اليهودي ، والسيد والعاقب أسقفيّ نجران وأتباعهم ، من ينكر بعض ما جاءك من الحقّ ، وهو ما لم يوافق شرائعهم أو ما حرّفوه منها.

وأمام هذا الانقسام في الرأي بين اليهود والنّصارى بالنّسبة للقرآن الكريم ذكر تعالى طريق النّجاة والسّعادة ، فقال : ﴿قُلْ : إِنَّما أُمِرْتُ ..﴾ أي قل يا محمد : إنّما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له ، كما أرسل الأنبياء من قبلي ، فإلى سبيله وطاعته وعبادته أدعو الناس ، وإليه وحده مرجعي ومصيري ومصيركم للجزاء والحساب.

وذلك كقوله تعالى : ﴿قُلْ : يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ ، وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ، وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا : اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ٣ / ٦٤].

والآية تشير إلى مبدأ التّوحيد ورفض الشّرك ، كما تشير إلى مبدأ البعث والحساب والجزاء يوم القيامة.

﴿وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين ، وأنزلنا عليهم الكتب ، كذلك أنزلنا عليك القرآن الكريم محكما لا زيغ فيه ، معربا

بلسان قومك ، ليسهل عليهم فهمه وحفظه. وهذا دليل على أن كلّ رسول أرسل بلغة قومه ، كما قال تعالى : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم ١٤ / ٤].

وأراد بالحكم : أنه يفصل بين الحقّ والباطل ، ويحكم في الأمور ، مبيّنا الحلال والحرام ، والشّرائع والأنظمة المؤدية إلى سعادتي الدّنيا والآخرة.

ثم قال تعالى على سبيل الافتراض : ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ ..﴾ أي ولئن اتّبعت آراءهم وجاملتهم ، كالتّوجّه إلى قبلتهم في بيت المقدس بعد تحويلها إلى البيت الحرام ، فليس لك ناصر ينصرك من الله ، ولا حافظ ولا مانع يمنع عنك العقاب ، وينقذك من العذاب. وهذا تعريض بهم على طريقة : (إياك أعني واسمعي يا جارة) وهو وعيد شديد لأهل العلم أن يتّبعوا سبل أهل الضّلالة ، بعد ما عرفوا الدّين الحقّ ، وهو أيضا حسم وقطع لأطماع الكفار ، وتهييج للمؤمنين على الثبات في دينهم. والخطاب للنّبي ﷺ ، والمراد : الأمة.

ثمّ ردّ الله تعالى على طعن المشركين على النّبي ﷺ بتعدّد الزّوجات ، فقال : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلاً ..﴾ أي وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشرا ، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرا ، يأكلون الطّعام ، ويمشون في الأسواق ، ويأتون الزّوجات ، ولهم ذريّة وأولاد ، قال تعالى : ﴿قُلْ : إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ﴾ [الكهف ١٨ / ١١٠] ، وفي الصّحيحين عن أنس أنّ رسول الله ﷺ قال : «أما أنا فأصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوّج النّساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي» ، وروى الإمام أحمد والتّرمذي عن أبي أيوب قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع من سنن المرسلين : التّعطّر ، والنّكاح ، والسّواك ، والحناء».

أما تعدّد زوجات النبي بعد سنّ الأربع والخمسين . وهي سنّ تضعف فيه عادة

الرغبة إلى النّساء . فكان من أجل نشر الدّعوة الإسلامية ، وما تقتضيه المصلحة في التّأليف بين القبائل العربية ، وضرب المثل في الأخلاق والعدل بين الزّوجات والرّأفة ببعض النّساء تعويضا عن زوجها الذي فقدته في الجهاد أو غيره.

ثمّ ردّ الله على طعنهم بعجزه عن تلبية ما اقترحوه من آيات فقال : ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ ..﴾.

أي وما صحّ لرسول ولم يكن في وسعه أن يأتي قومه بمعجزة أو خارق للعادة ، إلا إذا أذن له فيه ، ليس ذلك إليه ، بل إلى الله عزّ وجلّ ، يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، وقد جاءكم القرآن الكريم معجزة خالدة على ممر الزّمان ، فيه تحدّ وإفحام يثبت كونه من عند الله تعالى.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ ..﴾ لكلّ حادث وقت معيّن وزمن محدد ، فالآيات تأتي في وقتها لحكمة وفي زمن يعلمه الله ، وكلّ شيء عنده بمقدار : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٩] ، فقوله تعالى : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ أي لكلّ مدّة كتاب مكتوب ، مثل قوله تعالى : ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام ٦ / ٦٧]. وقال الزّمخشري : لكل وقت حكم يكتب على العباد ، أي يفرض عليهم ما يقتضيه صلاحهم ، والشّرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات. فشرائع الأنبياء السّابقين كموسى وعيسى عليهما السلام ، ثمّ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم جاءت فيما يناسب عصورها ، وأعمار النّاس وآجالهم وأرزاقهم وحدوث أعمالهم لها أوقات محددة لا تتقدّم ولا تتأخّر كما قال تعالى : ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٤].

﴿يَمْحُوا اللهُ ما يَشاءُ وَيُثْبِتُ ..﴾ أي ينسخ الله ما شاء وما يستصوب نسخه من الشّرائع ، ويثبت بدله ما أراد إثباته وما رأى المصلحة في إثباته ، وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه ، أو يتركه غير منسوخ.

أو يمحو من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به.

﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ﴾ أصل كلّ كتاب ، وهو اللوح المحفوظ ؛ لأن كلّ كائن مكتوب فيه ، أو عنده الذي لا يتغيّر منه شيء ، أو علم الله وجميع ما يقع في صحف الملائكة لا يكون إلا موافقا لما يثبت فيه ، فهو الأمّ لذلك.

قال ابن عمر : سمعت النّبي ﷺ يقول : «يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا السّعادة والشّقاوة والموت». وقال ابن عباس : يمحو الله ما يشاء ويثبت إلا أشياء : الخلق والخلق والأجل والرّزق والسّعادة والشّقاوة.

قال ابن كثير : ومعنى الآية أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ، ويثبت منها ما يشاء [١] ، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد والنّسائي وابن ماجه عن ثوبان ، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن الرّجل ليحرم الرّزق بالذّنب يصيبه ، ولا يردّ القضاء إلا الدّعاء ، ولا يزيد في العمر إلا البرّ» وفي رواية الحاكم «الدعاء يرد القضاء ، وإن البر يزيد في الرزق ، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه». وثبت في الصّحيح أن صلة الرّحم تزيد في العمر ، وفي حديث آخر : «إنّ الدّعاء والقضاء ليعتلجان بين السّماء والأرض».

والخلاصة : إن الآية عامة في جميع الأشياء ، والمحو والإثبات وارد فيها ، وأصل الكتاب لا يتغيّر ، واستثناء السّعادة والشّقاء والخلق والخلق والرّزق ؛ لأنها أمور لا تتغيّر ، وهي مما لا يدرك بالرّأي والاجتهاد ، وإنما يؤخذ عن النّبي ﷺ ، فإن صحّ فالقول به يجب[٢].

فقه الحياة أو الأحكام :

يستنبط من الآيات ما يأتي :

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥١٩

(٢) تفسير القرطبي : ٩ / ٣٢٩

١ ـ الجنّة مخلوقة أعدّها الله للمتّقين ، وقال تعالى : ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالْأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران ٣ / ١٣٣].

٢ ـ ثمر الجنّة لا ينقطع ، وظلّها لا يزول ، وهذا ردّ على الجهميّة في زعمهم أن نعيم الجنّة يزول ويفنى.

٣ ـ النّار أيضا مخلوقة أعدّها الله للكافرين المكذّبين ، قال تعالى : ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجارَةُ ، أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٤].

٤ ـ بعض اليهود والنّصارى كابن سلام وسلمان الفارسي ، والذين جاؤوا من الحبشة يفرح بالقرآن الكريم ، لتصديقه كتبهم. ويفرح بذكر الرّحمن لكثرة ذكره في التّوراة.

قال أكثر العلماء : كان ذكر الرّحمن في القرآن قليلا في أول ما نزل ، فلما أسلم عبد الله بن سلام وأصحابه ، ساءهم قلّة ذكر الرّحمن في القرآن ، مع كثرة ذكره في التّوراة ؛ فسألوا النّبي ﷺ عن ذلك ؛ فأنزل الله تعالى : ﴿قُلِ : ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ، أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾ فقالت قريش : ما بال محمد يدعو إلى إله واحد ، فأصبح اليوم يدعو إلهين ، الله والرّحمن! والله ما نعرف الرّحمن إلا رحمن اليمامة ، يعنون مسيلمة الكذّاب ؛ فنزلت : ﴿وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمنِ هُمْ كافِرُونَ﴾ ، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمنِ﴾ ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرّحمن ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾.

٥ ـ ومن الأحزاب يعني مشركي مكّة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنّصارى والمجوس ، أو هم العرب المتحزّبون على النّبي ﷺ ، من ينكر بعض ما في القرآن الكريم ؛ لأن فيهم من كان يعترف ببعض الأنبياء ، وفيهم من كان يعترف بأن الله خالق السّموات والأرض.

٦ ـ دعوة النّبي ﷺ الناس مقصورة على الدّعوة إلى عبادة الله وحده

لا شريك له ، وإلى الإيمان بالبعث والحساب والجزاء ؛ لقوله تعالى : ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أي إلى عبادته أدعو النّاس ، وأرجع في أموري كلّها.

٧ ـ كما أنزل الله تعالى الكتب على الرّسل بلغاتهم ، كذلك أنزل القرآن الكريم إلى النّبي ﷺ عربيّا ، أي بلسان العرب. والمراد بالحكم : ما فيه من الأحكام. وقيل : أراد بالحكم العربي : القرآن كلّه ؛ لأنه يفصل بين الحقّ والباطل ويحكم.

٨ ـ من اتّبع أهواء المشركين في عبادة ما دون الله تعالى ، وفي الاتّجاه إلى غير الكعبة ، بعد أن قام الدّليل العلمي القاطع على صدق رسالة القرآن الكريم والنّبي ﷺ ، ليس له ناصر ينصره ، ولا واق يمنع من عذابه.

٩ ـ الأنبياء قاطبة بشر ، يقضون ما أحلّ الله من شهوات الدّنيا ، ولهم زوجات وأولاد ، وإنما التّخصيص بالوحي.

١٠ ـ آية ﴿وَجَعَلْنا لَهُمْ أَزْواجاً وَذُرِّيَّةً﴾ تدلّ على التّرغيب في النّكاح والحضّ عليه ، وتنهى عن التّبتّل ، وهو ترك النّكاح ، وهذه سنّة المرسلين ، كما نصّت عليه هذه الآية ، والسّنّة واردة بمعناها ، قال ﷺ فيما رواه البيهقي وهو ضعيف : «تزوّجوا فإنّي مكاثر بكم الأمم» وقال فيما رواه الطبراني عن أنس ، وهو ضعيف : «من تزوّج فقد استكمل نصف الإيمان ، فليتّق الله في النّصف الباقي» ، ومعنى ذلك أنّ النّكاح يعفّ عن الزّنى ، والعفاف أحد الخصلتين اللتين ضمن رسول الله ﷺ عليهما الجنّة ، فقال فيما رواه الموطأ وغيره : «من وقاه الله شرّ اثنتين ، ولج الجنّة : ما بين لحييه ، وما بين رجليه» ، وتقدم حديث وأصلّي وأرقد ، وأتزوّج النّساء ، فمن رغب عن سنّتي فليس منّي».

١١ ـ ليس للرّسول بإرادته أن يأتي بمعجزة خارقة للعادة ، وإنّما ذلك بإذن الله ومشيئته.

١٢ ـ لكلّ أجل كتاب ، أي لكلّ أمر قضاه الله كتاب عند الله تعالى. يمحو

الله من ذلك الكتاب ما يشاء أن يوقعه بأهله ويأتي به ، ويثبت ما يشاء ، أي يؤخّره إلى وقته. وعنده أصل الكتاب الذي لا يتغيّر منه شيء ، فنزول العذاب على الكفار ، ونصر المؤمنين لهما وقت معيّن مخصوص.

والمحو يشمل الأقدار ، والدّعاء يفيد في ردّ القدر ، وقد يحرم الإنسان الرّزق بسبب ذنب يرتكبه ، وقد يزداد عمره بصلة الرّحم وبرّ الأقارب. وقد تقدّم في الصّحيحين عن أبي هريرة حديث: «من سرّه أن يبسط له في رزقه ، وينسأ له في أثره ، فليصل رحمه».

وأصول الأشياء لا تتغيّر : وهي الخلق والخلق ، والأجل والرّزق ، والسّعادة والشّقاوة. والذي في علم الله ثابت لا يتبدّل ، مثل قيام السّاعة ، وأجل بقاء النّاس في القبور وكلّ ما كتب من الآجال وغيرها.

سئل ابن عباس عن أمّ الكتاب ، فقال : علم الله ما هو خالق ، وما خلقه عاملون ، فقال لعلمه : كن كتابا ، ولا تبديل في علم الله تعالى.

وقال عكرمة : يمحو ما يشاء بالتّوبة جميع الذّنوب ، ويثبت الذّنوب حسنات ، قال تعال : ﴿**إِلَّا مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً ، فَأُوْلئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ ، وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً**﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧٠].

والخلاصة : عقيدتنا هي أنه لا تبديل لقضاء الله تعالى ، وهذا المحو والإثبات مما سبق به القضاء. والقضاء منه ما يكون واقعا محتوما ، وهو الثّابت ، ومنه ما يكون مصروفا بأسباب ، وهو الممحو. ويكون المحوّ إما بالدّعاء أو بصلة الرّحم وبرّ الأقارب ، أو بالذّنب المقترف. ويشمل المحو نسخ الشّرائع ، فقد تنسخ شريعة بأخرى ، كالنّسخ بالقرآن لما عداه ، لمصلحة وحكمة تقتضيها ، ونسخ التّوجّه إلى بيت المقدس وتحويل القبلة إلى الكعبة ، ونحو ذلك.

والكلّ بقضاء الله وقدره ، والأمور مرهونة بأوقاتها.

مهمة الرّسول تبليغ الشّريعة والله شاهد له ومحاسب وحاكم بين

العباد ومحبط مكر الكفار

﴿وَإِنْ ما نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ (٤٣)﴾

الإعراب :

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ مَنْ﴾ : إما اسم موصول ، و ﴿عِنْدَهُ﴾ : صلته ، وإما نكرة موصوفة ، و ﴿عِنْدَهُ﴾ الصفة. ومحله : إما الجرّ عطفا على لفظ المجرور في قوله تعالى: ﴿كَفى بِاللهِ﴾ ، وإما الرّفع عطفا على موضعه ؛ لأن موضعه الرّفع ؛ لأن تقديره : كفى الله. وذلك مثل : ﴿هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ﴾ [فاطر ٣٥ / ٣] إما بالجرّ حملا على اللفظ ، أو بالرّفع حملا على الموضع. و ﴿عِلْمُ الْكِتابِ﴾ مرفوع بالظّرف ﴿عِنْدَهُ﴾ لأن الظّرف إذا وقع صلة أو صفة فإنه يرفع كما يرفع الفعل. ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ محل ذلك النّصب على الحال ، أي يحكم نافذا حكمه.

البلاغة :

﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ قصر إضافي من قصر الموصوف على الصفة ، أي ليس لك إلا صفة التّبليغ.

المفردات اللغوية :

﴿وَإِنْ ما﴾ فيه إدغام نون. «إن» الشّرطية في «ما» المزيدة. ﴿نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ به من العذاب في حياتك ، وهو فعل الشّرط ، وجوابه محذوف ، أي فذاك. ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم. ﴿فَإِنَّما عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ ما عليك إلا البلاغ. ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسابُ﴾ إذا صاروا إلينا ، فنجازيهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أي أهل مكة. ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي أرض الحياة التي يعيشون فيها. ﴿أَطْرافِها﴾ جوانبها ، والنقص منها بما نفتحه على المسلمين منها. ﴿وَاللهُ يَحْكُمُ﴾ في خلقه بما يشاء. ﴿لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ لا رادّ ولا مبطل له ، والمعقّب : الذي يتعقّب الشيء فيبطله بالنّقد ، ويقال لصاحب الحقّ : معقّب ؛ لأنه يتابع غريمه المدين بالطّلب ، والمعنى : أنه حكم للإسلام بالإقبال وعلى الكفر بالإدبار ، وذلك كائن لا يمكن تغييره. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ يحاسبهم عما قريب في الآخرة بعد ما عذّبهم بالقتل والإجلاء في الدنيا.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم بأنبيائهم ، كما مكروا بك. والمكر : إرادة الشيء في خفية. ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ أي لا يؤبه بتدبير دون تدبيره ، فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره. ﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيعدّ جزاءها ، وهذا هو المكر «التّدبير» كلّه ؛ لأنه يأتيهم به من حيث لا يشعرون. ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ المراد به كلّ كافر. ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي العاقبة المحمودة في الدّار الآخرة ، ألهم ، أم للنّبي ﷺ وأصحابه.

﴿شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ على صدقي. ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ﴾ أي المطّلع على حقيقة الكتاب الإلهي من مؤمني اليهود والنّصارى. ومن هاهنا : لابتداء الغاية.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى اقتراح المشركين إنزال آيات واستعجال العذاب ، ذكر هنا احتمال وقوع ما توعّدوا به ، وبيان أن وظيفة الرّسول ﷺ التّبليغ ، وأن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت ، بفتح المسلمين جوانب الأرض ، وأن الله يحكم في خلقه ما يريد.

ثم أبان أنّ مكر هؤلاء المشركين ومن تقدّمهم لا يضرّ المسلمين شيئا ، فالنّصر سيكون لهم ، والهزيمة والعذاب لغيرهم.

ثمّ ردّ الله على اليهود الذين أنكروا رسالة النّبي ﷺ بأنه شاهد له بالصّدق ، وحسبه شهادة الله ومن آمن من أهل الكتاب.

التفسير والبيان :

إن أريناك يا محمد في حياتك بعض الذي نعد أعداءك المشركين وغيرهم من الخزي والنّكال في الدّنيا ، أو نتوفينّك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربّك ، وإنما أرسلناك لتبلّغهم رسالة الله ، وقد فعلت ما أمرت به ، وليس عليك التّوصل إلى صلاحهم ، فإنما علينا حسابهم وجزاؤهم على الخير والشّر ، كقوله تعالى : ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ ، إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ، فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذابَ الْأَكْبَرَ ، إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ ، ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ**﴾ [الغاشية ٨٨ / ٢١ ـ ٢٦].

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ ..**﴾ أي أنسي هؤلاء المشركون في مكة أو شكّوا أنّا نأتي الأرض ، فنفتحها لك أرضا بعد أرض ، وتنتصر عليهم ، وتمتد رقعة الإسلام ، وتتقلّص رقعة الكفر ، ويدخل النّاس في دين الله أفواجا ، كقوله تعالى : ﴿**أَفَلا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ**﴾ ﴿**نَنْقُصُها مِنْ أَطْرافِها ، أَفَهُمُ الْغالِبُونَ**﴾ [الأنبياء ٢١ / ٤٤].

وتدلّ الآية في نطاق العلم الحديث على كون الأرض مفلطحة بيضاوية ، ليست كرة تامّة التّدوير ، بل هي ناقصة الأطراف.

وأما في الماضي فيراد بالآية كما أوضحت ظهور الإسلام على الشّرك قرية بعد قرية ، كقوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى**﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٢٧]. وقال ابن عباس : المراد موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصّلحاء والأخيار. ولكن اللائق الرّأي الأول ، كما قال الواحدي.

﴿**وَاللهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**﴾ أي والله يقضي القضاء المبرم ، ولا يرد حكمه

النّافذ ، فلا رادّ لقضائه ، ولا يستطيع أحد أن يطعن فيه أو يبطله أو ينقضه ، ومن حكم الله تعالى أن الأرض يرثها عباده الصّالحون بالعدل والإصلاح والعمران.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ أي والله محاسب عباده قريبا في الآخرة ، وعقابه آت لا محالة ، فلا تستعجل عقابهم ، فإن الله معذّبهم في الآخرة بعد أن عذّبهم في الدّنيا بالقتل والأسر والخزي والذّل والنّكال.

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ..﴾ هذا تسلية للنّبي ﷺ على مكائد قومه ، وتصبير له على أذاهم ، فإن النّصر له في النّهاية حتما ، أي لقد مكر الكفار السابقون برسلهم ، وأرادوا إخراجهم من بلادهم ، وعذّبوهم ، كما فعل النّمرود بإبراهيم ، وفرعون بموسى ، واليهود بعيسى ، وكما فعلت عاد وثمود وإخوان لوط ، فمكر الله بهم ، وجعل العاقبة للمتّقين ، أي دبّر لهم ما أوقعهم في الهلاك بسبب ظلمهم وفسادهم.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ أي لا يؤبه بتدبير دون تدبيره ، ولا يضرّ مكر الماكرين إلا بإذنه تعالى ، ولا يؤثر إلا بمشيئته وتقديره ، فلا خوف إلا منه.

وهذا كقوله تعالى في مكر المشركين بالنّبي ﷺ قبيل الهجرة : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْماكِرِينَ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٠] ، وقوله سبحانه : ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً ، وَمَكَرْنا مَكْراً ، وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْناهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ، فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خاوِيَةً بِما ظَلَمُوا﴾ [النّمل ٢٧ / ٥٠ ـ ٥٢].

﴿يَعْلَمُ ما تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السّرائر والضّمائر ، وسيجزي كلّ عامل بعمله ، فينصر أولياءه ، ويعاقب الماكرين.

وهذا وعيد شديد وتهديد لكلّ كافر ماكر ، وتسلية للنّبي ﷺ وأمان له من مكرهم.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ ..﴾ أي وسيتحقق الكفار يوم القيامة لمن العاقبة المحمودة من الفريقين: المؤمنين والكافرين ، حيث تكون العاقبة لأتباع الرّسل في الدّنيا والآخرة ، ففي الدّنيا النّصر ، وفي الآخرة الجنّة.

ثمّ ردّ الله على منكري نبوّة النّبي ﷺ ، فقال تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ..﴾ أي يقول الكافرون الجاحدون نبوّتك : لست رسولا مرسلا من عند الله ، تدعو النّاس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وتنقذهم من الظّلمات إلى النّور ، ومن عبادة الأصنام والأوثان ، إلى عبادة الله الواحد الأحد ، ومن الظّلم والفساد إلى العدل والصّلاح.

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن ، فقال له عليه الصّلاة والسّلام : «هل تجدون في الإنجيل رسولا؟» ، قال : لا ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا : لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ الآية.

﴿قُلْ : كَفى بِاللهِ ..﴾ قل يا محمد لهم : حسبي وكفايتي أن الله شاهد لي بصدق رسالتي ، ومؤيّد دعوتي ، بما أنزله عليّ من القرآن المعجز ، ومن الآيات البيّنات الدّالّة على صدقي ، كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَكَفى بِاللهِ شَهِيداً﴾ [الفتح ٤٨ / ٢٨].

وكفاني أيضا بعد شهادة الله شهادة علماء أهل الكتاب الذين آمنوا من اليهود والنّصارى ، بما وجدوه لديهم في التّوراة والإنجيل من بشارة برسالتي ، وعلامات لا تنطبق على من سواي ، وهم عبد الله بن سلام ـ اليهودي الأصل ـ وأصحابه.

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم

يشهدون بالحقّ ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام ، والجارود ، وتميم الدّاري ، وسلمان الفارسي رضي الله عنهم .

وذلك كما دلّت آية أخرى : ﴿الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَعْرِفُونَهُ كَما يَعْرِفُونَ أَبْناءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ١٤٦].

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ إنّ مهمّة الرّسول مقصورة على إبلاغ الرّسالة للأمّة ، وليس عليه هداهم وصلاحهم.

٢ ـ الله تعالى هو الذي يحقّق الأحداث والوقائع ، فينجز الوعد والوعيد ، وينزل العقاب الشّديد متى شاء ، وقد يكون ذلك في حال حياة النّبي ﷺ أو بعد وفاته.

٣ ـ الله تعالى هو المتكفّل القائم بحساب العباد على ما قدّموا من خير أو شرّ.

٤ ـ إن امتداد رقعة الإسلام واتّساع الفتوحات الإسلامية ، وانحسار الكفر وتضييق رقعة بلاد الكافرين بيد الله تعالى وحده.

٥ ـ إن الأرض ليست تامّة الكروية ، وإنما هي مفلطحة بيضاوية ناقصة الأطراف والتّكوير.

٦ ـ لا رادّ لقضاء الله تعالى ولا معقّب لحكمه ، ولا يستطيع أحد تعقيب حكمه بنقص أو نقض أو إبطال أو تغيير.

٧ ـ الله تعالى سريع الحساب من العباد ، أي الانتقام من الكافرين ، سريع الثّواب للمؤمن.

٨ ـ تخيب أو تفشل كلّ مخططات الأعداء الكافرين ومكائدهم أمام تدبير الله

تعالى ، ولا يضرّ مكرهم إلا بإذنه تعالى ، وفي هذا تسلية للنّبي ﷺ ، وشدّ من عزيمته ، وبيان أن النّصر في النّهاية له ، وأنّ الدّائرة ستدور على الكفار.

٩ ـ يعلم الله ما تعمل به كلّ نفس من خير وشرّ ، فيجازي عليه.

١٠ ـ سيتحقق الكفار لمن العاقبة المحمودة ، أي عاقبة دار الدّنيا ثوابا وعقابا ، أو لمن الثّواب والعقاب في الدّار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد.

١١ ـ إن إنكار مشركي العرب واليهود رسالة النّبي ﷺ وقولهم له : لست بنبيّ ولا رسول ، وإنما أنت متقوّل ، لما لم يأتهم بما اقترحوا من الآيات ، إن إنكارهم لا يغض من الحقيقة شيئا ، ولا يغيّر من الواقع ، وكفى بالله شهيدا على صدقه ، وحسبه شهادة مؤمني أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسي ، وتميم الدّاري ، والنّجاشي وأصحابه.

لكن قال ابن جبير : السّورة مكيّة ، وابن سلام أسلم بالمدينة بعد هذه السّورة ، فلا يجوز أن تحمل الآية على ابن سلام ، فمن عنده علم الكتاب جبريل ، وهو قول ابن عباس. وقال الحسن ومجاهد والضّحّاك : هو الله تعالى.

وأما من قال : إنهم جميع المؤمنين فصدق ؛ لأن كلّ مؤمن يعلم الكتاب ، ويدرك وجه إعجازه ، ويشهد للنّبي ﷺ بصدقه. والكتاب على هذا هو القرآن الكريم [١].

ويجوز أن يكون المراد به : الذي حصل عنده علم التّوراة والإنجيل ، يعني : أن كلّ من كان عالما بهذين الكتابين ، علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد ﷺ ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب ، كان شاهدا على أنّ محمدا ﷺ رسول حقّ من عند الله تعالى [٢].

---

(١) تفسير القرطبي : ٩ / ٣٣٦ ـ ٣٣٧

(٢) تفسير الرّازي : ١٩ / ٧٠

بسم الله الرّحمن الرّحيم

سورة إبراهيم عليه‌السلام

مكية وهي اثنتان وخمسون آية.

تسميتها :

سمّيت سورة إبراهيم لاشتمالها على جزء من قصّة إبراهيم أبي الأنبياء عليه‌السلام ، يتعلّق بحياته في مكّة ، وصلته بالعرب وإسماعيل ، وأنّ إبراهيم وإسماعيل بنيا البيت الحرام ، وأنهما كانا يدعو ان الله تعالى بالهداية ، وأن إبراهيم دعا أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام ، وأن يرزق زوجته وابنه إسماعيل اللذين أسكنهما في مكّة من الثّمرات ، وأن يجعله هو وذريّته مقيمي الصّلاة ، وذلك في الآيات [٣٥ ـ ٤١].

مناسبتها لما قبلها :

هذه السّورة امتداد لما ذكر في سورة الرّعد ، وتوضيح لما أجمل فيها ، فكلّ منهما تحدّث عن القرآن ، ففي سورة الرّعد ذكر تعالى أنه أنزل القرآن حكما عربيا [الآية ٣٧] ، وهنا ذكر حكمة ذلك والغاية من تنزيل القرآن ، وهي إخراج الناس من الظّلمات إلى النّور بإذن الله [الآية : ١].

وكلّ منهما ذكر فيه تفويض إنزال الآيات الكونية إلى الله وبإذنه ، فقال تعالى في سورة الرّعد : ﴿وَما كانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتابٌ﴾ [٣٨] ، وهنا ذكر ذلك على لسان الرسل : ﴿ما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [١١].

وفي كليهما ذكرت الآيات الكونية من رفع السّماء بغير عمد ومدّ الأرض وتسخير الشّمس والقمر ، وجعل الرّواسي في الأرض ، وخلق الثّمرات المختلفة الطّعوم والألوان.

وتعرّضت السّورتان لإثبات البعث ، وضرب الأمثال للحقّ والباطل ، والكلام على مكر الكفار وكيدهم وعاقبته ، والأمر بالتّوكّل على الله تعالى.

ما اشتملت عليه هذه السّورة :

اشتملت سورة إبراهيم على ما يأتي :

١ ـ إثبات أصول العقيدة من الإيمان بالله وبالرّسل وبالبعث والجزاء ، وإقرار التّوحيد ، والتّعريف بالإله الحقّ خالق السّموات والأرض ، وبيان الهدف من إنزال القرآن الكريم ، وهو إخراج النّاس من الظّلمات إلى النّور ، واتّحاد مهمّة الرّسل ودعوتهم في أصول الاعتقاد والفضائل وعبادة الله والإنقاذ من الضّلال.

٢ ـ الوعد والوعيد : ذمّ الكافرين ووعيدهم على كفرهم وتهديدهم بالعذاب الشّديد ، ووعد المؤمنين على أعمالهم الطّيّبة بالجنان [الآية ٢ ، والآية ٢٣ ، والآيات ٢٨ ـ ٣١].

٣ ـ الحديث عن إرسال الرّسل بلغات أقوامهم ، لتسهيل البيان والتّفاهم [الآية ٤].

٤ ـ تسلية الرّسول ﷺ ببيان ما حدث للرّسل السّابقين مع أقوامهم : قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم ، والتّذكير بعقابهم ، كما في الآيات [٩ ـ ١٢] ، والآيات [١٣ ـ ١٨].

٥ ـ ابتدأ من بين قصص بعض الأنبياء المتقدّمين عليهم السلام بمحاورة موسى لقومه ودعوته إيّاهم لعبادة الله تعالى [الآيات ٥ ـ ٨].

٦ ـ دعوات إبراهيم عليه السلام بعد بناء البيت الحرام لأهل مكة بالأمان والرّزق وتعلّق القلوب بالبيت الحرام ، وتجنيبه وذريّته عبادة الأصنام ، وشكره ربّه على ما وهبه من الأولاد بعد الكبر ، وتوفيقه وذريّته لإقامة الصّلاة ، وطلبه المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين [الآيات ٣٥ ـ ٤١]. ٧ ـ بيان مشهد من مشاهد الحوار بين أهل النّار في عالم الآخرة [الآيات ١٩ ـ ٢٣].

٨ ـ ضرب الأمثال لكلمة الحقّ والإيمان وكلمة الباطل والضّلال بالشّجرة الطّيّبة والشّجرة الخبيثة [الآيات ٢٤ ـ ٢٧].

٩ ـ التّذكير بأهوال القيامة وتهديد الظالمين وبيان ألوان عذابهم [الآيات : ٤٢ ـ ٥٢].

١٠ ـ بيان الحكمة من تأخير العذاب ليوم القيامة ، وهو ما ختمت به السّورة [الآيتان : ٥١ ـ ٥٢].

الغاية من إنزال القرآن وذم الكافرين

وكون الرسول بلسان قومه

﴿الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ

﴿(٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (٣) وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤)﴾

الإعراب :

﴿الر﴾ إما خبر مبتدأ محذوف تقديره : هذه الر ، وإما في موضع نصب على تقدير: الزم أو اقرأ الر ، وتكون جملة : ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ﴾ مفسّرة.

﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ كِتابٌ﴾ : خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هذا كتاب. و ﴿أَنْزَلْناهُ﴾:جملة فعلية في موضع رفع صفة ﴿كِتابٌ﴾. ﴿إِلى صِراطِ﴾ بدل من قوله ﴿إِلَى النُّورِ﴾.

﴿اللهِ الَّذِي﴾ بالجر بدل من قوله ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ ويقرأ بالرفع ، فيكون مبتدأ ، وما بعده خبره ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، تقديره : هو الله الذي له ما في السموات. ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ﴾ نعت للكافرين.

﴿عِوَجاً﴾ منصوب على المصدر في موضع الحال. وقيل : إنه مفعول «يبغون» واللام محذوفة من المفعول الأول ، تقديره : ويبغون لها عوجا.

﴿فَيُضِلُّ اللهُ﴾ مرفوع على الاستئناف والاقتطاع من الأول.

البلاغة :

﴿مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ استعارة ، استعار الظلمات للكفر والضلال ، والنور للهدى والإيمان. ﴿أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ﴾ جناس اشتقاق.

﴿فَيُضِلُ﴾ .. ﴿وَيَهْدِي﴾ بينهما طباق.

الحميد .. شديد .. بعيد فيها سجع.

المفردات اللغوية :

﴿الر﴾ الابتداء بالحروف الهجائية في بعض السور لبيان طبيعة تكوين القرآن وأنه من جنس الحروف التي ينطق بها العرب ، فهي للتحدي وبيان إعجاز القرآن ، وأنه من كلام الله ، بدليل العجز عن الإتيان بأقصر سورة من مثله ، بالرغم من تكوينه من حروف اللغة العربية.

﴿كِتابٌ﴾ أي هو كتاب. ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ بدعائك إياهم إلى ما تضمنه. ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾ من أنواع الضلال والكفر. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ إلى الهدى والإيمان. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ بأمره وتيسيره وتسهيله وتوفيقه. ﴿إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى طريق الغالب ، المحمود المثنى عليه من نفسه ومن عباده. وإضافة الصراط إلى الله تعالى إما لأنه مقصده أو المظهر له. والتخصيص بالوصفين المذكورين للتنبيه على أنه لا يذل سالكه ، ولا يخيب سابله.

﴿لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ﴾ ملكا وخلقا وعبيدا. ﴿وَيْلٌ﴾ هلاك وعذاب. ﴿يَسْتَحِبُّونَ﴾ يختارون. ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ بتعويق الناس عن الإيمان ، واعتناق دين الإسلام. ﴿وَيَبْغُونَها عِوَجاً﴾ يطلبون السبيل معوجة ، أو يطلبون لها زيغا واعوجاجا وانحرافا عن الحق ليقدحوا فيه. ﴿أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أي الكافرون ضلوا عن الحق وانحرفوا عنه. ﴿بِلِسانِ﴾ بلغة. ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ ليفهمهم ما أتى به ، ويوضح لهم ما آمروا به ، فيفقهوه عنه بيسر وسرعة ، ثم ينقلوه لغيرهم ، فإنهم أولى الناس بالدعوة ، وأحق بالإنذار.

﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ﴾ فيخذله عن الإيمان. ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ بالتوفيق له. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ في ملكه ، فلا يغلب على مشيئته. ﴿الْحَكِيمُ﴾ في صنعه ، فلا يهدي ولا يضل إلا لحكمة.

التفسير والبيان :

هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد ، وهو القرآن العظيم ، لتخرج الناس به مما هم فيه من ظلمات الكفر والضلال والغي والجهل ، إلى نور الإيمان والهدى والرشد ، بما اشتمل عليه من أصول الحكم السديد ، والدعوة إلى الحياة الكريمة والمدنية والحضارة السامقة ، كما قال تعالى : ﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ، يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُماتِ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٧] وقال عزّ وجلّ : ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلى عَبْدِهِ آياتٍ بَيِّناتٍ ، لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الحديد ٥٧ / ٩].

وقد دلت الآية على أن القرآن موصوف بكونه منزلا من عند الله تعالى.

﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بتوفيقه وتيسيره ، فهو الهادي بإرسال نور الهداية إلى قلوبهم. لكن أسند الفعل ﴿لِتُخْرِجَ﴾ إلى النبي ﷺ لأنه الداعي والمبلّغ.

﴿إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ إلى الطريق المستقيم ، طريق الله العزيز الذي لا يغالب ، بل هو القاهر لكل ما سواه ، الحميد أي المحمود في جميع أفعاله وأقواله ، وشرعه ، وأمره ونهيه ، والصادق في خبره.

﴿اللهِ الَّذِي ..﴾ أي الإله الذي له كل ما في السموات والأرض خلقا وملكا وعبيدا وتصريفا وتدبيرا. وتكرار هذه الصفة كثيرا في القرآن للتنبيه على عظمة الخالق ، ولإعمال النظر في المخلوقات ، والإفادة منها.

﴿وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ ..﴾ أي هلاك وعذاب شديد يوم القيامة لمن كفر برسالتك وجحد بوحدانية الله. وهذا وعيد شديد لهم.

ثم وصفهم الله تعالى بصفات ثلاث بقوله :

١ ـ ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ..﴾ أي الذين يختارون الحياة الدنيا على الآخرة ، ويقدمونها ويؤثرونها عليها ، ويعملون للدنيا ، ونسوا الآخرة وتركوها.

٢ ـ ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي ويمنعون من اتباع الرسل ، ويعوقون عن الإيمان بالله ، ويصرفون عن الإسلام كل من أراده.

٣ ـ ﴿وَيَبْغُونَها عِوَجاً﴾ أي ويحبون أن تكون سبيل الله عوجا مائلة ، منحرفة عن الحق ، لتوافق أهواءهم وأغراضهم ، وهي في واقعها مستقيمة في نفسها لا تقبل الانحراف عن الحق. والسبيل : تذكر وتؤنث.

قال في الكشاف : الأصل في الكلام أن يقال : ويبغون لها عوجا ، فحذف الجار وأوصل الفعل.

ومن أمثلة ذلك في العصر الحديث الانصراف عن تطبيق الحدود الشرعية والقصاص ، بحجة قسوتها ، وعدم ملاءمتها لروح العصر ، ومنافاتها للإنسانية : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾ [الكهف ١٨ / ٥]. وقد

أدى هذا الاتجاه إلى كثرة الجرائم ، حتى إنه في كل ثانية يقع في بريطانيا مثلا خمس عشرة ألف جريمة ، وأما في أمريكا فأكثر من ذلك.

﴿أُولئِكَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ﴾ أولئك الكفار الموصوفون بتلك الصفات السابقة في ضلال بعيد كل البعد عن الحق ، وفي جهل سحيق ، لا يرجى لهم . والحالة هذه . صلاح ولا فلاح.

وبعد أن بين تعالى مقاصد القرآن وأثره في الهداية ، بيّن أنه سبيل ميسر للاهتداء به ، لكونه بلغة قوم الرسول ، فقال : ﴿وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ ..﴾ هذا من لطفه تعالى أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ، ليفهموا عنهم ما يريدون ، وما أرسلوا به إليهم ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا : لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٤] وأخرج الإمام أحمد عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يبعث الله عزّ وجلّ نبيا إلا بلغة قومه».

﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ..﴾ أي أنه بعد البيان وإقامة الحجة على الناس يكون الناس فريقين : فريق يضله الله عن وجه الهدى ، لإيغاله في الكفر واجتراحه السيئات والآثام ، وعناده ، وفريق يهديه الله إلى الحق ، ويشرح صدره للإسلام ، فيتبع سبيل الرشاد. وهذا كلام مستأنف وليس بمعطوف على ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ لأن الإرسال إنما وقع للتبيين ، لا للإضلال.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ والله سبحانه القوي الذي لا يغلب ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، والحكيم في صنعه وأفعاله ، فيضل من يستحق الإضلال ، ويهدي من هو أهل لذلك ، فلا يفعل شيئا إلا على وفق الحكمة والعلم.

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ﴾ دليل على أن القرآن منزل من عند الله

تعالى ، وأن مهمته إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلالة والجهل إلى نور الإيمان والهدى والعلم ، وذلك بتوفيق الله إياهم ولطفه بهم. وفيه إنعام على الرسول بتفويضه هذا المنصب العظيم ، وعلى الناس لإرساله لهم من خلصهم من ظلمات الكفر ، وأرشدهم إلى نور الإيمان.

٢ ـ قال المعتزلة : في هذه الآية دلالة على إبطال القول بالجبر من جهات ثلاث :

أحدها ـ إخراج الكفر من الكافر بالكتاب.

وثانيها ـ أنه أضاف الإخراج من الظلمات إلى النور إلى الرسول ﷺ.

وثالثها ـ الإخراج من الكفر بالكتاب بتلاوته عليهم ليتدبروه وينظروا فيه ، فيتوصلوا إلى كونه تعالى عالما قادرا حكيما ، وإلى أن القرآن معجزة صدق الرسول ﷺ ، فيقبلوا منه كل ما أداه إليهم من الشرائع ، باختيارهم.

قال أهل السنة : إن المؤثر الأول في صدور الفعل من العبد وترجيح جانب الوجود على جانب العدم هو الله تعالى.

وفعل العبد مخلوق لله تعالى ؛ لقوله سبحانه : ﴿**بِإِذْنِ رَبِّهِمْ**﴾ أي بمشيئته وتخليقه.

٣ ـ طرق الكفر والجهل والبدعة كثيرة ، وطريق الخير واحد ؛ لأنه تعالى قال : ﴿**لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ**﴾ فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهو جمع ، وعبر عن الإيمان والهداية بالنور ، وهو لفظ مفرد.

٤ ـ قدم ذكر العزيز على الحميد ؛ لأن الواجب أولا في العلم بالله : العلم بكونه تعالى قادرا ، ثم العلم بكونه عالما ، ثم العلم بكونه غنيا عن الحاجات ، والعزيز : هو القادر ، والحميد : هو العالم الغني.

٥ ـ لله ما في السموات وما في الأرض ملكا وعبيدا واختراعا وخلقا ، وهذا يدل على أنه تعالى غير مختص بجهة العلو البتة ؛ لأن كل ما سماك وعلاك فهو سماء ، وبما أن كل ما في السموات فهو ملكه ، فهو منزه عن الحصول في جهة فوقية. وأما قوله تعالى : ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّماءِ﴾ [الملك ٦٧ / ١٦] فالمراد به سلطانه وقدرته.

وتدل الآية أيضا على الحصر ، أي كل ما في السموات والأرض له ، لا لغيره ، وهو يدل على أنه لا مالك إلا الله ، ولا حاكم إلا الله عَزَّوَجَلَّ .

ولهذا عطف عليه وعيد الكفار بقوله : ﴿وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ مِنْ عَذابٍ شَدِيدٍ﴾ لأنهم تركوا عبادة الله تعالى الذي هو مالك السموات والأرض وما فيهما ، إلى عبادة ما لا يملك ضرا ولا نفعا ، ويخلق ولا يخلق ، ولا إدراك لها ولا فعل.

٦ ـ استحقاق الكافرين الهلاك والعذاب في نار جهنم لصفات ثلاث : هي تفضيلهم أو إيثارهم الدنيا على الآخرة ، ومنعهم الناس من الوصول إلى سبيل الله ودينه ، وهو المنهج القويم والطريق المستقيم ، وطلبهم لسبيل الله زيغا وميلا واعوجاجا ، لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم ، فهم في ضلال بعيد عن الحق.

٧ ـ من فضل الله وتيسيره الاهتداء بهدايته إرسال كل رسول إلى قومه بلغتهم ، ليبين لهم أمر دينهم ، وليفهموا منه شرائع الله ، ويفقهوها عنه بيسر وسرعة ، ثم ينقلوها لغيرهم.

وإرسال جميع الرسل بلغة قومهم يقتضي تقدم حصول اللغات على إرسال الرسل ، وهو يدل على أن اللغات حاصلة بالاصطلاح ، وليست توقيفية ، كما ذكر الرازي.

٨ ـ قوله : ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشاءُ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ﴾ رد على القدرية في

نفوذ المشيئة ، وإخبار بأن الضلال والهداية من الله تعالى ، فهو تعالى يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته حسبما يعلم من استعداد العبد واختياره ، وليس على ذلك الرسول غير التبليغ والتبيين ، ولم يكلف أن يهدي ، بل الهدى بيد الله على ما سبق قضاؤه.

وقال الزمخشري على طريقة الاعتزال : والمراد بالإضلال : التخلية ومنع الألطاف ، وبالهداية : التوفيق واللطف ، وكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان [١].

ويؤكد الرأي الأول لأهل السنة ما روي : أن أبا بكر وعمر أقبلا في جماعة من الناس ، وقد ارتفعت أصواتهما ، فقال ﷺ : «ما هذا؟» فقال بعضهم : يا رسول الله ، يقول أبو بكر : الحسنات من الله ، والسيئات من أنفسنا ، ويقول عمر : كلاهما من الله ، وتبع بعضهم أبا بكر ، وبعضهم عمر ، فتعرف الرسول ﷺ ما قاله أبو بكر ، وأعرض عنه حتى عرف ذلك في وجهه ، ثم أقبل على عمر ، فتعرف ما قاله ، وعرف البشر في وجهه. ثم قال : «أقضي بينكما كما قضى به إسرافيل بين جبريل وميكائيل ، قال جبريل مثل مقالتك يا عمر ، وقال ميكائيل مثل مقالتك يا أبا بكر ، فقضاء إسرافيل : أن القدر كله خيره وشره من الله تعالى ، وهذا قضائي بينكما» [٢].

ثم ذكر الرازي تأويلات ثلاثة للآية ، بعد أن قال : لا يمكن حمل الآية على أنه تعالى يخلق الكفر في العبد [٣] :

الأول ـ أن المراد بالإضلال : هو الحكم بكونه كافرا ضالا ، كما يقال : فلان يكفّر فلانا ويضلله ، أي يحكم بكونه كافرا ضالا.

---

(١) الكشاف : ٢ / ١٧١

(٢) تفسير الرازي : ١٩ / ٨٠

(٣) المرجع السابق ٨١

والثاني ـ أن يكون الإضلال : عبارة عن الذهاب بهم عن طريق الجنة إلى النار ، والهداية : عبارة عن إرشادهم إلى طريق الجنة.

والثالث ـ أنه تعالى لما ترك الضال على إضلاله ، ولم يتعرض له ، صار كأنه أضله ، والمهتدي لما أعانه بالألطاف ، صار كأنه هو الذي هداه.

والخلاصة : إنه لا إجبار على الإيمان والكفر ، ولا يخلق العبد كافرا أو لا يخلق الكفر في العبد ، وإنما المراد بالإضلال والهداية بيان طريقي الشر والخير ، كما قال تعالى : ﴿وَهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد ٩٠ / ١٠].

مهمة الرسول موسى عليه‌السلام ونصائحه لقومه

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ (٧) وَقالَ مُوسى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)﴾

الإعراب :

﴿أَنْ أَخْرِجْ أَنْ﴾ : إما أن يكون لها موضع من الإعراب ، وهو النصب ، وتقديره : بأن أخرج قومك ، فحذف حرف الجر ، فاتصل الفعل به ، وإما ألا يكون لها موضع من الإعراب ، وتكون مفسّرة بمعنى أي ، مثل ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا﴾ [ص ٣٨ / ٦].

﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ﴾ أتى بالواو هنا ، ليدل على أن الثاني غير الأول ، وحذفت في غير هذا الموضع في سورة البقرة ، ليدل على البدل ، وأن الثاني بعض الأول ، أي أنه في سورة البقرة تفسير لما سبق ، وهنا غير تفسير ، وإنما التذبيح نوع آخر من العذاب غير الأول.

﴿إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ حذفت الفاء من جواب الشرط للشهرة.

البلاغة :

﴿شَكَرْتُمْ﴾ و ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بينهما طباق.

﴿صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ صيغة مبالغة فيهما.

شديد .. حميد فيهما سجع.

المفردات اللغوية :

﴿بِآياتِنا﴾ الجمهور على أنها الآيات التسع التي أجراها الله على يد موسى عليه السلام ، يعني اليد والعصا وسائر معجزاته. وقيل : هي الجراد والقمل والضفادع ونحوها. ﴿أَنْ أَخْرِجْ﴾ أي بأن أخرج ، أو بمعنى أي كأن في الإرسال معنى القول. ﴿قَوْمَكَ﴾ بني إسرائيل. ﴿مِنَ الظُّلُماتِ﴾ الكفر والجهالات. ﴿إِلَى النُّورِ﴾ الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به ﴿وَذَكِّرْهُمْ﴾ عظهم ، ﴿بِأَيَّامِ اللهِ﴾ وقائعه التي وقعت على الأمم السابقة ، وأيام العرب : حروبها. وقيل : بنعمائه وبلائه. ﴿صَبَّارٍ﴾ كثير الصبر على البلاء والطاعة. ﴿شَكُورٍ﴾ أي كثير الشكر للنعم.

﴿وَإِذْ قالَ﴾ واذكر حين قال موسى. ﴿يَسُومُونَكُمْ﴾ يذيقونكم العذاب السيء الشديد. ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْناءَكُمْ﴾ المولودين. ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ﴾ يبقونهم أحياء للذل والعار ؛ لقول بعض الكهنة : إن مولودا يولد في بني إسرائيل يكون سبب ذهاب ملك فرعون. ﴿وَفِي ذلِكُمْ﴾ الإنجاء أو العذاب. ﴿بَلاءٌ﴾ إنعام أو ابتلاء واختبار.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ﴾ واذكر حين أعلم وآذن. ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ نعمتي بالتوحيد والطاعة. ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ جحدتم النعمة بالكفر والمعصية ، لأعذبنكم ، دل عليه ﴿إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾.

﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن خلقه. ﴿حَمِيدٌ﴾ مستحق للحمد في ذاته ، محمود في صنعه بهم ، تحمده

الملائكة وتنطق بنعمه المخلوقات ، فما ضررتم بالكفران إلا أنفسكم ، حيث حرمتموها مزيد الإنعام ، وعرضتموها للعذاب الشديد.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أنه أرسل محمدا ﷺ إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأن إرساله نعمة له ولقومه ، أتبع ذلك بذكر قصة موسى عليه السلام ، ثم بقصص أنبياء آخرين مع أقوامهم ، تنبيها على أن المقصود من بعثة الرسل واحد : وهو إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وتصبيرا للرسول على أذى قومه ، وإرشادا له إلى كيفية معاملتهم ومكالمتهم.

التفسير والبيان :

كما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم من الظلمات إلى النور ، كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بالآيات التسع ، وأمرناه قائلين له : أخرج قومك من الظلمات إلى النور ، أي أدعهم إلى الخير ، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال ، إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

وعظهم بأيام الله ، أي بوقائعه التي مرت على أمم الأنبياء السابقين ، وكيف نجا المؤمنون ، وهلك الكافرون!!

أو ذكّرهم بنعم الله عليهم في إخراجهم من أسر فرعون وقهره ، وظلمه وغشمه ، وإنجائه إياهم من عدوهم ، وفلقه لهم البحر ، وتظليله إياهم الغمام ، وإنزاله عليهم المن والسلوى ، وغير ذلك من النعم.

روى الإمام أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم حديثا مرفوعا عن ابن عباس عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ قال : بنعم الله تعالى.

وأيام الله في عهد موسى : إما محنة وبلاء : وهي الأيام التي كان فيها

بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده ، وإما نعمة كإنجائهم من عدوهم ، وفلق البحر لهم ، وإنزال المن والسلوى عليهم.

﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ ..﴾ أي إن في ذلك التذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته ، وإن فيما صنعنا ببني إسرائيل حين أنقذناهم من بطش فرعون ، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين لعبرة ، لكل كثير الصبر على الطاعة والبلاء أو الضراء ، شكور في حال النعمة والرفاه والسرور. قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطي شكر. وجاء في صحيح البخاري عن رسول الله ﷺ أنه قال : «إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته ضرّاء صبر ، فكان خيرا له ، وإن أصابته سرّاء ، شكر ، فكان خيرا له».

فعلى المسلم أن يكون صابرا شكورا ، يصبر عند البلاء والمحنة ، ويشكر عند الرخاء والنعمة.

﴿وَإِذْ قالَ مُوسى ...﴾ واذكر حين قال موسى لقومه : يا قوم ، تذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون ، وما كانوا يذيقونكم من العذاب والإذلال ، ويكلفونكم من الأعمال ما لا تطيقون ، وكانوا يذبحون أبناءكم المولودين الصغار ، خوفا من ظهور ولد يكون سببا في تدمير ملك فرعون ، كما فسرت الرؤيا لفرعون مصر ، وكانوا يتركون الإناث أحياء ذليلات مستضعفات ، وذلك من أعظم البلاء ، فأنقذكم الله من عذابهم ، وهذه نعمة عظيمة.

﴿وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ أي وفيما ذكرت لكم اختبار عظيم من ربكم ، سواء في حال النقمة ، أو في حال النعمة ، ليعرف الإنسان أيشكر أم يكفر؟! كما قال تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنا تُرْجَعُونَ﴾ الأنبياء ٢١ / ٣٥] وقال سبحانه : ﴿وَبَلَوْناهُمْ بِالْحَسَناتِ وَالسَّيِّئاتِ ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ١٦٨].

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ ..﴾ واذكروا يا بني إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده لكم ، وهو قوله : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها.

أخرج البخاري عن أنس حديثا فيه : «ومن ألهم الشكر لم يحرم الزيادة».

ويحتمل أن يكون المعنى : وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ [الأعراف ٧ / ١٦٧].

﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ ..﴾ أي ولئن جحدتم النعم وسترتموها ، فلم تؤدوا حقها من الشكر. ﴿إِنَّ عَذابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي إن عقابي أليم وقعة ، شديد تأثيره وألمه ، في الدنيا بزوال تلك النعم ، وسلبها عنهم ، وفي الآخرة بالعقاب على كفرانهم ، والمراد بالكفر هما : الكفران. جاء في الحديث الثابت الذي رواه الحاكم عن ثوبان : «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه».

﴿وَقالَ مُوسى ..﴾ أي وأعلن موسى مبدأ أساسيا في الدين ، حينما لا حظ منهم أمارات الكفر والعناد ، وهو أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الإنسان ، أما الله فهو غني عن عباده ، فقال : إن تجحدوا نعمة الله عليكم أنتم وجميع من في الأرض من الثقلين : الإنس والجن ، فإن الله غني عن شكر عباده. وهو المحمود ، وإن كفر به من كفر ، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧] وقال تعالى : ﴿فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ ، وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن ٦٤ / ٦] وقال سبحانه : ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧].

جاء في صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ . فيما يرويه عن ربه عزوجل . أنه قال : «يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على

أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنّكم ، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ، ما نقص ذلك في ملكي شيئا ، يا عبادي ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا في صعيد واحد ، فسألوني ، فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك من ملكي شيئا ، إلا كما ينقص المخيط إذا دخل البحر».

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يلي :

١ ـ إن المقصود من بعثة الأنبياء واحد ، وهو أن يسعوا في إخراج الناس من ظلمات الكفر والضلالات إلى أنوار الإيمان والهدايات.

٢ ـ على الناس الاعتبار والاتعاظ بأيام الله تعالى ، أي الوقائع العظيمة التي وقعت فيها ، وتذكر نعم الله عليهم.

وذلك جمع بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، فالترغيب والوعد : أن يذكرهم النبي موسى أو غيره ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل ، في سائر ما سلف من الأيام. والترهيب والوعيد : أن يذكرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ، ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام ، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب ، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ، ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

٣ ـ إن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارا شكورا. ففي حال المحنة والبلية يصبر ، وفي حال المنحة والعطية يشكر ، وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب ألا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين : الصبر أو الشكر. روي عن النبي ﷺ أنه قال فيما رواه البيهقي عن أنس ، وهو ضعيف: «الإيمان نصفان :

فنصف في الصبر ، ونصف في الشكر» ثم تلا هذه الآية : ﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٤ ـ لقد تعرض بنو إسرائيل في زمن فرعون للحالتين : المحنة والنعمة ، ولكنهم لم يقدروا النعمة ولم يشكروها ، ولم يصبروا عند المحنة ، وذلك ملحوظ من نصح موسى عليه السلام لهم حينما رأى أمارات الكفر والعناد فيهم.

٥ ـ إن شكر النعمة سبب لزيادتها ، وكفرانها سبب لزوالها ، فالآية نص واضح في أن الشكر سبب المزيد ، وأن جحود النعمة سبب النقص والزوال ، فمن اشتغل بشكر نعم الله ، زاده الله من نعمه ، ومن كفر بنعمة الله فهو جاهل ، والجهل بالله سبب لأعظم أنواع العقاب والعذاب ، فالمراد بقوله : ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ الكفران ، لا الكفر.

والشكر : هو عبارة عن الاعتراف بنعمة المنعم ، مع تعظيمه وتوطين النفس على هذه الطريقة.

والخلاصة : الاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد ، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة ، والاشتغال بشكر النعمة يستوجب زيادتها.

٦ ـ إن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود الا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران. أما المعبود المشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران.

والمراد من قول موسى : ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ ..﴾ بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات ، لمنافع عائدة إلى العابد ، لا لمنافع عائدة إلى المعبود ، بدليل قوله : ﴿فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ أي لا يلحقه بذلك نقص ، بل هو الغني ، وهو المحمود في جميع الأحوال.

بعض أخبار الرسل السابقين مع أممهم

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللهُ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إِنَّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى قالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (١٠) قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَما كانَ لَنا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَما لَنا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكِّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢)﴾

الإعراب :

﴿وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ ما﴾ : استفهامية في موضع رفع مبتدأ ، وخبره ﴿لَنا﴾ وأن في ﴿أَلَّا﴾ في موضع نصب على تقدير حذف حرف الجر ، تقديره : وما لنا في ألا نتوكل على الله ، وهو في موضع نصب على الحال ، والتقدير : أيّ شيء ثبت لنا غير متوكلين.

البلاغة :

﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ جناس اشتقاق.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا﴾ استفهام تقرير ، وهذا من كلام موسى عليه السلام ، أو كلام مستأنف أو مبتدأ من الله. ﴿نَبَؤُا﴾ خبر. ﴿وَثَمُودَ﴾ قوم صالح. ﴿لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ جملة اعتراضية ، والمعنى : أنهم لكثرتهم لا يعلم عددهم إلا الله ، لذا قال ابن مسعود رضي الله عنه : كذب النسابون. ﴿بِالْبَيِّناتِ﴾ الحجج الواضحة على صدقهم. ﴿فَرَدُّوا﴾ أي الأمم. ﴿أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ﴾ أي فعضوها غيظا مما جاءت به الرسل عليهم السلام ، كقوله تعالى : ﴿عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾. ﴿بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي في زعمكم. ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة ، أي الاضطراب والقلق ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ استفهام إنكاري ، أي لا شك في توحيده ، للدلائل الظاهرة عليه. ﴿فاطِرِ﴾ خالق ومبدع على أكمل نظام. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ إلى طاعته. ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ مِنْ﴾ : صلة زائدة ، أو تبعيضية ، والمراد على الأول : أن الإيمان أو الإسلام يغفر به ما قبله ، وعلى الثاني يكون القصد هو إخراج حقوق العباد.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ بلا عذاب ﴿إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أجل الموت. ﴿قالُوا : إِنْ﴾ أي ما. ﴿عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ من الأصنام. ﴿بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي برهان أو حجة ظاهرة قوية على صدقكم. ﴿إِنْ نَحْنُ﴾ أي ما نحن. ﴿يَمُنُّ عَلى مَنْ يَشاءُ﴾ بالنبوة. ﴿وَما كانَ لَنا﴾ وما ينبغي. ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي بأمره ؛ لأنا عبيد مربوبون لله تعالى ، فليس في قدرتنا الإتيان بالآيات. وفيه دليل على أن النبوة عطائية ، وأن ترجيح بعض الجائزات على بعض بمشيئة الله تعالى. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يثقوا به ، في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم ، عمموا الأمر للإشعار بما يوجب التوكل ، وقصدوا به أنفسهم أولا.

﴿وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ﴾ أي لا مانع لنا من ذلك ، ولا عذر لنا في ألا نتوكل عليه. ﴿وَقَدْ هَدانا سُبُلَنا﴾ التي نعرفه بها ونعلم أن الأمور كلها بيده. ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلى ما آذَيْتُمُونا﴾ على أذاكم ، وهو جواب قسم محذوف ، أكدوا به توكلهم وعدم مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فليثبت المتوكلون على ما استحدثوه من توكلهم الناشئ عن إيمانهم.

المناسبة :

هذا تذكير بأيام الله بانتقامه من الأمم المكذبة بالرسل ، بعد تذكير موسى لقومه بما أنعم الله عليهم من نعم ، ودفع عنهم من نقم ، وبما وعد به تعالى

الشاكرين بالزيادة ، والجاحدين بالعذاب ، وبأن الكفران لا يضرّ إلا أهله.

ويحتمل أن يكون المذكور هنا من تتمة كلام موسى وخطابا منه لقومه ، ليخوفهم بمثل هلاك من تقدم ، وهذا رأي ابن جرير ، ويحتمل أن يكون ذلك خطابا جديدا مستأنفا من الله لقوم موسى وغيرهم ، لتذكيرهم أمر القرون الأولى. والمقصود إنما هو العبرة بأحوال المتقدمين ، وهذا حاصل على التقديرين.

إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ ، وهذا قول الرازي ، وقال ابن كثير : والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة ، فإنه قد قيل : إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة ، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه ، وقصصه عليهم ، لا شك أن تكون هاتان القصتان في التوراة [1].

التفسير والبيان :

ألم يأتكم خبر أقوام من قبلكم : وهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل ، مما لا يحصي عددهم إلا الله عزّ وجلّ . وضمير الخطاب في ﴿**يَأْتِكُمْ**﴾ لأمة النبي ﷺ ، وضمائر : جاءتهم رسلهم ، فردوا أيديهم في أفواههم للكفار.

جاءت هؤلاء رسلهم بالمعجزات والحجج والدلائل الواضحة الباهرة القاطعة ، التي تثبت صدقهم ودعواهم الرسالة عن الله ، لإخراجهم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والهداية.

﴿**فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْواهِهِمْ**﴾ أي إلا أن هؤلاء القوم عضوا أناملهم من شدة الغيظ ، لما جاءهم به الرسل ، أي اغتاظوا منهم وعادوهم ونفروا منهم ، كما فعل العرب مع النبي ﷺ بدليل قوله سبحانه : ﴿**عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنامِلَ مِنَ الْغَيْظِ** ،

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ٨٨ ، تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٢٤

﴿قُلْ : مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران ٣ / ١١٩]. والمراد أنهم كذبوا واستهزءوا ولم يؤمنوا. فهو ـ كما قال أبو عبيدة والأخفش ـ مثل.

﴿وَقالُوا : إِنَّا كَفَرْنا ..﴾ أي وقالوا للرسل : إنا كفرنا بما أرسلتم به من الآيات ، أي كفرنا بدلالتها على صدق رسالتكم.

وإنا لفي شك موقع في الريبة والقلق والاضطراب مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله وحده ، وترك ما سواه.

وتساءل الرازي بقوله : فإن قيل : كيف تنازلوا إلى الشك في صحة قولهم بعد تصريحهم بالكفر برسالتهم؟ ثم أجاب بأنهم أرادوا أنهم كافرون في الواقع وبنحو جازم متيقن بدعوتهم ، فإن لم نكن جازمين فلا أقل من أن نكون شاكين مرتابين في صحة نبوتكم ، وعلى التقديرين فلا سبيل إلى الاعتراف بنبوتكم.

﴿قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ : أفي وجود الله شك؟! فإن الفطرة تقرّ بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به. وهل في تفرده بالألوهية ووجوب عبادته شك وهو الخالق لجميع الموجودات ، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له؟! فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تقربهم من الله زلفى.

وأما دليل الفطرة فثابت كما أخبر النبي ﷺ بقوله فيما رواه ابن عدي والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه ، أو يمجّسانه».

وأما دليل الخلق فهو أمر حسي مشاهد ، وهو ما نبّه إليه بقوله مباشرة : ﴿فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي كيف تشكون في الله ، وهو خالق السموات والأرض ومبدعهما على غير مثال سبق ، وعلى هذا النظام المحكم البديع؟!

وهو تعالى عدا كونه خالقا وهو دليل وجوده ، هو كامل الرحمة لقوله :

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان الكامل به ، من أجل أن يغفر لكم في الدار الآخرة ذنوبكم . على أن من صلة زائدة . أو بعض ذنوبكم . على أن من تبعيضية . فهو يغفر الذنوب المتعلقة به ، لا الذنوب التي لها صلة بحقوق العباد. وهذا هو الغرض الأول من الدعوة إلى الإيمان.

ويلاحظ أنه تعالى في كل موضع ذكر فيه مغفرة ذنوب الكفار ، جاء بلفظ (من) وفي كل موضع ذكر فيه مغفرة ذنوب المؤمنين ، جاء بغير لفظ (من). مثال الحالة الأولى : قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح ٧١ / ٣ . ٤] وقوله سبحانه : ﴿يا قَوْمَنا أَجِيبُوا داعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ ، يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣١] لأنه يدعوهم إلى الإيمان الذي هو أصل الدين.

ومثال الحالة الثانية : قوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿قُلْ : إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ ، فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران ٣ / ٣١] وقوله عزت أسماؤه : ﴿ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [الصف ٦١ / ١١ . ١٢] لأنه بعد توافر الإيمان لا تكون المغفرة إلا إلى المعاصي.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هذا هو الغرض الثاني من الدعوة إلى الإيمان ، وهو الإمهال والتأخير إلى وقت محدد معين في علم الله تعالى ، وهو منتهى العمر ، إن حدث الإيمان ، وإلا عاجلكم الهلاك والعذاب بسبب الكفر.

فالإيمان يتحقق به رحمتان أو نعمتان وهما مغفرة الذنوب والإمهال إلى نهاية الأعمار.

ثم ذكر الله تعالى ردّ تلك الأمم على رسلها من نواح ثلاث هي :

١ . ﴿قالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ أي كيف نتبعكم بمجرد قولكم ، ولما نر منكم معجزة ، فما أنتم إلا مثلنا في البشرية ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تخصصون بالنبوة دوننا ، ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلا ، لبعث من جنس أفضل.

٢ ـ ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾ أي وأنتم تريدون أن نترك ما وجدنا عليه آباءنا ، بهذه الدعوى التي لا دليل على صحتها.

٣ ـ ﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾ أي فأتونا بأمر خارق نقترحه عليكم ، أو بحجة ظاهرة تدلّ على صحة ادعائكم النبوة ، فنحن لا نؤمن إلا بالحسيّات ، أما خلق السموات والأرض وما فيهما من عجائب ، فلا نعقلهما ، ولا يصلح دليلا على صحة ما تقولون.

ثم ذكر الله ما ردّ به الأنبياء على شبهاتهم الثلاث ، وهو المصادقة والتسليم للشبهتين الأولى والثانية ، وإسناد الأمر إلى الله في الثالثة ، فقال : ﴿قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ ..﴾ أي قالت الرسل للأمم : ما نحن إلا بشر مثلكم كما ذكرتم ، نأكل ونشرب وننام ونمشي في الأسواق ونبحث عن الرزق ، ولكن الله سبحانه يتفضل على من يشاء من عباده بالرسالة والنبوة : ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [الأنعام ٦ / ١٢٤] وقد منّ الله علينا بالرسالة.

وأما تقليدكم الآباء لمجرد كونهم آباء فهذا شيء لا يقبله العقل.

وأما طلبكم الحجة والبرهان على صدق رسالتنا ، والإتيان بسلطان على وفق ما سألتم ، بالرغم من المعجزات التي ظهرت لنا ، فأمره إلى الله ، ولا نتمكن من الإتيان بسلطان إلا بمشيئة الله وإرادته ، ولا نقدر عليه.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أي على جميع المؤمنين أن يتكلوا على الله في جميع أمورهم ، لدفع شرّ عدوهم ، والصبر على معاداتهم.

ثم أكدوا اعتمادهم على الله فقالوا : ﴿وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ ..﴾ أي وكيف لا نتوكل على الله الذي هدانا إلى سبيل المعرفة ، وأرشدنا إلى طريق النجاة؟! وما يمنعنا من التوكل عليه ، وقد هدانا لأقوم الطرق وأوضحها وأبينها.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ ..﴾ أي ولنصبرن على إيذائكم لنا بالكلام السيء والأفعال السخيفة.

ثم مدحوا التوكل فقالوا : ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أي فليستمر وليثبت المتوكلون من المؤمنين على توكلهم على الله ، وليثقوا به ، وليتحملوا كل أذى في سبيله ، ولا يبالوا بشيء صعب مهما كان.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ على الناس الاعتبار بأحوال المتقدمين الذين كذبوا رسلهم ، وسخروا منهم ، واستهزءوا بهم ، فكان عاقبتهم الدمار والهلاك.

٢ ـ كانت مواقف الكفار من أنبيائهم على مراتب ثلاث :

المرتبة الأولى ـ أنهم سكتوا عن قبول قول الأنبياء عليهم السلام ، وحاولوا إسكات الأنبياء عن تلك الدعوى.

والمرتبة الثانية ـ أنهم صرحوا بكونهم كافرين بتلك البعثة.

والمرتبة الثالثة ـ أنهم أخيرا وعلى الأقل صاروا شاكين مرتابين في صحة النبوة.

وكل ذلك دليل منهم على عدم الاعتراف بالنبوة.

٣ ـ أقام الأنبياء الأدلة على وجود الله ووحدانيته بأن الفطرة السليمة شاهدة على ذلك ، وبأن خلق السموات والأرض على غير مثال سبق الدال على معنى الحدوث والإبداع والتسخير للمخلوقات دليل قاطع على وجود الخالق وألوهيته وتفرده بوجوب العبادة له ، فلا يبقى شك لدى عاقل بوحدانية الله تعالى ، بعد

أن تبين وأقرت الأمم بأنه الخالق لجميع الموجودات ، وبأنه يستحيل وجود شيء كدار مثلا يتميز بالإبداع والترتيب والنظام والنقش الجميل من دون موجد عالم حكيم ، وإذا كان الله هو الخالق ، فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له.

٤ ـ الله تعالى فاطر السموات والأرض متصف أيضا بكمال الرحمة والكرم والجود ، بدليل أن الغرض من دعوة الناس إلى الإيمان به وبتوحيده أمران : الأول ـ مغفرة الذنوب والخطايا والآثام ، وفيها تطهير للنفس يبوئها لدخول الجنان التي لا يستحقها إلا الأطهار. والثاني ـ تأخير الناس إلى نهاية أعمارهم وهو الموت ، فلا يعذبهم في الدنيا.

٥ ـ كانت أجوبة الكفار واهية مشتملة على شبهات ثلاث :

الأولى ـ التساوي في الإنسانية يمنع وجود التفاضل بينهم ، بأن يكون الواحد منهم رسولا من عند الله ، مطلعا على الغيب ، مخالطا لزمرة الملائكة ، والباقون غافلون عن كل هذه الأحوال ، وهذا معنى قولهم : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾.

والثانية ـ التمسك بطريق التقليد : وهي أنهم وجدوا آباءهم وعلماءهم وكبراءهم متفقين على عبادة الأوثان ، ويعبد أنهم لم يعرفوا بطلان هذا الدين ، وهذا معنى قولهم : ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونا عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا﴾.

والثالثة ـ المعجز لا يدل على الصدق أصلا ، وإن سلّم أنه يدل على الصدق ، فإن ما جاء به الرسل أمور معتادة ، وليست من باب المعجزات الخارجة عن قدرة البشر ، وهذا معنى قولهم : ﴿فَأْتُونا بِسُلْطانٍ مُبِينٍ﴾.

٦ ـ كان ردّ الأنبياء على تلك الشبهات الثلاث ما يأتي :

أما الشبهة الأولى : ﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا﴾ فجوابها أن التماثل في البشرية

والإنسانية لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة ؛ لأنه منصب يمنّ الله به على من يشاء من عباده.

وأما الشبهة الثانية : وهي توافق السلف على ذلك الدين ، مما يدل على كونه حقا ، فجوابها : أن التمييز بين الحق والباطل ، والصدق والكذب عطية من الله تعالى وفضل منه ، ولا يبعد أن يخص بعض عبيده بهذه العطية ، وأن يحرم الجمع العظيم منها.

وأما الشبهة الثالثة : وهي أنا لا نرضى بهذه المعجزات التي أتيتم بها ، وإنما نريد معجزات قاهرة قوية ، فالجواب عنها أن الأشياء التي طلبتموها أمور زائدة ، والحكم فيها لله تعالى ، فإن أظهرها فله الفضل ، وإن لم يخلقها فله العدل ، ولا يطلب منه شيء بعد توافر قدر الكفاية.

٧ ـ لا سبيل أمام الأنبياء إلا الصبر على الأذى والاعتصام بالله وتفويض الأمر إليه والتوكل التام عليه ، فإن الصبر مفتاح الفرج ، ومطلع الخيرات ، والتوكل على الله والاعتماد على فضله محقق للنصر والفتوح.

وفائدة تكرار الأمر بالتوكل : أمر أنفسهم به أولا ثم أمر أتباعهم به ، فبعد أن أمروا أنفسهم بالتوكل على الله في قوله : ﴿**وَما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ**﴾ أمروا أتباعهم بذلك وقالوا : ﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ وهو يدل على أن الآمر بالخير لا يؤثر قوله إلا إذا أتى بذلك الخير أولا.

تهديد الكفار لرسلهم بالطرد أو الردة والوحي بأن العاقبة للأنبياء

﴿وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي وَخافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ وَما هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ (١٧) مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلى شَيْءٍ ذلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٨)﴾

الإعراب :

﴿وَمِنْ وَرائِهِ﴾ الهاء : إما عائدة على الكافر ، ويكون معنى ﴿مِنْ وَرائِهِ﴾ أي قدّامه ، كقوله تعالى : ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف ١٨ / ٧٩] أي قدّامهم ؛ وإما عائدة على العذاب ، ويكون المعنى : إن وراء هذا العذاب عذاب غليظ.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ ..﴾ في إعرابه أربعة أوجه :

الأول ـ أنه مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره : فيما يتلى عليكم مثل الذين كفروا.

الثاني ـ أنه مبتدأ على تقدير حذف مضاف ، والخبر : ﴿كَرَمادٍ﴾ ، تقديره : مثل أعمال الذين كفروا مثل رماد.

الثالث ـ أنه مبتدأ أول ، و ﴿أَعْمالُهُمْ﴾ : مبتدأ ثان ، و ﴿كَرَمادٍ﴾ : خبر المبتدأ الثاني ، والجملة من المبتدأ الثاني وخبره خبر عن المبتدأ الأول.

الرابع ـ أنه مبتدأ ، و ﴿أَعْمالُهُمْ﴾ : بدل منه ، و ﴿كَرَمادٍ﴾ : خبره.

﴿فِي يَوْمٍ عاصِفٍ عاصِفٍ﴾ في تقديره وجهان : إما في يوم ذي عصوف ، كقولهم : رجل نابل ورامح أي ذو نبل ورمح ، وإما في يوم عاصف ريحه ، كقولك : مررت برجل حسن وجهه ، ثم يحذف الوجه إذا علم المعنى.

البلاغة :

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ استعارة لما يغشاه من كروب وشدة ، فقد يوصف المغموم بأنه في حالة موت.

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ .. أَوْ لَتَعُودُنَ﴾ بينهما طباق.

﴿وَعِيدِ﴾ و ﴿عَنِيدٍ﴾ و ﴿صَدِيدٍ﴾ و ﴿الْبَعِيدُ﴾ فيها سجع ﴿أَعْمالُهُمْ كَرَمادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ تشبيه تمثيلي ، وجه الشبه فيه : منتزع من متعدد.

المفردات اللغوية :

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنا أَوْ لَتَعُودُنَ﴾ حلفوا على أن يكون أحد الأمرين : إما إخراجهم للرسل أو عودتهم إلى ملتهم ﴿أَوْ لَتَعُودُنَ﴾ لتصيرن ، وتستعمل عاد بمعنى صار ، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ولمن آمن معه ، فغلبوا الجماعة على الواحد. ﴿فِي مِلَّتِنا﴾ الملة : الشريعة والدين ﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ﴾ أي أوحى إلى الرسل ﴿لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ، على إضمار القول ، أو على إجراء الإيحاء مجراه ؛ لأنه نوع منه.

﴿الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم ، كقوله تعالى : ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا﴾ [الأعراف ٧ / ١٣٧]. ﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى الموحى به وهو إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿لِمَنْ خافَ مَقامِي﴾ موقفي وقيامي للحساب أو مقامه بين يدي ﴿وَخافَ وَعِيدِ﴾ أي وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء أي استنصر الرسل بالله على قومهم ، وقيل : واستفتح الكفار على الرسل ظنا منهم بأنهم على الحق. ﴿وَخابَ﴾ خسر وهلك ﴿كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ كل متعاظم متكبر عن طاعة الله ، معاند للحق المخالف له ، مجانب له.

﴿مِنْ وَرائِهِ﴾ أي أمامه ، ومن بين يديه ، وبعد ذلك ينتظره ﴿جَهَنَّمُ﴾ يدخلها

﴿وَيُسْقى﴾ فيها ﴿مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾ هو ما يسيل من جلود أو جوف أهل النار ، مختلطا بالقيح والدم ﴿يَتَجَرَّعُهُ﴾ سقيته جرعة بعد جرعة ، بالشدة والقهر ﴿يُسِيغُهُ﴾ يستطيبه أو يزدرده ، لقبحه وكراهته ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ﴾ أي تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جانب ، وتغشاه أنواع الكروب والعذاب ﴿وَمِنْ وَرائِهِ﴾ بعد ذلك العذاب ﴿عَذابٌ غَلِيظٌ﴾ قوي متصل ، وشديد غير منقطع.

﴿مَثَلُ﴾ صفة ﴿أَعْمالُهُمْ﴾ الصالحات كصلة الرحم والصدقة على الفقراء في عدم الانتفاع بها ﴿كَرَمادٍ﴾ أثر النار بعد احتراقها ﴿عاصِفٍ﴾ شديد الريح ، أي أعمالهم كالرماد الذي عصفت به الرياح العاتية ، فجعلته هباء منثورا ، لا يقدر عليه ﴿لا يَقْدِرُونَ﴾ أي الكفار ﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ عملوا في الدنيا ﴿عَلى شَيْءٍ﴾ لا يجدون له ثوابا ، لعدم توافر شرطه : وهو الإيمان. ﴿ذلِكَ﴾ إشارة إلى ضلالهم مع حسبانهم أنهم محسنون ﴿هُوَ الضَّلالُ﴾ الهلاك ﴿الْبَعِيدُ﴾ الغاية في البعد عن الحق.

المناسبة :

بعد أن أرشد الله تعالى الأنبياء إلى التوكل عليه والاعتماد على حفظه وصيانته ، في دفع شرور أعدائهم ، ذكر موقف الكفار العصبي المبالغ في السفاهة ، وهو التهديد بأحد أمرين : الإخراج والطرد من البلاد ، أو العودة إلى الملة الوثنية القديمة المتوارثة ، وهذا هو الشأن في كل زمان ، يعتمد فيه أهل الباطل والفسق والظلم على القوة والبطش لقوتهم ، ويستغلون ضعف أهل الحق لقلتهم. ولكن قدرة الله فوق كل شيء ، والله غالب على أمره ، فجعل العاقبة والنصر في النهاية للمتقين وأن الهزيمة للكافرين ، وأعلمهم بالعذاب في الآخرة ، وتلك سنة الله في خلقه مع كل الأمم والرسل.

ثم ضرب الله مثلا لأعمال الكافرين ، بالرماد الذي عصفت به الرياح الهوج ، فجعلته هباء منثورا ، لعدم توافر شرطه وهو الإيمان.

التفسير والبيان :

هذا تطور طبيعي للحوار والصراع بين الرسل والأمم الكافرة ، فبعد أن

أفلست الأمم في مناقشتها ، وهزمت حجتها أمام حجة الرسل وبيانهم ، لم يجدوا سبيلا إلا تأزم الوضع والدخول في صدام وعمل عدواني ، فتوعدوا رسلهم بأحد أمرين :

إما الطرد والإخراج والنفي من البلاد ، وإما العودة إلى ملتهم وشرعهم الموروث عن الآباء والأجداد ، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنا ، أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾ [الأعراف ٧ / ٨٨] وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش : ﴿وَإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ ، لِيُخْرِجُوكَ مِنْها ، وَإِذاً لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ [الإسراء ١٦ / ٧٦] وقال سبحانه في إلجاء النبي إلى الهجرة : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ..﴾ [الأنفال ٨ / ٣٠].

والسبب في هذا التهديد والوعيد : اغترار الكفار بقوتهم وكثرتهم ، وقلة عدد المؤمنين وضعف عددهم. وأما قولهم ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنا﴾ فلا يعني أن الرسل كانوا وثنيين ، وإنما كانوا في ظاهر الأمر معهم ، من غير إظهار مخالفة ، فظن القوم أنهم كانوا على دينهم.

﴿فَأَوْحى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ ..﴾ أي فأوحى الله إلى رسله قائلا لهم : لنهلكن الظالمين المشركين ، ولنسكننكم أرضهم وديارهم من بعد هلاكهم ، عقوبة لهم على تهديدهم وإنذارهم بالطرد والإبعاد.

وهذا تهديد ووعد من الله للمشركين في مقابل تهديدهم الرسل ، وشتان بين التهديدين ، كما قال سبحانه : ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ﴾ [الصافات ٣٧ / ١٧٠ ـ ١٧٣] وقال تعالى : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء ٢١ / ١٠٥] وآيات كثيرة أخرى في المعنى.

﴿ذلِكَ لِمَنْ خافَ مَقامِي ..﴾ أي ذلك الموحى به من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم ، أي ذلك الأمر حق ، لمن خاف موقفي للحساب أو مقامه بين يدي ، وخاف وعيدي بالعذاب والعقاب ، فخشي لقائي ، واتقاني بطاعتي ، وتجنب سخطي وغضبي. وهذا هو سبب النصر والوحي المذكور.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا ..﴾ أي واستنصرت الرسل بالله على أممهم أو أقوامهم ، أي على أعدائهم ، كما قال تعالى : ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال ٨ / ١٩] والمراد أنهم سألوا من الله الفتح على أعدائهم ، أو القضاء بينهم وبين أعدائهم ، كما قال تعالى : ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وَبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِ﴾ [الأعراف ٧ / ٨٩] والضمير يعود للرسل أو الأنبياء عليهم السلام .

وقيل : يعود الضمير على الكفار ، أي واستفتح الكفار على الرسل ، ظنا منهم بأنهم على الحق ، والرسل على الباطل. وقيل : للفريقين ، فإنهم كلهم سألوه أن ينصر المحق ، ويهلك المبطل ، كما قال تعالى في شأن استفتاح الأمم على أنفسها : ﴿اللهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ ، أَوِ ائْتِنا بِعَذابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال ٨ / ٣٢].

ولكن كانت النتيجة أن النصر للمتقين والخيبة والخسارة والهلاك للمشركين ، فقال سبحانه: ﴿وَخابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي وخسر وهلك كل متكبر متعاظم عن طاعة الله ، معاند للحق ، منحرف عنه ، كقوله تعالى : ﴿أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ، مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ ، مُعْتَدٍ مُرِيبٍ ، الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ ، فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ﴾ [ق ٥٠ / ٢٤ . ٢٦].

﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ﴾ أي أمام هذا الجبار العنيد جهنم له بالمرصاد تنتظره ، كما قال تعالى: ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾ [الكهف ١٨ / ٧٩] أي أمامهم.

﴿وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ﴾ أي ليس له في النار شراب إلا ما يسيل من جلود أهل النار ولحومهم من ماء مختلط بالقيح والدم ، كما قال تعالى : ﴿هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾ [ص ٣٨ / ٥٧ ـ ٥٨] وهذا أي الحميم حار في غاية الحرارة ، وهذا أي الغساق بارد في غاية البرد والنتن.

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾ أي يتحساه جرعة بعد جرعة ، ولا يكاد يزدرده ، لكراهته ، وسوء طعمه ولونه وريحه ، مما يدل على التألم حين ابتلاعه ، كما قال تعالى : ﴿وَسُقُوا ماءً حَمِيماً ، فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ﴾ [محمد ٤٧ / ١٥] وقال : ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغاثُوا بِماءٍ كَالْمُهْلِ ، يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرابُ ، وَساءَتْ مُرْتَفَقاً﴾ [الكهف ١٨ / ٢٩].

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ ..﴾ أي وتأتيه أسباب الموت من الشدائد وألوان العذاب من كل جهة ، ولكنه لا يموت ، كما قال تعالى : ﴿لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها﴾ [فاطر ٣٥ / ٣٦].

﴿وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾ أي وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ ، أي مؤلم صعب شديد ، أغلظ من الذي قبله وأدهى وأمر ، وهو دائم غير منقطع ، كما قال تعالى عن شجرة الزقوم : ﴿إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ ، فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ ، ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات ٣٧ / ٦٤ ـ ٦٨] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ ، طَعامُ الْأَثِيمِ ، كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ، كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ، خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ ، ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذابِ الْحَمِيمِ ، ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ، إِنَّ هذا ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ﴾ [الدخان ٤٤ / ٤٣ ـ ٥٠] وقال : ﴿وَأَصْحابُ الشِّمالِ ما أَصْحابُ الشِّمالِ ، فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ، وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ ، لا بارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة ٥٦ / ٤١ ـ ٤٤]. وقال تعالى : ﴿هذا وَإِنَ

لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ، جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهادُ ، هذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ، وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ﴾ [ص ٣٨ / ٥٥ ـ ٥٨].

وبالرغم مما سيلاقيه الكفار من العذاب في نار جهنم ، فإنهم يأسفون على أعمالهم الصالحة في الدنيا التي ضاعت هدرا ، ولم تنفعهم في الآخرة ، فضرب الله المثل لأعمالهم فقال : **﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ..﴾**.

أي مثل أعمالهم الصالحة كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين ، يوم القيامة ، إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى ، كمثل الرماد الذي اشتدت به الريح العاصفة ، في يوم عاصف أي ذي ريح شديدة عاصفة قوية ، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا ، إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد ، في هذا اليوم ، ذلك هو الضلال البعيد ، أي سعيهم وعملهم على غير أساس ولا استقامة ، فهو مغرق في البعد عن الحق ، حتى فقدوا ثوابه ، لفقدهم شرط قبوله وهو الإيمان.

ونظير الآية قوله تعالى : **﴿وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ ، فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً﴾** [الفرقان ٢٥ / ٢٣] وقوله : **﴿مَثَلُ ما يُنْفِقُونَ فِي هذِهِ الْحَياةِ الدُّنْيا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيها صِرٌّ ، أَصابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَأَهْلَكَتْهُ ، وَما ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾** [آل عمران ٣ / ١١٧].

فقه الحياة أو الأحكام :

دلتنا الآيات على الفوائد التالية :

١ ـ لا قيمة لتهديد الكفار رسلهم بالطرد من البلاد أو الإكراه على العودة إلى الملة القديمة ، أمام تهديد الله ، فالأول يتبدد ، والثاني يتحقق ، وهذه سيرة الله تعالى في رسله وعباده.

٢ ـ استحقاق النصر على الأعداء منوط بالخوف من جلال الله وهيبته

وموقفه للحساب في الآخرة ، وخشيته من عذابه وبأسه ونقمته.

٣ ـ سواء استفتح الرسل أو الكفار أو الفريقان ، أي طلبوا الفتح والنصرة على أعدائهم ، فإن النصر في النهاية للمتقين والرسل ؛ لأنهم المؤمنون حق الإيمان بالله ربهم الذي يطلبون منه النصر ، وتكون الخيبة والخسارة والهلاك للكافرين المتجبرين المتعاظمين عن طاعة الله ، المعاندين للحق ، والمجانبين له ؛ لأنهم كفروا بالله ، وتنكروا لطاعة الله ، وانحازوا عن منهج الحق وسبيله.

٤ ـ وكما يكون الهلاك للكافرين في الدنيا ، يكون أمامهم العذاب في نار جهنم تنتظرهم ، فمن بعد الهلاك في الدنيا ، يأتي أيضا العذاب في الآخرة.

٥ ـ ماء أهل جهنم هو صديد أهل النار الذي يسيل من أجسامهم من القيح والدم ، والكافر يتحساه جرعة بعد جرعة ، لا مرة واحدة ، لمرارته وحرارته ، ويؤلم إساغته ، فهو لا يكاد يسيغه ، ولكن تحصل الإساغة بصعوبة ، لقوله تعالى : ﴿يُصْهَرُ بِهِ ما فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج ٢٢ / ٢٠ ـ ٢١].

وتأتيه أسباب الموت من كل جهة عن يمينه وشماله ، ومن فوقه وتحته ومن قدّامه وخلفه ، كقوله تعالى : ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ ، وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر ٣٩ / ١٦].

ومن أمامه عذاب شديد متواصل الآلام من غير فتور.

هذه أوصاف عذاب الكفار ، في الظاهر والباطن ، أولها ـ ﴿مِنْ وَرائِهِ جَهَنَّمُ﴾ ثانيها ـ ﴿وَيُسْقى مِنْ ماءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكادُ يُسِيغُهُ﴾ وثالثها ـ ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكانٍ ، وَما هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ ورابعها ـ ﴿وَمِنْ وَرائِهِ عَذابٌ غَلِيظٌ﴾.

٦ ـ لا جدوى ولا فائدة في الآخرة لأعمال الكفار الطيبة التي عملوها في الدنيا ، مثل إطعام الطعام ، وإغاثة الملهوف ، وفعل المعروف ، والصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، ولا ثواب على عمل البر في الدنيا ؛ لإحباطه بالكفر ، وذلك هو الخسران الكبير.

فقد ضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار ، في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف : شدة الريح ، وإنما كان ذلك ؛ لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى ، فلم يتوافر فيها أساس القبول وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له.

دليل وحدانية الله ووجوده وقدرته على معاد الأبدان

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)﴾

البلاغة :

﴿يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر أي تعلم يا مخاطب ، وهو خطاب للنبي ﷺ والمراد به أمته ، وهو استفهام تقرير ، والرؤية هنا : رؤية القلب ؛ لأن المعنى : ألم ينته علمك إليه؟ ﴿بِالْحَقِ﴾ متعلق بخلق ، أي بالحكمة والوجه الذي يحق أن يخلق عليه ﴿يُذْهِبْكُمْ﴾ يعدمكم ﴿وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلكم أي يخلق خلقا آخر مكانكم ، وهو مرتب على كونه خالقا للسموات والأرض ، استدلالا به عليه ، فإن من خلق أصولهم ، ثم كونهم بتبديل الصور وتغيير الطبائع ، قادر أن يبدلهم بخلق آخر ، ولم يمتنع ذلك

عليه ، كما قال : ﴿وَما ذلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ بممتنع أو متعسر ، فإنه قادر لذاته ، لا اختصاص ل بمقدور دون مقدور ، ومن هذا شأنه كان حقيقا بأن يؤمن به ويعبد ، رجاء لثوابه ، وخوفا من عقابه يوم الجزاء.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أن أعمال الكفار تصير باطلة ضائعة ، بيّن أن الإبطال والإحباط إنما جاء بسبب صدر منهم وهو كفرهم بالله وإعراضهم عن العبودية ، فإن الله تعالى لا يبطل أعمال المخلصين ، وكيف يليق بحكمته أن يفعل ذلك ، وأنه تعالى ما خلق كل هذا العالم إلا لحكمة وصواب؟!

التفسير والبيان :

يخبر الله تعالى عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة ، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس ، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات ، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها ، وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة ، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد ، وصحارى وقفار ، وبحار وأشجار ، ونبات وحيوان على اختلاف أصنافها ومنافعها وأشكالها وألوانها.

﴿أَلَمْ تَرَ ..﴾ ألم تعلم أيها المخاطب أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذي يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقهما على هذا النحو البديع ، فهو قادر على إفنائكم إذا خالفتم أوامره ، والإتيان بخلق جديد سواكم على غير صفتكم ، وما ذلك بممتنع أو متعذر عليه ، بل هو سهل عليه.

ونظير الآية كثير في القرآن منها : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ ، وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ ، بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى ، بَلى ، إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف ٤٦ / ٣٣].

ومنها : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ : مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ، قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً ، فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ. أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلى ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ، إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ : كُنْ فَيَكُونُ. فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٧٧ ـ ٨٣].

فقه الحياة أو الأحكام :

الآية للاستدلال بها على قدرته تعالى ، فمن خلق السموات والأرض على ما يوافق الحكمة والصواب ، قادر على إعادة الخلق بعد الموت ، فالله هو القادر على الإفناء ، كما هو قادر على إيجاد الأشياء ، فلا تعصوه ، فإنكم إن عصيتموه يعدمكم ، ويأت بخلق جديد أفضل وأطوع منكم ، إذ لو كانوا مثل الأولين ، فلا فائدة في الإبدال ، وما ذلك على الله بمنيع متعذر.

والمقصود أن الكفار أغرقوا في الكفر بالله ، مع قيام الأدلة على قدرته وحكمته تعالى ، وأنه الحقيق بالطاعة ، الذي يرجى ثوابه ويخاف عقابه في دار الجزاء.

الحوار بين الأشقياء يوم العذاب والمناظرة بين الشيطان وأتباعه

وظفر السعداء بالجنة

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقالَ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قالُوا لَوْ هَدانَا اللهُ لَهَدَيْناكُمْ سَواءٌ

عَلَيْنا أَجَزِعْنا أَمْ صَبَرْنا ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِما أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ (٢٣)﴾

الإعراب :

﴿**بِمُصْرِخِيَ**﴾ فتحت الياء لإدغام ياء الجمع في ياء الإضافة ، بعد حذف نون الإضافة ، على لغة من يفتحها ، وبقيت الفتحة على حالها ، أو أن فتحها لالتقاء الساكنين على لغة من أسكنها ، فياء الإضافة فيها لغتان : الفتح والإسكان. وعلى قراءة كسر الياء فهو عدول إلى الأصل ، وهو الكسر ، ليكون مطابقا لكسر همزة : ﴿**إِنِّي كَفَرْتُ ..**﴾.

﴿**أَنْ دَعَوْتُكُمْ**﴾ أن وصلتها : في موضع نصب على الاستثناء المنقطع. ﴿**بِما أَشْرَكْتُمُونِ**﴾ ما : مصدرية أي بإشراككم.

﴿**تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا**﴾ جملة فعلية في موضع نصب صفة جنات. ﴿**خالِدِينَ**﴾ حال من ﴿**الَّذِينَ**﴾.

و ﴿**تَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ**﴾ جملة اسمية في موضع نصب على الحال من ﴿**الَّذِينَ**﴾ وهي حال بقدرة ، أو حال من الضمير في ﴿**خالِدِينَ**﴾ فلا تكون حالا مقدرة. أو في موضع نصب على لوصف لجنات.

والهاء والميم في ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ إما تأويل فاعل ، أضيف المصدر إليه ، أي يحيي بعضهم بعضا بالسلام ، وإما في موضع مفعول لم يسم فاعله (نائب فاعل) أي يحيّون بالسلام ، على معنى : تحيّيهم الملائكة بالسلام.

البلاغة :

﴿فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ طباق السلب.

﴿جَزِعْنا﴾ و ﴿صَبَرْنا﴾ بينهما طباق.

المفردات اللغوية :

﴿وَبَرَزُوا﴾ أي الخلائق ، أي ظهروا بالبراز : وهي الأرض المتسعة ، أي مجتمع الناس في ذلك اليوم ، ومنه امرأة برزة أي تظهر للرجال ، والتعبير فيه وفيما بعده بالماضي لتحقق وقوعه. ﴿الضُّعَفاءُ﴾ الأتباع ، أي ضعاف الرأي والفكر. ﴿لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ المتبوعين ، وهم الرؤساء الأقوياء الذين استنفروهم. ﴿تَبَعاً﴾ جمع تابع. ﴿مُغْنُونَ﴾ دافعون. ﴿مِنْ عَذابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الأولى : للتبيين ، والثانية : للتبعيض. ﴿لَهَدَيْناكُمْ﴾ لدعوناكم إلى الهدى. ﴿ما لَنا مِنْ مَحِيصٍ﴾ من : زائدة ، ومحيص : ملجأ ومنجى ومهرب.

﴿الشَّيْطانُ﴾ إبليس. ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ لما أحكم وفرغ منه ، ودخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار. ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِ﴾ وعدا من حقه أن ينجز ، أو وعدا أنجزه ، وهو الوعد بالبعث والجزاء ، فصدقكم الوعد. ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ وعد الباطل وهو ألا بعث ولا حساب. ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ قدر إبليس تبين خلف وعده كالإخلاف منه. ﴿مِنْ سُلْطانٍ﴾ من : زائدة ، والسلطان : القوة والقدرة والتسلط ، فألجئكم على الكفر والمعاصي ، واقهركم على متابعتي. ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ لكن. ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ أسرعتم إجابتي. ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ على إجابتي وإطاعتي ، ولم تطيعوا ربكم لما دعاكم.

﴿بِمُصْرِخِكُمْ﴾ بمغيثكم ، والمستصرخ : المستغيث. ﴿بِما أَشْرَكْتُمُونِ﴾ بإشراككم إياي مع الله. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا. ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ الكافرين ، وهو قول الله تعالى. ﴿لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ مؤلم. ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيها﴾ من الله ومن الملائكة وفيما بينهم.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى ألوان عذاب الكفار في الآخرة ، ثم ذكر عقيبه أن أعمالهم تصير محبطة باطلة ، ذكر هنا مدى خجلهم أمام أتباعهم وافتضاحهم

عندهم ، وأبان هذا بصورة محاورة بين السادة والأتباع ، ومناظرة بين الشيطان وأتباعه الإنس ، ثم ذكر جزاء المؤمنين السعداء وظفرهم بجنان الخلد.

التفسير والبيان :

وبرزت الخلائق كلها برّها وفاجرها لله الواحد القهار في موقف الحساب ، واجتمعوا له في مكان متسع لا ساتر فيه ، خلافا لحال الدنيا حيث يظن الكفار والعصاة أن الله لا يراهم.

فقال الضعفاء ، أي الأتباع للقادة والسادة والكبراء في العقل والتفكير ، أولئك القادة الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع الرسل : إنا كنا تابعين لكم ، مقلدين في الأعمال ، نأتمر بأمركم ونفعل فعلكم ، فكفرنا بالله ، وكذبنا الرسل متابعة لكم ، فهل أنتم تدفعون عنا اليوم بعض عذاب الله ، كما كنتم تعدوننا وتمنوننا.

فأجابهم القادة المتبوعون متنصلين من الدفاع عنهم : لو هدانا الله لدينه الحق ، ووفقنا لاتّباعه ، وأرشدنا إلى الخير ، لهديناكم وأرشدناكم إلى سلوك الطريق الأقوم ، ولكنه لم يهدنا ، فحقت كلمة العذاب على الكافرين.

ثم أعلنوا يأسهم من النجاة فقالوا : ﴿**سَواءٌ عَلَيْنا أَجَزِعْنا ..**﴾ أي ليس لنا خلاص ولا منجى مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه ، أي أن الجزع والصبر سيّان ، فلا نجاة لنا من عذاب الله تعالى.

قال ابن كثير : والظاهر أن هذه المراجعة (أي الحوار) في النار ، بعد دخولهم فيها [1] ، كما قال تعالى : ﴿**وَإِذْ يَتَحاجُّونَ فِي النَّارِ ، فَيَقُولُ الضُّعَفاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ. قالَ**

---

(١) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٢٨

الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُلٌّ فِيها ، إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبادِ﴾ [غافر ٤٠ / ٤٧ . ٤٨] وقال تعالى : ﴿قالَ : ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ، كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها ، حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعاً ، قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ : رَبَّنا هؤُلاءِ أَضَلُّونا ، فَآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ ؛ قالَ : لِكُلٍّ ضِعْفٌ ، وَلكِنْ لا تَعْلَمُونَ. وَقالَتْ أُولاهُمْ لِأُخْراهُمْ : فَما كانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف ٧ / ٣٨ . ٣٩] وقال تعالى : ﴿رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ، رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ [الأحزاب ٣٣ / ٦٧ . ٦٨].

ثم ذكر الله تعالى محاورة أخرى بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، فقال : ﴿وَقالَ الشَّيْطانُ ..﴾ أي وقال إبليس لأتباعه الإنس ، بعد ما قضى الله بين عباده ، فأدخل المؤمنين الجنات ، وأسكن الكافرين الدركات : إن الله وعدكم بالبعث والجزاء وعد الحق على ألسنة رسله ، وكان وعدا حقا وخبرا صدقا ، وأما أنا فوعدتكم ألا بعث ولا جزاء ، ولا جنة ولا نار ، فأخلفتكم موعدي ، إذ لم أقل إلا باطلا من القول وزورا ، كما قال تعالى : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَما يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [النساء ٤ / ١٢٠] وقد اتبعتموني وتركتم وعد ربكم.

﴿وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ﴾ أي وما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه دليل ولا حجة ، ولا قوة ولا تسلط فيما وعدتكم به.

﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ..﴾ أي ولكن حينما دعوتكم استجبتم لي ، بمجرد ذلك.

﴿فَلا تَلُومُونِي ..﴾ أي فلا توجهوا اللوم إلي اليوم ، ولوموا أنفسكم ؛ لأنكم أسرعتم إلى إجابتي باختياركم ، فإن الذنب ذنبكم ؛ لكونكم لم تستمعوا إلى دعاء ربكم ، وقد دعاكم دعوة الحق بالحجج والبينات ، فخالفتم البراهين الداعية لكم إلى الصواب.

﴿ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ..﴾ ما أنا بمغيثكم ولا نافعكم ولا منقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه من العذاب ، وما أنتم بمغيثي ولا نافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ، كما قال تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعَذابَ﴾ [البقرة ٢ / ١٦٦].

﴿إِنِّي كَفَرْتُ ..﴾ إني أنكرت أو جحدت اليوم بإشراككم إياي من قبل أي في الدنيا مع الله تعالى في الطاعة ، كما قال سبحانه : ﴿وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر ٣٥ / ١٤] والمراد بذلك تبرؤه من الشرك وإنكاره له ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّا بُرَآؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ، كَفَرْنا بِكُمْ﴾ [الممتحنة ٦٠ / ٤] وقال سبحانه. ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبادَتِهِمْ ، وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٨٢].

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا في الأظهر من قول الله عزّ وجلّ ، ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس المحكي في القرآن قطعا لأطماع أولئك الكفار عن الإعانة والإغاثة ، والمعنى : إن الكافرين في إعراضهم عن الحق ، واتباعهم الباطل ، لهم عذاب مؤلم.

والمقصود تنبيه الناس إلى تبرؤ الشيطان من وساوسه في الدنيا ، وحضهم على الاستعداد ليوم الحساب ، وتذكر أهوال الموقف.

وبعد أن أبان الله تعالى أحوال الأشقياء ، أوضح أحوال السعداء ، وكلا الفريقين كانوا قد برزوا للحساب والجزاء بين يدي الله ، فقال : ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾.

أي ويدخل الملائكة الذين صدقوا بالله ورسوله ، وأقروا بوحدانيته ، واتبعوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، جنات (بساتين) فيها الأنهار الجارية في كل

مكان ، وهم ماكثون فيها أبدا ، لا يحولون عنها ولا يزولون منها ، وذلك بإذن ربهم ، أي بتوفيقه وفضله وأمره.

تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم ، ويحيون بعضهم بعضا بالسلام ، كما قال تعالى : ﴿حَتَّى إِذا جاؤُها وَفُتِحَتْ أَبْوابُها ، وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُها : سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الزمر ٣٩ / ٧٣] وقال سبحانه : ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بابٍ : سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الرعد ١٣ / ٢٣ ، ٢٤] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيها تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾ [الفرقان ٢٥ / ٧٥] ويحييهم ربهم بالسلام : ﴿سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ﴾ [يس ٣٦ / ٥٨] وتحية بعضهم كما قال تعالى : ﴿دَعْواهُمْ فِيها : سُبْحانَكَ اللهُمَّ ، وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ ، وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ [يونس ١٠ / ١٠].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآيات ما يأتي :

١ ـ العتاب والنزاع والخصام قائم بين أهل النار ، فهذه محاورة بين القادة والأتباع تدل على عجز السادة عن تحقيق أي شيء لأتباعهم الذين اتبعوهم في الدنيا ، فهم لا يستطيعون تخليص أنفسهم من عذاب الله ، ولا تحقيق أي نفع لذواتهم ، فبالأولى لا يتمكنون من نفع غيرهم ، والكل لا يجدون مهربا ولا ملجأ من عذاب الله وعقابه على الكفر والعصيان ، وذلك سواء صبروا على العذاب أو جزعوا وضجروا.

٢ ـ إقرار السادة بالضلال ، فدعوا أتباعهم إلى الضلال ، ولو هدوا وأرشدوا لأرشدوا غيرهم ، وهذا كذب منهم ، كما قال تعالى حكاية عن المنافقين : ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعاً ، فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ﴾ [المجادلة ٥٨ / ١٨].

٣ ـ أعقب الله المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس ، بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وموضوع المناظرتين

واحد : وهو تبرؤ المتبوع من التابع ، ولكن الشيطان كان أصدق في هذه المحاورة من الإنسان ؛ لأنه أعلن أن الله وعد الناس وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال ، فوفى لهم بما وعدهم ، وأما هو فوعد الناس بخلاف ذلك وأنه لا بعث ولا جزاء ، فأخلف الوعد.

٤ ـ قال الرازي عن آية ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ : هذه الآية تدل على أن الشيطان الأصلي هو النفس ؛ لأن الشيطان بيّن أنه ما أتى إلا بالوسوسة ، فلو لا الميل الحاصل بسبب الشهوة والغضب والوهم والخيال ، لم يكن لوسوسته تأثير البتة ، فدل هذا على أن الشيطان الأصلي هو النفس [١].

ومن المعلوم أن الملائكة والشياطين هي أجسام لطيفة ، والله تعالى ركبها تركيبا عجيبا ، ولا يستبعد أن تنفذ الأجرام اللطيفة في عمق الأجرام الكثيفة أي في بنية الإنسان.

٥ ـ للظالمين عذاب أليم ، لا مرد له ، جزاء ظلمهم ، أي كفرهم ، فالعصيان والكفر باختيارهم وكسبهم.

٦ ـ للمؤمنين المتقين جنات تجري من تحتها الأنهار ، بأمر ربهم ، ومشيئته وتيسيره ، يحيون فيها بالسلام من الله تعالى ، ومن الملائكة ، وتكون تحية بعضهم بعضا هي السلام.

٧ ـ كانت مواعيد الشيطان باطلة ، ووعد الله هو الحق ، واتبع الناس قول الشيطان بلا حجة ولا برهان ، وتبرأ الشيطان منهم ومن عملهم ، فليس لهم لوم عليه ، إنما عليهم اللوم ، وأيأسهم بأنه لا نصر عنده ولا عون ولا إغاثة ، بل هو محتاج إلى من ينصره ، وكفر بشركهم له في الدنيا ، وهذا تنبيه لهم مما سيلقونه من العذاب.

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ١١١

مثال الكلمة الطيبة من السعداء ومثال الكلمة الخبيثة من الأشقياء

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ ما لَها مِنْ قَرارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ (٢٧)﴾

الإعراب :

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ بدل من ﴿مَثَلاً﴾ أو تفسير له ، و ﴿كَشَجَرَةٍ﴾ صفة للكلمة أو خبر مبتدأ محذوف ، أي هي كشجرة.

البلاغة :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ تعجيب من حال الفريقين : السعداء والأشقياء.

﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ في كل تشبيه مرسل مجمل.

﴿أَصْلُها .. وَفَرْعُها طَيِّبَةً﴾ و ﴿خَبِيثَةٍ﴾ في كل طباق.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً﴾ أي ألم تنظر كيف اعتمده ووضعه ، والمثل : قول يشبّه بقول

بينهما مشابهة في شيء محسوس ، للتوضيح والبيان ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي جعل كلمة طيبة كشجرة طيبة ، والكلمة الطيبة : هي لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد ودعوة الإسلام والقرآن ، والشجرة الطيبة هي النخلة ﴿ثابِتٌ﴾ في الأرض بالعروق ﴿وَفَرْعُها فِي السَّماءِ﴾ أي أعلاها في جهة العلو ﴿تُؤْتِي﴾ تعطي ﴿أُكُلَها﴾ ثمرها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ كل وقت أقّته الله تعالى لإثمارها ، أي أن كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن ، وعمله يصعد إلى السماء ، ويناله ثوابه كل وقت.

﴿بِإِذْنِ رَبِّها﴾ بإرادته ﴿وَيَضْرِبُ﴾ ويبين لأن في هذا التشبيه زيادة إفهام وتذكير ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يتعظون فيؤمنوا ﴿كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي كلمة الكفر ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ هي الحنظل ﴿اجْتُثَّتْ﴾ استوصلت ﴿ما لَها مِنْ قَرارٍ﴾ استقرار ﴿بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الذي ثبت بالحجة عندهم وتمكن في قلوبهم ﴿فِي الْحَياةِ الدُّنْيا﴾ فلا يزلّون إذا افتتنوا في دينهم ، كزكريا ويحيى عليهما السلام ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ فلا يتلعثمون إذا سئلوا عن معتقدهم في موقف الحساب وعند رؤيتهم أهوال الحشر ، وقيل : معناه الثبات عند سؤال القبر ، فحينما يسألهم الملكان عن ربهم ودينهم ونبيهم ، يجيبون بالصواب ، كما في حديث الشيخين. ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ الكفار الذين ظلموا أنفسهم ، فلا يهتدون للحق والجواب الصواب ، بل يقولون : لا ندري ، كما جاء في الحديث. ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ من تثبيت بعض وإضلال آخرين من غير اعتراض عليه.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال الأشقياء وما آل إليهم أمرهم من العذاب في نار جهنم ، وأحوال السعداء وإدراكهم الفوز عند ربهم ، ذكر مثلا يبين حال الفريقين ، وسبب التفرقة بينهما ، بتشبيه المعنويات بالحسيات ، لترسيخ المعاني في الأذهان ، كما هو الشأن في القرآن.

التفسير والبيان :

ألم تعلم أيها المخاطب كيف اعتمد الله مثلا ووضعه في موضعه المناسب له وهو تشبيه الكلمة الطيبة وهي كلمة التوحيد والإسلام ودعوة القرآن ، بالشجرة الطيبة وهي النخلة الموصوفة بصفات أربع هي :

١ ـ كون تلك الشجرة طيبة المنظر والشكل ، وطيبة الرائحة ، وطيبة الثمرة ، وطيبة المنفعة أي يستلذ بأكلها ويعظم الانتفاع بها.

٢ ـ أصلها ثابت ، أي راسخ باق متمكّن في الأرض لا ينقلع.

٣ ـ وفرعها في السماء ، أي كاملة الحال لارتفاع أغصانها إلى الأعلى ، وبعدها عن عفونات الأرض ، فكانت ثمراتها نقية طيبة خالية من جميع الشوائب.

٤ ـ تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، أي تثمر كل وقت وقّته الله لإثمارها بإرادة ربها وإيجاده وتيسيره. ولما كانت الأشجار تؤتي أكلها كل سنة مرة ، كان ذلك في حكم الحين.

روي عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول : «لا إله إلا الله» وأن الشجرة الطيبة هي النخلة ، وكذلك روي عن ابن مسعود أنها النخلة ، وهو مروي عن أنس وابن عمر عن النبي ﷺ.

وحديث ابن عمر رواه البخاري ، قال : «كنا عند رسول الله ﷺ ، فقال : أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم ـ أو كالرجل المسلم ـ لا يتحاتّ ورقها صيفا ولا شتاء ، وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، قال ابن عمر : فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا ، قال رسول الله ﷺ : هي النخلة».

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثالَ ..﴾ أي وهكذا يضرب الله الأمثال للناس ؛ فإن في ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وعظة وتصوير للمعاني ؛ لأن تشبيه المعاني المعقولة بالأمور المحسوسة يرسّخ المعاني ، ويزيل الخفاء والشك فيها ، ويجعلها كالأشياء الملموسة. وفي هذا لفت نظر يدعو الإنسان إلى التأمل في عظم هذا المثل ، والتدبر فيه ، وفهم المقصود منه.

ثم ذكر الله تعالى مثال حال كلمة الكفر ، فقال : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ..﴾ أي وصفة الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر أو الشرك كصفة الشجرة الخبيثة وهي شجرة الحنظل ونحوه ، كما قال أنس موقوفا فيما روى أبو بكر البزار ، ومرفوعا

فيما روى ابن أبي حاتم : أن النبي ﷺ قال : ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ : هي الحنظلة ، ووصفت الشجرة الخبيثة بصفات ثلاث هي :

١ ـ أنها خبيثة الطعم أو لما فيها من المضار ، أو الرائحة وهي الحنظلة ، وقيل : الثوم ، وقيل : الشوك.

٢ ـ اجتثت من فوق الأرض ، أي اقتلعت واستؤصلت ، وليس لها أصل ولا عرق ، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة.

٣ ـ ما لها من قرار ، أي ليس لها استقرار ، وهذه الصفة كالمتممة للصفة الثانية.

وهذه صفات في غاية الكمال ، فالخبث وصف للمضار ، والاجتثاث وعدم القرار وصف للخلو عن المنافع.

وبالموازنة يتبين الفرق بين كلمتي الحق والباطل ، فكلمة الحق وهي كلمة التوحيد والإيمان قوية ثابتة نافعة للناس ، وكلمة الباطل وهي كلمة الشرك أو الكفر ضعيفة ضارة ليس فيها استقرار ولا ثبات.

وأصحاب الكلمة الأولى هم المؤمنون ، وأولو الكلمة الثانية هم الكافرون والعصاة.

ثم أخبر الله تعالى عن فوز أهل الكلمة الأولى بمرادهم في الدنيا والآخرة ، فقال : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ ..﴾ أي إن كرامة الله وثوابه ثابتان للمؤمنين في الآخرة بالقول الذي كان يصدر عنهم في الدنيا ، وهو الإيمان المستقر بالحجة والبرهان في قلوبهم ، والمقصود : بيان أن الثبات في المعرفة والطاعة يوجب الثبات في الثواب والكرامة من الله تعالى.

أو أن المراد أن الله يثبت المؤمنين في الدنيا بعدم تعرضهم للفتنة في دينهم

بالرغم من التعذيب كبلال وغيره من الصحابة ، فتثبيتهم به في الدنيا : أنهم إذا فتنوا في دينهم ، لم يزلّوا ، كما ثبّت الذين فتنهم أصحاب الأخدود ، والذين نشروا بالمناشير ، ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد.

وتثبيتهم في الآخرة : أنهم إذا سئلوا عن معتقدهم ودينهم في موقف الحساب ، لم يتلعثموا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر.

وقيل وهو القول المشهور : معناه الثبات عند سؤال القبر ، والمراد بالحياة الدنيا : مدة الحياة ، والآخرة : يوم القيامة والحساب ، روى البخاري ومسلم وأحمد وبقية الجماعة كلهم عن البراء بن عازب ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : «المسلم إذا سئل في القبر ، شهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فذلك قوله : ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾. وهذا مروي أيضا عن أبي هريرة.

وروى ابن أبي شيبة الحديث المتقدم نفسه عن البراء أنه قال في الآية : التثبيت في الدنيا : إذا جاء الملكان إلى الرجل في القبر ، فقالا له : من ربك؟ قال : ربي الله ، وقالا : وما دينك؟ قال : ديني الإسلام ، وقالا : وما نبيك؟ قال : نبيي محمد ﷺ.

وروى أبو داود عن عثمان بن عفان ﷺ قال : «كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل».

قال الرازي : القول المشهور : أن هذه الآية وردت في سؤال الملكين في القبر ، وتلقين الله المؤمن كلمة الحق في القبر عند السؤال وتثبيته إياه على الحق [١].

---

(١) تفسير الرازي : ١٩ / ١٢٢

ثم ذكر الله تعالى مصير الكافرين بقوله : ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي ويمنع الله الكافرين عن الفوز بثوابه ، أو يتركهم وضلالهم لعدم توافر استعدادهم للإيمان ، وانزلاقهم في الأهواء والشهوات.

أو يجعلهم يترددون في الجواب ويتلعثمون إذا سئلوا في قبورهم عن دينهم ومعتقدهم ؛ روى ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما : «إن الكافر إذا حضره الموت ، تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره ، فإذا دخل قبره ، أقعد ، فقيل له : من ربك؟ لم يرجع إليهم شيئا ، وأنساه الله تعالى ذكر ربه ، وإذا قيل له : من الرسول الذي بعث إليك؟ لم يهتد له ولم يرجع إليهم شيئا ، فذلك قوله تعالى : ﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾.

ثم أبان الله تعالى مشيئته المطلقة في الفريقين فقال : ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ﴾ أي إن شاء هدى ، وإن شاء أضل. وإضلالهم في الدنيا : أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن ، وتزلّ أقدامهم أول شيء ، وهم في الآخرة أضل وأزلّ. والضلال لسوء الاستعداد ، والميل مع أهواء النفس.

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدت الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ الكلمة الطيبة وهي الإيمان أو لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أو المؤمن نفسه : هي الثابتة الخالدة ، الطيبة النافعة. روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن مثل الإيمان كمثل شجرة ثابتة : الإيمان عروقها ، والصلاة أصلها ، والزكاة فروعها ، والصيام أغصانها ، التأذي في الله نباتها ، وحسن الخلق ورقها ، والكفّ عن محارم الله ثمرتها». والشجرة الطيبة في الأصح : هي النخلة ، ذكر الغزنوي والطبراني فيما رواه ابن عمر عنه صلى الله عليه وسلم : «مثل المؤمن كالنخلة ، كل شيء منها ينتفع به».

٢ ـ الأمثال والتشبيهات ، وبخاصة تشبيه المعقول بالمحسوس ، فيها ذكرى وعظة وعبرة ، وإفهام وإيقاظ للمشاعر والضمائر ، ولفت الأنظار ، وشد الانتباه إليها.

٣ ـ الكلمة الخبيثة وهي كلمة الكفر لا قرار لها ولا ثبات ، ولا جدوى ولا نفع ، ولا تعتمد على حجة مقبولة أو برهان صحيح. والشجرة الخبيثة في الأصح : شجرة الحنظل ، كما في حديث أنس ، وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وكذلك الكافر لا حجة له ، ولا ثبات ، ولا خير فيه ، وليس له أصل يعمل عليه.

٤ ـ المقصود من الآية الدعوة إلى الإيمان ، ورفض الشرك.

٥ ـ يثبّت الله المؤمنين على الحق والإيمان في الدنيا ، فلا يتراجعون عنه ، ويثبّت نفوسهم ، فيلهمها الصواب والنطق بالإيمان في القبر ؛ لأن الموتى ما يزالون في الدنيا إلى أن يبعثوا ، وكذلك يلهمها الصواب في الآخرة عند الحساب.

٦ ـ يضلّ الله الظالمين عن حجتهم في قبورهم ، كما ضلّوا في الدنيا بكفرهم ، فلا يلقّنهم

كلمة الحق ، فإذا سئلوا في قبورهم قالوا : لا ندري ؛ فيقول الملك : لا دريت ولا تليت ، وعند ذلك يضرب بالمقامع (سياط من حديد ، رؤوسها معوجة) على ما ثبت في الأخبار.

٧ ـ يفعل الله ما يشاء من عذاب قوم وإضلال قوم ، وقيل : إن سبب نزول هذه الآية ما روي عن النبي ﷺ لما وصف مساءلة منكر ونكير وما يكون من جواب الميت ، قال عمر : يا رسول الله ، أيكون معي عقلي؟ قال : نعم ، قال : كفيت إذن ؛ فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية : ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا.﴾.

كفران النعمة واتخاذ الأنداد وتهديد الكافرين بالتمتع بنعيم الدنيا

وأمر المؤمنين بإقامة الصلاة والإنفاق

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَبِئْسَ الْقَرارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾

الإعراب :

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ قَوْمَهُمْ﴾ : مفعول أول ، و ﴿دارَ الْبَوارِ﴾ : مفعول ثان.

﴿جَهَنَّمَ﴾ : بدل من ﴿دارَ الْبَوارِ﴾ وهو ممنوع من الصرف للعلمية (التعريف) والتأنيث.

﴿يَصْلَوْنَها﴾ : جملة فعلية في موضع نصب على الحال من ﴿قَوْمَهُمْ﴾ أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾ أو منهما.

﴿يُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ جواب الأمر وهو أقيموا وتقديره : قل لهم : أقيموا يقيموا. ويجوز جزمه بلام مقدرة ، تقديره : ليقيموا ، ثم حذف الأمر ؛ لتقدم لفظ الأمر. ويجوز كونه مجزوما على أنه جواب ﴿قُلْ﴾ وهذا ضعيف ؛ لأن الأمر للنبي بالقول ليس فيه أمر لهم بإقامة الصلاة.

﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ منصوبان على المصدر ، أي إنفاق سر وعلانية ، أو على الحال ، أي ذوي سر وعلانية ، أو على الظرف ، أي وقتي سر وعلانية.

البلاغة :

﴿سِرًّا ، وَعَلانِيَةً﴾ بينهما طباق.

﴿الْبَوارِ .. الْقَرارُ .. النَّارِ﴾ سجع مرصّع.

﴿قُلْ : تَمَتَّعُوا﴾ تهديد ووعيد.

المفردات اللغوية :

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنظر ﴿الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً﴾ أي بدلوا شكر نعمته كفرا ، بأن وضعوه مكانه ، وهم كفار قريش ﴿وَأَحَلُّوا﴾ أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ الذين شايعوهم في الكفر ، بإضلالهم إياهم ﴿دارَ الْبَوارِ﴾ دار الهلاك بحملهم على الكفر ، والقوم البور : هم الهالكون كقوله تعالى : ﴿وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً﴾ [الفتح ٤٨ / ١٢] ﴿يَصْلَوْنَها﴾ يدخلونها ويقاسون حرها ﴿وَبِئْسَ الْقَرارُ﴾ أي وبئس المقر جهنم ﴿أَنْداداً﴾ شركاء ، جمع ندّ : وهو المثل والشريك والشبيه ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وهو التوحيد أو دين الإسلام ، وليس الضلال والإضلال غرضهم في اتخاذ الأنداد ، لكن لما كان نتيجته جعل كالغرض ﴿تَمَتَّعُوا﴾ بدنياكم قليلا. ﴿مَصِيرَكُمْ﴾ مرجعكم.

﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خصهم بالإضافة تنويها لهم وتنبيها على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. ومقول ﴿قُلْ﴾ محذوف ، دل عليه جوابه ، أي قل لعبادي الذي آمنوا : أقيموا يقيموا الصلاة ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أي وقت السر والعلانية أو ذوي سر وعلانية ، أو إنفاق سر وعلانية ﴿لا بَيْعٌ فِيهِ﴾ لا فداء ، بأن يبيع ما يفدي به نفسه ﴿وَلا خِلالٌ﴾ مخالة ، أي صداقة تنفع ، وذلك اليوم هو يوم القيامة.

سبب النزول : نزول الآية (٢٨):

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ..﴾ قال ابن عباس : هؤلاء هم كفار مكة. وأخرج الحاكم وابن جرير والطبراني وغيرهم عن عمر وعلي رضي الله عنهما أنهما قالا في المبدّلين : هم الأفجران من قريش : بنو المغيرة ، وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ـ أو فكفيتموهم ـ وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء ، عاد إلى وصف أحوال الكفار في هذه الآية : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا ..﴾ وهم أهل مكة ، حيث أسكنهم الله تعالى حرمة الآمن ، وجعل عيشهم في السعة ، وبعث فيهم محمدا

ﷺ ، فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، وأبان أسباب وقوعهم في سوء المصير في جهنم ، ثم أمرهم على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع في نعيم الدنيا ، ثم أمر المؤمنين بمجاهدة النفس والهوى بالصلاة والإنفاق.

التفسير والبيان :

يدعو الله تعالى إلى التعجب من أمر كفار مكة وأمثالهم الذين وصفهم الله بصفتين هما السبب الأول في دخولهم نار جهنم وهي :

١ . ﴿**بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْراً**﴾ أي بدلوا شكر نعمة الله كفرا ، فإن شكر النعمة واجب عقلا وشرعا ، لكنهم خرجوا عن هذا الواجب ، وجعلوا بدل الشكر كفرا وجحودا. وهم كفار أهل مكة ، وهو المشهور الصحيح عن ابن عباس في هذه الآية ، قال ابن كثير : وإن كان المعنى يعم جميع الكفار ، فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين ، ونعمة للناس ، فمن قبلها وقام بشكرها ، دخل الجنة ، ومن ردّها وكفرها دخل النار.

٢ . ﴿**وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ**﴾ أي وأنزلوا قومهم الذين شايعوهم في الكفر ، واتبعوهم في الضلال ، دار الهلاك الذي لا هلاك بعده.

ودار البوار هي جهنم مقر العذاب التي يدخلونها ويقاسون حرها ، وبئس المقر جهنم.

والسبب الثاني : ﴿**وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً**﴾ أي واتخذوا لله شركاء عبدوهم معه ، ودعوا الناس إلى ذلك ، فقالوا في الحج مثلا : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك.

والسبب الثالث : ﴿**لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ**﴾ أي اتخذوا الأنداد أو الشركاء لتكون عاقبة أمرهم إضلال من شايعهم واتبعهم ، وصرفهم عن دين الله ، وإبقاءهم

في مرتع الكفر. فاللام في ﴿لِيُضِلُّوا﴾ لام العاقبة ؛ لأن عبادة الأوثان سبب يؤدي إلى الضلال ؛ ولأنهم لم يريدوا ضلال أنفسهم ، أي أن المقصود لا يحصل إلا في آخر المراتب.

ثم قال تعالى مهددا ومتوعدا لهم على لسان نبيه ﷺ : ﴿قُلْ : تَمَتَّعُوا ..﴾ أي تمتعوا بما قدرتم عليه من نعيم الدنيا ، فإن جزاءكم ومرجعكم وموئلكم إلى النار ، كما قال تعالى : ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ، ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلى عَذابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٤] وقال سبحانه : ﴿مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ، ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ، ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس ١٠ / ٧٠]. وسمي ذلك تمتعا ؛ لأنهم تلذذوا به ، ولأنه بالنسبة إلى عقاب الآخرة تمتع ونعيم.

ونظير الآية في أمر التهديد : ﴿اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ﴾ [فصلت ٤١ / ٤٠] وقوله : ﴿قُلْ: تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً ، إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ النَّارِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٨].

وبعد تهديد الكفار على تمتعهم في الدنيا ، أمر الله نبيه بأن يبلّغ الناس ويأمرهم بإقامة الصلاة التي هي عبادة بدنية ، والإنفاق في سبيله وهو عبادة مالية ، فقال : ﴿قُلْ لِعِبادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ..﴾ أي يأمر الله تعالى عباده بطاعته والقيام بحقه والإحسان إلى خلقه ، بأن يقيموا الصلاة ، وهي عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن ينفقوا مما رزقهم الله ، بأداء الزكوات ، والنفقة على القرابات ، والإحسان إلى الأباعد.

وإقامة الصلاة : أداؤها مستكملة أركانها وشروطها ، مع المحافظة على وقتها ، والخشوع لله في جميع أجزائها.

ويكون الإنفاق مما رزق في السرّ (أي في الخفية) والعلانية وهي الجهر ، قال البيضاوي : والأحب إعلان الواجب (أي في النفقة) وإخفاء المتطوع به (أي المتبرع أو المتصدق به).

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ..﴾ أي وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم ، من قبل أن يأتي يوم القيامة ، الذي لا بيع فيه ، أي لا يقبل من أحد فيه فدية ، بأن تباع نفسه ، ولا تفيد فيه صداقة ، للصفح والعفو والتخلص من العقاب ، بل هناك العدل والقسط ، كما قال تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ ، وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد ٥٧ / ١٥] وقال سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً ، وَلا يُقْبَلُ مِنْها عَدْلٌ ، وَلا تَنْفَعُها شَفاعَةٌ ، وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [البقرة ٢ / ١٢٣] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ ، وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ ، وَالْكافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة ٢ / ٢٥٤].

فقه الحياة أو الأحكام :

يفهم من الآية بيان الفرق بين فريقي الكفار والمؤمنين ، أما الكافرون فاستحقوا دخول دار البوار : جهنم لأسباب ثلاثة : هي تبديلهم شكر نعمة الله عليهم كفرانا وجحودا ، واتخاذ الأنداد أي الشركاء وهي الأصنام التي عبدوها ، وإضلالهم الناس عن دين الله القويم ، بمعنى أن عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ، ومردهم ومرجعهم إلى عذاب جهنم.

وأما المؤمنون فلهم الجنة بسبب إقامة الصلوات الخمس المفروضة ، والإنفاق في سبيل الله ، بأداء الزكاة الواجبة ، والتطوع بالصدقات المستحبة ، بإعلان الواجب ، وإخفاء التطوع ، كما قال تعالى : ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئاتِكُمْ ، وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة ٢ / ٢٧١].

ودلت الآية على أنه لا ينفع يوم القيامة فداء ولا صداقة ، وأن الطاعات الأساسية ثلاث : الإيمان بالله تعالى ، وشغل النفس بخدمة المعبود في الصلاة ،

وصرف المال وبذله في طاعة الله تعالى ، ليجد الإنسان ثواب ذلك الإنفاق في يوم لا مبايعة فيه ولا مخالّة ، إلا المخالة التي يشترك فيها الأخلاء في عبودية الله تعالى ومحبة الله تعالى كما قال تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف ٤٣ / ٦٧].

أدلة وجود الله والتوحيد في الكون والأنفس

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ (٣٣) وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾

الإعراب :

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ﴾ مبتدأ وخبر. ﴿رِزْقاً﴾ منصوب على المصدرية أو مفعول : ﴿فَأَخْرَجَ﴾ و ﴿مِنَ الثَّمَراتِ﴾ بيان له ، وحال منه.

﴿دائِبَيْنِ﴾ حال من الشمس والقمر ، وذكّر تغليبا للقمر على الشمس ؛ لأن القمر مذكر والشمس مؤنث ، وإذا اجتمع المذكر والمؤنث ، غلّب جانب المذكر على جانب المؤنث ، لأن التذكير هو الأصل.

﴿مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ بالإضافة ، على تقدير مفعول محذوف ، أي وآتاكم سؤلكم من كل ما سألتموه ، مثل قوله تعالى : ﴿وَأُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل ٢٧ / ١٦] أي أوتينا من كل شيء شيئا. ومن قرأ بالتنوين ﴿مِنْ كُلٍ﴾ كان المفعول ملفوظا به ، أي وآتاكم ما سألتموه من كل شيء. و ﴿ما﴾ هاهنا : نكرة موصوفة ، و ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾ : جملة فعلية صفة لها.

البلاغة :

﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ صيغة مبالغة على وزن فعول وفعّال.

المفردات اللغوية :

﴿السَّماواتِ﴾ جمع سماء ، ولا نعرف حقيقتها ، ولكن كل ما علا الإنسان وأظله فهو سماء. ﴿رِزْقاً لَكُمْ﴾ الرزق : كل ما ينتفع به ، ويشمل المطعوم والملبوس. ﴿وَسَخَّرَ﴾ ذلل أو أعد ويسّر. ﴿الْفُلْكَ﴾ السفن. ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بإذنه أو بمشيئته إلى حيث توجهتم. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ﴾ جعلها معدة لانتفاعكم وتصرفكم. ﴿دائِبَيْنِ﴾ دائمين في الحركة أو السير ، والإنارة والإصلاح ، لا يفتران. ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ يتعاقبان ، فالليل للنوم والسكن فيه والنهار للمعاش وابتغاء الفضل. ﴿وَآتاكُمْ﴾ أعطاكم. ﴿ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ بلسان الحال ، على حسب مصالحكم. ﴿نِعْمَتَ اللهِ﴾ إنعامه ، وفيه دليل على أن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة. ﴿لا تُحْصُوها﴾ لا تطيقوا حصرها. ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ﴾ الكافر. ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي كثير الظلم لنفسه بالمعصية وإغفال شكرها ، وكثير الكفر أو الجحود لنعمة ربه.

المناسبة :

بعد أن أوضح الله تعالى أوصاف أحوال السعداء والأشقياء ، أتبعه بالأدلة الدالة على وجود الصانع وكمال علمه وقدرته ووحدانيته ، ليدل على وجوب شكر الصانع الموجد لها ، ويقرّع الكافرين الذين أعرضوا عن التفكر في تلك النعم.

التفسير والبيان :

يعدد الله تعالى في هذه الآيات نعمه على خلقه ، ويشير إلى دلائل وجوده وقدرته ، وهي عشرة أدلة :

١ ـ ﴿خَلَقَ السَّماواتِ﴾ : الله هو الذي خلق السموات سقفا محفوظا ، وزيّنها بزينة الكواكب.

٢ ـ وخلق الأرض فراشا وما فيها من المنافع الكثيرة لكم أيها الناس.

٣ . ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ﴾ : أي السحاب مطرا أحيا به الأرض بعد موتها ، وأنبت به الشجر والزرع ، وأخرج به ما يحتاجه الإنسان من الأرزاق للأكل والعيش ، بواسطة الثمار والزروع المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، كقوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً ، فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى﴾ [طه ٢٠ / ٥٣].

٤ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ : أي وذلل لكم السفن ، بأن ألهمكم صنعها ، وجعلها طافية على وجه الماء ، تجري في البحر من بلد لآخر للركوب والحمل ، بإذن الله ومشيئته.

٥ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهارَ﴾ : أي فجر لكم ينابيع الأنهار ، وشقّ الأرض من مسافة إلى مسافة ، للشرب وسقي الزروع والأشجار والبهائم وغيرها من المنافع.

٦ ، ٧ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دائِبَيْنِ﴾ : أي ذللهما وجعلهما يسيران في حركة دائمة ، لا يفتران ليلا ولا نهارا لإصلاح حياة الإنسان والنبات وغيرهما كما قال تعالى : ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس ٣٦ / ٤٠].

٨ ، ٩ . ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ : أي جعلهما يتعاقبان ، ويتعارضان ، فمرة يطول الليل كما في الشتاء ، ومرة يطول النهار كما في الصيف ، ويقصر الآخر ، وبالعكس ، والنهار للسعي والكسب والمعاش وشؤون الدنيا ، والليل للنوم والسبات والسكن فيه كما قال تعالى : ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّراتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبارَكَ اللهُ رَبُّ الْعالَمِينَ﴾ [الأعراف ٧ / ٥٤] وقال تعالى : ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ، وَأَنَ

اللهَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٩] وقال سبحانه : ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ، وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ [القصص ٢٨ / ٧٣].

١٠ . ﴿وَآتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ﴾ أي أعطاكم أيها البشر سؤلكم من كل ما شأنه أن يسأل ، ويحتاج إليه ، وينتفع به ، سواء سألتموه أو لم تسألوه ، أو أعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا ، والخطاب لجنس البشر ؛ لأن الله خلق لكم ما في الأرض جميعا ، وترك استخراجها واختراع ما يكتشف منها لعقولكم بمقتضى تطور العقل البشري ، وتقدم الحياة المدنية ، وبالتدريج ، وقد وصل الإنسان في القرن العشرين إلى قمة الاكتشاف والابتكار في مختلف المجالات ، معتمدا على طاقات البخار والهواء والنفط والكهرباء والذرة وغيرها.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها﴾ أي إن أردتم تعداد نعم الله المنعم بها عليكم لا تطيقوا حصرها لكثرتها. والنعمة هنا قائمة مقام المصدر ، بمعنى الإنعام ، كالنفقة والإنفاق ، ويدل ذلك على العموم ؛ لأن المفرد يفيد الاستغراق بالإضافة.

والمقصود من الجملتين الأخيرتين : ﴿وَآتاكُمْ .. وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ الإخبار عن عجز العباد عن تعداد النعم ، فضلا عن القيام بشكرها.

فبعد أن ذكر الله تعالى تلك النعم العظيمة ، أبان أنه لم يقتصر عليها ، بل أعطى عباده من المنافع ما لا يتأتى معه الإحصاء ، بقوله : ﴿وَآتاكُمْ ..﴾ ثم ختم الكلام بقوله : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا﴾ ليبين أنه آتى العباد من كل ما احتاجوا إليه ، مما لا تصلح الأحوال والمعيشة إلا به. قال طلق بن حبيب ﷺ تعالى : إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد ، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد ، ولكن أصبحوا تائبين ، وأمسوا تائبين. وفي صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ كان يقول : «اللهم لك الحمد غير مكفّي ، ولا مودّع ، ولا مستغنى عنه ربنا» وقال

الإمام الشافعي ﷺ تعالى : «الحمد لله الذي لا يؤدّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها».

﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ أي إن الإنسان يظلم النعمة بإغفال شكرها ، شديد الكفران لها ، والمراد بالإنسان هنا الجنس ، فلا يراد به الواحد ، بل يراد به الجمع ، أي توجد فيه هذه الخلال ، وهي الظلم والكفر ، يظلم النعمة بإغفال شكرها ، ويكفرها بجحدها.

ويلاحظ أنه تعالى قال هنا : ﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وقال في سورة النحل [١٨] : ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ، إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ والفرق بين الخاتمتين : أن الكلام هنا مناسب لتعداد قبائح الإنسان من كفران النعمة والظلم الذي هو الشرك ، وأما في سورة النحل فيناسب ما ذكر في الآية من تعداد فضائل الله على الإنسان ، ومنها اتصافه بالمغفرة والرحمة ، تحريضا على الرجوع إليه [١].

وقال الرازي عن الفرق بين الآيتين : كأنه تعالى يقول : إذا حصلت النعم الكثيرة ، فأنت الذي أخذتها ، وأنا الذي أعطيتها ، فحصل لك عند أخذها وصفان : وهما كونك ظلوما كفارا ، ولي وصفان عند إعطائها ، وهما كوني غفورا رحيما. والمقصود كأنه يقول : إن كنت ظلوما فأنا غفور ، وإن كنت كفارا فأنا رحيم ، أعلم عجزك وقصورك ، فلا أقابل تقصيرك إلا بالتوفير ، ولا أجازي جفاء إلا بالوفاء [٢].

---

(١) البحر المحيط : ٥ / ٤٢٨ ـ ٤٢٩

(٢) تفسير الرازي : ١٩ / ١٣٠ ـ ١٣١

فقه الحياة أو الأحكام :

أرشدتنا الآيات إلى ما يأتي :

١ ـ لقد أقام الله تعالى أدلة كثيرة على وجوده وقدرته وعلمه ووحدانيته ، منها هذه الأدلة العشرة التي ذكرها في الآية من خلق السموات والأرض ، وإنزال المطر من السحاب .. إلخ.

٢ ـ إن نعم الله تعالى على البشر لا تعد ولا تحصى لكثرتها ، ولدقة إدراكها وخفائها أحيانا ، كخزائن السموات والأرض ، وعجائب تكوين الإنسان ، وبخاصة دماغه وحواسه من سمع وبصر وملاحظة الصور ، وغير ذلك من نعمة العافية ، والإمداد بالرزق منذ كونه جنينا في بطن أمه ، إلى حين ولادته وطفولته ، إلى شبابه وكهولته وشيخوخته ، وتقلّبه في أنحاء الأرض ، إلى موته فلقاء ربه.

٣ ـ إن النعم على الإنسان من الله ، فلم يبدل نعمة الله بالكفر؟! وهلا استعان بها على الطاعة؟! إن من شأن الإنسان ظلم النعمة بإغفال شكرها ، وكفرانها وجحودها. والإنسان : جنس ، أراد به العموم ، وقال بعض المفسرين : وأراد به الخصوص كأبي جهل وجميع الكفار.

دعاء إبراهيم عليه السلام مستقبل البيت الحرام

﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنا

إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ وَما يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسابُ (٤١)﴾

الإعراب :

﴿أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ المفعول محذوف ، تقديره : أسكنت ناسا من ذريتي بواد.

﴿لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ متعلق بأسكنت ، وفصل بينهما بقوله : ﴿رَبَّنا﴾ لأن الفصل بالندا كثير في كلامهم.

﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي مقيمي الصلاة ، فحذف الفعل لدلالة ما قبله عليه.

البلاغة :

﴿تَبِعَنِي﴾ و ﴿عَصانِي نُخْفِي﴾ و ﴿نُعْلِنُ الْأَرْضِ﴾ و ﴿السَّماءِ﴾ بين كلّ طباق.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تهوي : فيه استعارة ؛ لأن حقيقة الهويّ النزول من علو إلى انخفاض ، كالهبوط ، والمراد : تسرع إليهم شوقا وحبا من مكان بعيد ، بعكس «تحنّ» فهو قد يكون من المقيم بالمكان.

﴿اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ﴾ عرّف البلد هنا ، ونكّر في سورة البقرة ﴿اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً﴾ لأنه في البقرة كان دعاؤه قبل بنائها ، فطلب أن تجعل بلدا وآمنا ، وهنا كان بعد بنائها ، فطلب أن تكون بلد أمن واستقرار.

المفردات اللغوية :

﴿هَـذَا الْبَلَدَ﴾ بلد مكة ﴿آمِناً﴾ ذا أمن لمن فيها ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ أبعدني. ﴿أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ عن أن نعبد. ﴿رَبِّ إِنَّهُنَ﴾ أي الأصنام ﴿أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ﴾ بعبادتهم لها ، فلذلك سألت منك العصمة ، واستعذت بك من إضلالهن ، وإسناد الإضلال إليهن باعتبار السببية. ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي﴾ على التوحيد ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ من أهل ديني. ﴿وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي ومن عصاني دون الشرك ، فإنك تقدر أن تغفر له وترحمه ابتداء ، أو بعد التوفيق للتوبة. وقوله : ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ معناه حين يؤمنوا ؛ لأنه أراد أن الله يغفر لكل كافر بعد إيمانه ما كان منه سابقا ، لكنه عليه السلام استعمل هذه العبارة التي ظاهرها أن كل ذنب فلله أن يغفره حتى الشرك ، بسبب ما كان يأخذ به نفسه من القول الجميل ، والنطق الحسن ، وجميل الأدب.

﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي بعضها ، وهو إسماعيل مع أمه هاجر. ﴿بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ أي مكة ، فإنها حجرية لا تنبت. ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ الذي حرمت التعرض له والتهاون به ، أو لم يزل معظما تهابه الجبابرة ، أو منع منه الطوفان ، فلم يستول عليه ، ولذلك سمي عتيقا ، أي أعتق منه. ﴿أَفْئِدَةً﴾ قلوبا. ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ بعضهم. ﴿تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ تسرع إليهم شوقا وحبا ، قال ابن عباس : لو قال : أفئدة الناس ، لحنّت إليه فارس والروم والناس كلهم. والمقصود من الدعاء لإقامة الصلاة : توفيقهم لها ، أو الدعاء لهم بإقامة الصلاة. ﴿وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَراتِ﴾ أي بالإنبات في الوادي مع سكناهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ تلك النعمة ، فأجاب الله تعالى دعوته ، فجعله حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء ، حتى توجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية والشتوية في يوم واحد.

﴿نُخْفِي﴾ نسرّ. ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ من : زائدة أو للاستغراق ، وقول ﴿وَما يَخْفى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ ..﴾ يحتمل أن يكون من كلامه تعالى أو كلام إبراهيم. والمقصود من قوله : ﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ﴾ أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا ، وأرحم منا بأنفسنا ، فلا حاجة لنا إلى الطلب ، لكنا ندعوك إظهارا لعبوديتك ، وافتقارا إلى رحمتك ، واستعجالا لنيل ما عندك. وتكرير النداء للمبالغة في التضرع واللجوء إلى الله تعالى ، والرغبة في الإجابة. وأتى بضمير جماعة المتكلمين لأنه تقدم ذكره وذكر بنيه.

﴿وَهَبَ لِي﴾ أعطاني. ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ مع الكبر ، ولد إسماعيل ولأبيه تسع وتسعون سنة ، وولد إسحاق ولأبيه مائة واثنتا عشرة سنة. ﴿اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ﴾ أي مواظبا عليها. ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل من ذريتي من يقيمها ، وأتى بمن لإعلام الله تعالى له أن منهم كفارا.

﴿وَلِوالِدَيَ﴾ هذا قبل أن يتبين له عداوتهما لله عزوجل ، وقيل : أسلمت أمه. وقيل : أراد بهما آدم وحواء. ﴿يَقُومُ الْحِسابُ﴾ يثبت ويتحقق ويوجد.

المناسبة :

بعد أن بيّن الله تعالى بالأدلة المتقدمة أنه لا معبود إلا الله سبحانه ، وأنه لا يجوز عبادة غيره تعالى أصلا ، وطلب من رسوله أن يعجب من حال قومه الذين عبدوا الأصنام ، أردف ذلك بذكر أصلهم إبراهيم ، وأنه دعا أن يجعل مكة بلد أمان واستقرار ، وأن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام ، وأنه أسكن بعض ذريته عند البيت الحرام ليعبدوه وحده بالصلاة التي هي أشرف العبادات ، وأنه شكر الله تعالى على منحه بعد الكبر واليأس من الولد ولدين هما إسماعيل وإسحاق ، وأنه طلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين يوم يوجد الحساب.

والخلاصة : إن إبراهيم عليه السلام هو القدوة والنموذج لعبادة الله عز وجل ، فليقتد به من ينتمون إليه.

التفسير والبيان :

هذا تذكير من الله تعالى واحتجاج على مشركي العرب بأن مكة البلد الحرام إنما وضعت منذ القدم على عبادة الله وحده لا شريك له ، وأن إبراهيم عليه السلام تبرأ ممن عبد غير الله ، وأنه دعا لمكة بالأمن والاستقرار في ظلّ التوحيد ، فقال : ﴿**رَبِّ اجْعَلْ ..**﴾ أي واذكر يا محمد لقومك حين دعا إبراهيم بقوله : ربي اجعل مكة بلدا آمنا أي ذا أمن واستقرار ، لا يسفك فيه دم ، ولا يظلم فيه أحد ، وقد أجاب الله دعاءه ، فجعله آمنا للإنسان والطير والنبات ، فلا يقتل فيه أحد ، ولا يصاد صيده ، ولا يختلى خلاه ، ولا يعضد شجره ، كما قال تعالى : ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنا حَرَماً آمِناً**﴾ [العنكبوت ٢٩ / ٦٧] وقال تعالى : ﴿**وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً**﴾ [آل عمران ٣ / ٩٧].

﴿**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ ..**﴾ أي وباعدني يا رب وبني من عبادة الأصنام ، واجعل عبادتنا خالصة لك على منهج التوحيد. وهذا دليل على أنه ينبغي لكل

داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته. وقد استجاب الله دعاه في بعض ذريته دون بعض. وكان هذا الدعاء حين ترك هاجر وابنه إسماعيل ، وهو رضيع ، في مكة ، قبل بناء البيت الحرام.

ثم ذكر أنه افتتن بعبادة الأصنام كثير من الناس فقال : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ ..﴾ أي يا رب إن الأصنام كانت سببا في ضلال كثير من الناس عن طريق الهدى والحق ، حتى عبدوهن. وقد أضيف الإضلال إلى الأصنام ؛ لأنها كانت سببا في الضلال عند عبادتها ، وذلك بطريق المجاز ، فإن الأصنام جمادات لا تفعل.

﴿فَمَنْ تَبِعَنِي ..﴾ أي فمن صدقني في ديني واعتقادي ، وسار على منهجي في الإيمان بك وبتوحيدك الخالص ، فإنه مني ، أي على سنتي وطريقتي ، مثل «من غشنا فليس منا» أي ليس على سنتنا ، ومن عصاني فلم يقبل ما دعوته إليه من التوحيد لك وعدم الشرك بك ، فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة.

وهذا صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة غير الكفار ؛ لأنه عليه السلام تبرأ في مقدمة هذه الآية عن الكفار بقوله : ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ ، ولأنه أيضا بقوله : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه ، فإنه ليس منه ، ولا يهتم بإصلاح شؤونه ، ولأن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة ، فكان قوله : ﴿وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ شفاعة في العصاة غير الكفار.

عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام : ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ ..﴾ الآية ، وقول عيسى عليه السلام : ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبادُكَ﴾ الآية ، ثم رفع يديه ، ثم قال : «اللهم أمتي ، اللهم أمتي ، اللهم أمتي» وبكى ، فقال الله تعالى : اذهب يا جبريل إلى محمد ، وربك

أعلم ، وسله ما يبكيك؟ فأتاه جبريل عليه السلام ، فسأله ، فأخبره رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما قال ، فقال الله تعالى : اذهب إلى محمد ، فقال له : إنا سنرضيك في أمتك ، ولا نسوؤك.

ثم دعا إبراهيم بدعاء ثان بعد بناء البيت الحرام لقوله : ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾. وبعد الدعاء الأول الذي كان قبل بناء البيت ، فقال : ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ ..﴾ أي يا ربنا إني أسكنت بعض ذريتي وهم إسماعيل ومن ولد منه ، بواد لا زرع فيه وهو وادي مكة ، عند بيتك المحرم أي الذي حرمت التعرض له والتهاون به ، وجعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ، فاجعل قلوب بعض الناس تسرع إليه شوقا ومحبة ، وتحن وتميل إلى رؤيته. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيرهم : لو قال : أفئدة الناس ، لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم ، ولكن قال : ﴿مِنَ النَّاسِ﴾ فاختص به المسلمون.

وارزق ذريتي من أنواع الثمار الموجودة في سائر الأقطار ، ليكون ذلك عونا لهم على طاعتك ، وكما أنه واد غير ذي زرع ، فاجعل لهم ثمارا يأكلونها.

وقد استجاب الله دعاءه ، كما قال : ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً ، يُجْبى إِلَيْهِ ثَمَراتُ كُلِّ شَيْءٍ ، رِزْقاً مِنْ لَدُنَّا﴾ [القصص ٢٨ / ٥٧] وتحقق فضل الله ورحمته وكرمه ، فبالرغم من أنه ليس في البلد الحرام : «مكة» شجرة مثمرة ، فإنه تجبى إليها ثمرات ما حولها من البلاد ، من أنواع ثمار الفصول الأربعة ، استجابة لدعاء الخليل عليه السلام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ أي وارزقهم من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمتك ، أو رجاء أن يشكروك بإقامة الصلاة وكثرة العبادة. وفيه إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو للاستعانة بها على أداء العبادات وإقامة الطاعات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ ..﴾ أي أنت تعلم قصدي في دعائي ، وهو التوصل إلى رضاك والإخلاص لك ، وأنت أعلم بأحوالنا ومصالحنا ، وتعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها ، لا يخفى عليك منها شيء في الأرض ولا في السماء ، فلا حاجة لنا إلى الطلب ، وإنما ندعوك إظهارا لعبوديتك ، وافتقارا إلى رحمتك ، واستعجالا لنيل ما عندك.

﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ ..﴾ أي ولا يغيب عن الله شيء في الأرض أو في السماء ، فكله مخلوق له ، وهو عالم به. وهذا من كلام الله عَزَّوَجَلَّ ، تصديقا لإبراهيم عليه السلام ، كقوله: ﴿وَكَذلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل ٢٧ / ٣٤] أو من كلام إبراهيم ، يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب والشهادة من شيء في كل مكان. و ﴿مِنْ﴾ للاستغراق ، كأنه قيل : وما يخفى عليه شيء ما.

ثم حمد إبراهيم عليه السلام ربه عَزَّوَجَلَّ على ما رزقه من الولد بعد الكبر ، فقال : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي ..﴾ أي الحمد والشكر كله لله الذي أعطاني ومنحني الولد بعد الكبر والإياس من الولد ، أعطاني ولدين هما إسماعيل وأمه هاجر وإسحاق وأمه سارّة. وقدم إسماعيل ؛ لأنه كان أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة. وقيل : لما ولد إسماعيل كان سن إبراهيم تسعا وتسعين سنة ، ولما ولد إسحاق كان سنه مائة واثنتي عشرة سنة.

وقوله : ﴿عَلَى الْكِبَرِ﴾ لأن المنة بهبة الولد في هذه السن أعظم ؛ إذ الظفر بالحاجة وقت اليأس من أعظم النعم ، ولان الولادة في تلك السن المتقدمة كانت آية لإبراهيم.

﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعاءِ﴾ أي إن الله ربي سامع دعائي وقولي ، ومجيب من دعاه ، وعالم بالمقصود ، سواء صرحت به أو لم أصرح. وقال هذا لما ذكر الدعاء على سبيل الرمز والتعريض ، لا على وجه الإيضاح والتصريح.

ومناسبة قوله : ﴿رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي ..﴾ لقوله : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي ..﴾ هو لمراعاة الأدب الجم مع الله تعالى ، فهو عليه السلام كان يريد أن يطلب من الله إعانة زوجه هاجر وابنه إسماعيل بعد موته ، ولكنه لم يصرح بهذا المطلوب ، بل ذكر أنك يا رب تعلم ما في قلوبنا وضمائرنا ، ثم نوّه بحال ذريته بعد موته ، فكان هذا دعاء لزوجه وابنه بالخير والمعونة بعد موته ، على سبيل الرمز والتعريض.

وذلك ـ كما قال الرازي ـ يدل على أن الاشتغال بالثناء عند الحاجة أفضل من الدعاء ، قال عليه الصلاة والسلام حاكيا عن ربه أنه قال فيما رواه البخاري والبزار والبيهقي عن ابن عمر : «من شغله ذكري عن مسألتي ، أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين».

ثم دعا بما يكون دليلا على شكر الله فقال : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ ..﴾ أي رب اجعلني مؤديا صلاتي على أتم وجه ، محافظا عليها ، مقيما لحدودها.

واجعل بعض ذريتي كذلك مقيمي الصّلاة ؛ لأن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض. وخص الصلاة بالذكر لأنها عنوان الإيمان ، ووسيلة تطهير النفوس من الفحشاء والمنكر.

﴿رَبَّنا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ﴾ أي اقبل يا رب دعائي ، أو عبادتي في رأي ابن عباس بدليل قوله تعالى : ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ [مريم ١٩ / ٤٨]. وقال رسول الله ﷺ فيما رواه الجماعة وغيرهم عن النعمان بن بشير : «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ : ﴿وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي ، سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي ..﴾ أي ربنا استرني وتجاوز عن ذنوبي وذنوب والدي وذنوب المؤمنين كلهم يوم يثبت ويوجد الحساب فتحاسب عبادك على أعمالهم

الخيرة والشريرة. قال الحسن : إن أمه كانت مؤمنة ، وأما استغفاره لأبيه فكان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين أنه عدو لله ، تبرأ منه ، كما قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة ٩ / ١١٤].

ودعاء إبراهيم لنفسه لا يلزم منه صدور ذنب منه ، وإنما المقصود منه الالتجاء إلى الله تعالى ، والاعتماد على فضله وكرمه ورحمته.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ تعليمنا طلب نعمة الأمان من الله ، فابتداء إبراهيم عليه‌السلام بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات ، وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به.

٢ ـ مشروعية الدعاء للنفس والذرية والبلاد ، بل ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته.

٣ ـ كان دعاء إبراهيم مركّزا حول إخلاص التوحيد لله عَزَّوَجَلَّ ، وتجنب عبادة الأصنام والأوثان ، التي كانت سببا في إضلال كثير من الناس ، فدعاؤه جمع بين طلب أن يرزق التوحيد ، وبين طلب صونه عن الشرك ، وتضمن أيضا طلب توفيقه لصالح الأعمال ، وتخصيصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة.

٤ ـ الالتفاف حول النبي أو المصلح واجب ؛ لقول إبراهيم : ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾.

٥ ـ طلب المغفرة للعصاة غير الكفار ؛ لأن الشرك أو الكفر لا يجوز

بالإجماع طلب إسقاطه ومغفرته ؛ لقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ، وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ﴾ [النساء ٤ / ٤٨].

٦ ـ إسكان إبراهيم زوجه وابنه إسماعيل عند البيت الحرام كان لإقامة الصلاة.

وقد روى البخاري عن ابن عباس ما مفاده أن إبراهيم ترك هاجر وابنها إسماعيل وهي ترضعه ، عند البيت ، عند دوحة فوق زمزم ، في أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد ، وليس بها ماء ، ووضع عندهما جرابا ، وسقاء فيه ماء ، ثم قفّى إبراهيم منطلقا ، فتبعته أم إسماعيل ؛ فقالت : يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء ، فقالت له ذلك مرارا ، وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت له : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم ، قالت : إذن لا يضيّعنا ؛ ثم رجعت ، فانطلق إبراهيم ، حتى إذا كان عند الثّنية حيث لا يرونه ، استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿رَبَّنا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾.

وبعد أن نفد ما في السقاء ، عطشت وعطش ابنها ، فجعلت تسعى سعي المجهود بين الصفا والمروة ، سبع مرات ، قال النبي ﷺ : «فذلك سعي الناس بينهما» ثم سمعت وهي على المروة صوتا ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ، فبحث بعقبه أو بجناحه ، حتى ظهر الماء. روى الدار قطني عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «ماء زمزم لما شرب له ، إن شربته تشتفي به شفاك الله ، وإن شربته لشبعك أشبعك الله به ، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه ، وهي هزمة [1] جبريل ، وسقيا الله إسماعيل».

---

(١) هزمة جبريل : أي ضربها برجله فنبع الماء.

٧ ـ لا يجوز لأحد أن يفعل فعل إبراهيم في طرح ولده وعياله بأرض مضيعة ، اتكالا على العزيز الرحيم ، واقتداء بفعل إبراهيم الخليل ، فإن إبراهيم فعل ذلك بأمر الله تعالى ، لقوله في الحديث : آلله أمرك بهذا؟ قال : نعم. وكان ذلك كله بوحي من الله تعالى.

٨ ـ تضمنت هذه الآية أن الصلاة بمكة أفضل من الصلاة بغيرها ؛ لأن معنى ﴿رَبَّنا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي أسكنتهم عند بيتك المحرم ليقيموا الصلاة فيه.

٩ ـ كان من بركة دعاء إبراهيم عليه السلام واستجابة الله له أن التعلق بالبيت الحرام وحبه والشوق إليه والحنين إلى زيارته متمكن في قلب كل مؤمن. وقال ابن عباس في الآية : ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً﴾ : سأل أن يجعل الله الناس يهوون السّكنى بمكة ، فيصير بيتا محرما ، وكل ذلك كان ، والحمد لله ، وأول من سكنه جرهم.

وأن مكة أصبحت ملتقى الأثمار والفواكه الآتية من كل الأنحاء والأمصار ، وأنبت الله لهم بالطائف سائر الأشجار.

١٠ ـ احتج أهل السنة بآية ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ﴾ على أن أفعال العبد مخلوقة الله تعالى ، وهذا يشمل ترك المنهيات المنصوص عليه في هذه الآية : ﴿وَاجْنُبْنِي﴾ وفعل المأمورات المنصوص عليه في آية : ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ وذلك تصريح بأن إبراهيم عليه السلام كان مصرا على أن الكل من خلق الله تعالى.

١١ ـ دلّ القرآن على أنه تعالى أعطى إبراهيم عليه السلام ولدين هما إسماعيل وإسحاق على الكبر والشيخوخة ، ولم يتعرض القرآن لسن إبراهيم في ذلك الوقت ، وإنما يؤخذ من روايات التاريخ.

ما يدل على وجود القيامة وأوصافها

أو تأخير عذاب القيامة وأحوال المعذبين وتبدل السموات والأرض

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ ما لَكُمْ مِنْ زَوالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَساكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ (٤٦) فَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفادِ (٤٩) سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ (٥١) هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٥٢)﴾

الإعراب :

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾ حال من ضمير ﴿يُؤَخِّرُهُمْ﴾ وتقديره : إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار في هاتين الحالتين.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ .. يَوْمَ﴾ : مفعول ﴿أَنْذِرِ﴾ الثاني ولا يجوز أن يكون ظرفا لأنذر ؛ لأنه يؤدي إلى أن يكون الإنذار يوم القيامة ، ولا إنذار يوم القيامة.

﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ﴾ فعل ماض فاعله مقدر ، أي تبين لكم فعلنا بهم ، ولا يجوز أن يكون ﴿كَيْفَ﴾ فاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ لأن الاستفهام لا يعمل فيما قبله ، ولأن ﴿كَيْفَ﴾ لا يقع مخبرا عنه ، والفاعل يخبر عنه ، وإنما ﴿كَيْفَ﴾ هنا منصوبة بقوله : ﴿فَعَلْنا﴾.

﴿لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ اللام لام الجحود ، والفعل منصوب بتقدير «أن». و «إن» بمعنى «ما» وتقديره : وما كان مكرهم لتزول منه الجبال ، على التصغير والتحقير لمكرهم. ومن قرأ بفتح اللام وضم آخر الفعل «لتزول» كانت اللام للتأكيد ، ودخلت للفرق بين «إن» المخففة من الثقيلة وبين «إن» بمعنى «ما» أي وإنه كان مكرهم لتزول منه الجبال. وكان هنا تامة بمعنى وقع ، والجبال : عبارة عن أمر النبي ﷺ لعظم شأنه.

﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي مخلف رسله وعده.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ ..﴾ يوم منصوب على الظرف بالمصدر قبله ، وهو ﴿انتِقامٍ﴾. وما بعد ﴿وَالسَّماواتُ﴾ محذوف أي غير السموات ، لدلالة ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ عليه.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ ..﴾ اللام تتعلق بفعل ﴿وَتَغْشى﴾ أو بفعل ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ﴾ أو بمحذوف دل عليه قوله : ﴿ذُو انتِقامٍ﴾.

﴿وَلِيُنْذَرُوا﴾ فيه تقدير ، أي هذا بلاغ للناس وللإنذار ؛ لأن «أن» المقدّرة بعد اللام مع «ينذروا» في تأويل المصدر ، وهو الإنذار. أو تقديره : هذا بلاغ للناس وأنزل لينذروا به ، كقوله تعالى : ﴿كِتابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ ، فَلا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ﴾ [الأعراف ٧ / ٢].

البلاغة :

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ فيه جناس الاشتقاق.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾ حذف منه : «والسموات تبدل غير السموات» لدلالة ﴿غَيْرَ الْأَرْضِ﴾.

﴿وَبَرَزُوا﴾ عبر بالماضي محل المضارع «يبرزون» للدلالة على تحقق الوقوع ، مثل ﴿أَتى أَمْرُ اللهِ﴾ [النحل ١٦ / ١] أي فكأنه حدث ووقع ، فأخبر عنه بصيغة الماضي.

المفردات اللغوية :

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ ..﴾ خطاب لرسول الله ﷺ ، والمراد تثبيته على ما هو عليه من أنه مطلع

على أحوالهم وأفعالهم ، لا يخفى عليه خافية ، والوعيد بأنه معاقبهم على قليله وكثيره لا محالة ، أو هو خطاب لكل من توهم غفلته جهلا بصفات الله واغترارا بإمهاله. ﴿إِنَّما يُؤَخِّرُهُمْ﴾ يؤخر عذابهم. أماكنها ، لهول ما ترى ، يقال : شخص بصر فلان ، أي فتحه فلم يغمضه. ﴿مُهْطِعِينَ﴾ مسرعين إلى الداعي ومقبلين ، وأصله الإقبال على الشيء. ﴿مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾ أي رافعيها إلى السماء ناظرة أمامها. ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ لا يرجع إليهم بصرهم ، بل تبقى عيونهم شاخصة لا تطرف. ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ قلوبهم خالية من العقل والفهم لفزعهم ، وفرط الحيرة والدهشة.

﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ خوف يا محمد الكفار. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ﴾ هو يوم القيامة ، أو يوم الموت ، فإنه أول أيام عذابهم. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر أو الشرك والتكذيب. ﴿رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أخر العذاب عنا ، وردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا إلى حد من الزمان قريب ، أو أخر آجالنا وأبقنا مقدار ما نؤمن بك ، ونجيب دعوتك بالتوحيد. ﴿وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ الذين أرسلتهم ، وهذا وما قبله جواب الأمر ، ونظيره : ﴿لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقين ٦٣ / ١٠].

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ يقال لهم توبيخا ، أي حلفتم أنكم باقون في الدنيا لا تزالون بالموت. ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في الدنيا. ﴿مِنْ زَوالٍ مِنْ﴾ : زائدة ، أي زوال عن الدنيا إلى الآخرة. ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بالكفر والمعاصي كعاد وثمود. ﴿كَيْفَ فَعَلْنا بِهِمْ﴾ من العقوبة وما تشاهدونه في منازلهم من آثار ما نزل بهم ، فلم تنزجروا. ﴿وَضَرَبْنا لَكُمُ الْأَمْثالَ﴾ بينا لكم الأمثال في القرآن فلم تعتبروا ، وأنكم مثلهم في الكفر والعذاب. ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ بالنبي ﷺ حيث أرادوا قتله أو تقييده أو إخراجه ، وبذلوا فيه غاية جهدهم لإبطال الحق وتقرير الباطل. ﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي علمه أو جزاؤه. ﴿وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبالُ﴾ أي وما كان مكرهم ، وإن عظم ، معدّا لإزالة الجبال ، أي لا يعبأ به ولا يضر إلا أنفسهم ، فهم مكروا ليزيلوا ما هو كالجبال الراسية ثباتا وتمكنا ، والمراد بالجبال هنا : حقيقتها ، وقيل : شرائع الإسلام المشبهة بها في القرار والثبات. ومن قرأ بفتح لام ﴿لِتَزُولَ﴾ ورفع الفعل ، فتكون «إن» مخففة ، والمراد تعظيم مكرهم ، مثل قوله تعالى : ﴿تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبالُ هَدًّا﴾ [مريم ١٩ / ٩٠].

﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ بالنصر. ﴿عَزِيزٌ﴾ غالب لا يعجزه شيء ﴿ذُو انتِقامٍ﴾ قادر من الانتقام لأوليائه من أعدائه وكل من عصاه. ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ﴾ اذكر ذلك وهو يوم القيامة ، فيحشر الناس على أرض بيضاء نقية ، كما في حديث الصحيحين. ﴿وَبَرَزُوا﴾ خرجوا من القبور. ﴿وَتَرَى﴾ تبصر يا محمد. ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ الكافرين. ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي مشدودين مع بعض أو مع

شياطينهم. ﴿فِي الْأَصْفادِ﴾ في القيود أو الأغلال ، جمع صفد. ﴿سَرابِيلُهُمْ﴾ قمصهم ، جمع سربال وهو القميص. ﴿مِنْ قَطِرانٍ﴾ لأنه أبلغ لاشتعال النار ، والقطران : أسود منتن ، تشتعل فيه النار بسرعة ، يطلى به جلود أهل النار ، حتى يكون طلاؤه لهم كالقمص ، ليجتمع عليهم لذع القطران ، ووحشة لونه ، ونتن ريحه ، مع إسراع النار في جلودهم. والقطران : دهن يتحلب من شجر العرعر والتوت ، كالزفت ، تدهن به الإبل حال الجرب ، ويقال له : الهناء ، تهنأ به الإبل الجربي ، أي تطلي. ﴿وَتَغْشى﴾ تعلو وتحيط بها.

﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ﴾ متعلق بقوله : ﴿وَبَرَزُوا﴾ ، فتجازى كل نفس مجرمة أو مطيعة بما فعلت في الدنيا من خير أو شر. ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ يحاسب جميع الخلق ، في قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، لحديث ورد بذلك. ﴿هذا﴾ القرآن. ﴿بَلاغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي أنزل لتبليغهم ، وهو كفاية في العظة والتذكير. ﴿وَلِيَعْلَمُوا﴾ بما فيه من الحجج. ﴿أَنَّما هُوَ﴾ أن الله إله واحد. ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ وليتعظ. ﴿أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أصحاب العقول.

المناسبة :

بعد أن ذكر الله تعالى دلائل التوحيد ، وبعد أن حكى عن إبراهيم أنه طلب من الله أن يصونه من الشرك وأن يوفقه لصالح الأعمال ، وأن يخصه بالرحمة والمغفرة يوم القيامة ، ذكر ما يدل على وجود يوم القيامة بقوله : ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وما يدل على صفة يوم القيامة بقوله : ﴿تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصارُ ..﴾ إلخ.

التفسير والبيان :

ولا تحسبن يا محمد أن الله إذا أنظر الناس وأخر عنهم العذاب إلى يوم القيامة ، أنه غافل عنهم ، مهمل لهم ، لا يعاقبهم على صنعهم ، بل هو يحصي ذلك عليهم ، ويعده عليهم عدا. والمقصود من الآية إثبات وجود يوم القيامة بطريق التنبيه على أنه تعالى سينتقم للمظلوم من الظالم.

وهو وإن كان خطابا للنبي ﷺ صورة ، فالمراد به أمته ، بأسلوب «إياك أعني واسمعي يا جارة». وفيه تسلية للمؤمنين ، وتهديد للظالمين بأن الله يحصي

عليهم أعمالهم ويعلم بها ، وسيجزيهم على ظلمهم في الوقت المناسب ، فعقابهم آت لا محالة ؛ لأن العلم بالظلم الصادر منهم موجب لعقابهم.

ثم بيّن الله تعالى أنه إنما يؤخر عقاب هؤلاء الظالمين ليوم موصوف بالصفات التالية :

١ ـ أنه تشخص فيه الأبصار ، أي أنه يمهلهم ويؤخرهم ليوم شديد الهول ، ومن شدة أهواله تظل الأبصار فيه مفتوحة لا تطرف ولا تغمض ، من شدة الفزع والحيرة والدهشة. ثم وصف كيفية قيامهم من قبورهم وعجلتهم إلى قيام المحشر ، فقال :

٢ ـ ﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي أنهم يأتون من قبورهم إلى المحشر مسرعين بالذل والمهانة ، كما قال تعالى : ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ [القمر ٥٤ / ٨] وقال سبحانه : ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْواتُ لِلرَّحْمنِ ، فَلا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً﴾ إلى قوله : ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ..﴾ [طه ٢٠ / ١٠٨ ـ ١١١] وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ سِراعاً ..﴾ [المعارج ٧٠ / ٤٣].

٣ ـ ﴿مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ﴾ أي رافعي رؤوسهم ، ينظرون في ذل وخشوع ، ولا يلتفتون إلى شيء.

٤ ـ ﴿لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم ، بل تظل أبصارهم شاخصة مفتوحة تديم النظر ، لا يطرفون ولا يغمضون ، لكثرة ما هم فيه من شدة الهول والفزع ، والمراد من هذه الصفة دوام الشخوص.

٥ ـ ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَواءٌ﴾ أي وقلوبهم خاوية خالية لا شيء فيها من القوة ، مضطربة ، لكثرة الخوف. والمراد أن قلوب الكفار خالية من الخواطر ؛ لعظم الحيرة ، ومن كل رجاء وأمل ؛ لما تحققوه من العقاب ، وخالية من كل سرور ؛ لكثرة الحزن.

ووقت حصول هذه الأوصاف عند المحاسبة ؛ لأنه تعالى ذكر هذه الصفات عقب وصف ذلك اليوم بأنه يوم يقوم الحساب.

ثم ذكر تعالى مقالة هؤلاء المعذبين حين رؤية الهول ، فقال : ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذابُ ..﴾.

أي وخوّف أيها النبي الناس جميعا من أهوال عذاب يوم القيامة ، حين يقول الذين ظلموا أنفسهم عند معاينة العذاب هلعا وجزعا : ﴿رَبَّنا أَخِّرْنا إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أي ردنا إلى الدنيا ، وأمهلنا إلى وقت آخر قريب العودة إليك ، نتدارك فيه ما فرطنا في الدنيا ، من إجابة دعوتك إلى التوحيد وإخلاص العبادة لك ، واتباع رسلك فيما أرسلتهم به ، مثل قوله تعالى : ﴿لَوْ لا أَخَّرْتَنِي إِلى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون ٦٣ / ١٠] وكقوله : ﴿حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ : رَبِّ ارْجِعُونِ ، لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ ..﴾ [المؤمنون ٢٣ / ٩٩ ـ ١٠٠].

فرد الله تعالى عليهم موبخا لهم بقوله : ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ ..﴾ أي أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحالة حينما كنتم في الدنيا : أنكم إذا متم لا زوال لكم عما أنتم فيه ، وأنه لا معاد ولا جزاء ، أي كنتم تنكرون البعث والحساب ، وتزعمون أنه لا انتقال لحياة أخرى ، كقوله تعالى : ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ ، لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ [النحل ١٦ / ٣٨] فذوقوا هذا العذاب بذلك الإنكار.

﴿وَسَكَنْتُمْ ..﴾ أي والحال أنكم أقمتم في الظلم والفساد ، وصاحبتم الظالمين لأنفسهم ، وسرتم سيرتهم ، بالرغم من أنه تبين لكم ، ورأيتم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقاب لتكذيبهم وجحودهم وصدودهم عن دعوة الحق ، وعاينتم آثار عذابهم ، وظهر لكم أن عاقبتهم آلت إلى الوبال والخزي والنكال ، وضربنا لكم الأمثال ، وهو ما أورده الله في القرآن مما يعلم به أنه قادر على الإعادة ، كما قدر على الابتداء ،

وقادر على التعذيب المؤجل ، كما يفعل الهلاك المعجل ، وذلك في كتاب الله كثير ، ولكنكم لم تعتبروا ولم تتعظوا ، فلم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر ، فكيف تطلبون العودة والتأخير للتوبة؟! وقد فات الأوان.

ثم بيّن الله تعالى تشابه أحوالهم مع أحوال السابقين ، فقال : ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي إن هؤلاء الذين سكنوا في مساكن الذين ظلموا أنفسهم لم تتغير حالهم عن حال من سبقهم ، فإنهم مكروا مكرهم جهد طاقتهم في إبطال الحق وتقرير الباطل ، ﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي وعند الله العلم بمكرهم ، أو جزاؤهم ، فكل شيء معلوم منهم ، ومكتوب ومسجل عليهم ، وسيجازيهم عليه الجزاء العادل ، ويحاسبهم الحساب الشديد.

ثم ذكر الله تعالى وقت انتقامه فقال : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ ..﴾ أي إن الله تعالى ذو انتقام من أعدائه ، ووعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، فتصبح على غير الصفة المألوفة المعروفة ، وتبدل أيضا السموات غير السموات ، أما ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ [نوح ٧١ / ٢٢] فمحال أن تزول الجبال بمكرهم ، والمراد بالجبال آيات الله وشرائعه ؛ لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتا وتمكنا ، فهذا الذي فعلوه بأنفسهم من شركهم بالله وكفرهم به ، ما ضر ذلك شيئا من الجبال ولا غيرها ، وإنما ضر أنفسهم ، وعاد وبال ذلك عليهم. والمقصود تصغير مكرهم وتحقيره وتهوينه ، فليس من شأنه إزالة الآيات وإبطال النبوات الثابتة ثبوت الجبال ، والجبال لا تزول ، ولكن العبارة مجاز عن تعظيم الشيء ووصفه كيف يكون.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تحسبن أيها الرسول أن الله مخلف رسله وعده ، بل هو منجز لهم ما وعدهم به ، والمراد تثبيت أمته على الثقة بوعد ربه بنصرهم وتعذيب الظالمين ، كما قال : ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ، إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ

﴿عَزِيزٌ﴾ [المجادلة ٥٨ / ٢١] وقال : ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ﴾ [غافر ٤٠ / ٥١] وآية ﴿فَلا تَحْسَبَنَ﴾ هنا هي تقرير وتأكيد لهاتين الآيتين ، أي من نصرتكم في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد.

﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقامٍ﴾ أي إن الله ذو عزة وقدرة لا يعجزه ولا يمتنع عليه شيء أراده ، وشاء عقوبته ، وهو ذو انتقام ممن كفر به وجحده ، أو أشرك معه إلها آخر. وهذه خاتمة مناسبة للآية ، تؤكد الحرص على إنجاز الوعد للرسل.

ثم ذكر تعالى وقت انتقامه فقال : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ ..﴾ أي إن الله تعالى ذو انتقام من أعدائه ، ووعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض ، فتصبح على غير الصفة المألوفة المعروفة ، وتبدل أيضا السموات غير السموات ، أما الأرض الحالية فتصبح كالدخان المنتشر ، وأما السموات فتتبدد كواكبها وشمسها وقمرها.

جاء في الصحيحين عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقيّ ، ليس فيها معلم لأحد».

وروى أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه عن عائشة قالت : «سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّماواتُ﴾ : أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال : على الصراط».

واختلف العلماء في تبديل الأرض والسموات ، فقيل : تبدّل أوصافها فتسيّر عن الأرض جبالها ، وتفجّر بحارها وتسوّى ، فلا يرى فيها عوج ولا أمت [١] ،

---

(١) الأمت : المكان المرتفع والتلال الصغار ، والانخفاض والارتفاع.

قال ابن عباس : هي تلك الأرض ، وإنما تغير. وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها وخسوف قمرها وانشقاقها.

وقيل : يخلق بدلها أرضا وسموات أخر ، عن ابن مسعود وأنس : «يحشر الناس على أرض بيضاء ، لم يخطئ عليها أحد خطيئته» [١].

والعلماء يقررون أن الأرض والكواكب كانت كتلة ملتهبة في الفضاء ، ثم انفصلت عنها الشمس والكواكب السيارة ، ثم الأرض ، ثم الأقمار. وستنحل هذه المجموعة ، وتكون سموات غير هذه السموات ، وأرض غير هذه الأرض.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ أي وخرجت الخلائق جميعها من قبورهم انتظارا لحكم الله الوحد ، الذي قهر كل شيء وغلبه ، كما قال تعالى : ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ؟ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر ٤٠ / ١٦] وفي هذا تهويل وتخويف.

ولما وصف الله تعالى نفسه بكونه قهارا ، أبان عجز الناس وذلتهم أمامه ، وذكر من صفاتهم :

١ ـ كون المجرمين مقرنين في الأصفاد ، أي ترى يا محمد المجرمين وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم مقيدين بعضهم إلى بعض في الأغلال أو القيود ، فيجمع بين النظراء أو الأشكال ، كل صنف إلى صنف ، كما قال تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ﴾ [الصافات ٣٧ / ٢٢] وقال : ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير ٨١ / ٧] أي تقرن نفوس المؤمنين بالحور العين ، ونفوس الكافرين بالشياطين وقال : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيها هُمْ وَالْغاوُونَ﴾ [الشعراء ٢٦ / ٩٤].

٢ ـ ﴿سَرابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرانٍ﴾ أي قمصهم من القطران ، والمراد أن جلود أهل النار تطلي بالقطران ، حتى تصبح كالسرابيل ، ليحصل بسببها أربعة أنواع

---

(١) الكشاف : ٢ / ١٨٥

من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع النار في جلودهم ، واللون الوحش ، ونتن الريح. وأيضا التفاوت بين قطران القيامة وقطران الدنيا كالتفاوت بين النارين.

٣ . ﴿وَتَغْشى وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾ أي تحيط النار بأجسامهم ، وإنما ذكرت الوجوه ؛ لأنها أشرف الأعضاء وأعزها ، مثل قوله تعالى : ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ، وَهُمْ فِيها كالِحُونَ﴾ [المؤمنون ٢٣ / ١٠٤] وقوله : ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذابِ يَوْمَ الْقِيامَةِ﴾ [الزمر ٣٩ / ٢٤] وقوله : ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ، ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر ٥٤ / ٤٨].

ثم بين الله تعالى سبب الجزاء فقال : ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ﴾ أي أنه تعالى فعل كل ذلك ليجزي يوم القيامة كل شخص بما يليق بعمله وكسبه ، من خير أو شر ، فيعاقب المجرمين أو الكفار على كفرهم ومعصيتهم ، ويثيب المؤمنين على إيمانهم وطاعتهم ، كما قال تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم ٥٣ / ٣١].

ثم قال سبحانه : ﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسابِ﴾ أي إنه تعالى يحاسب جميع العباد بسرعة وهي في قدر نصف نهار من أيام الدنيا ، كما جاء في الحديث ، ولا يظلم الناس ولا يزيد في عقابهم الذي يستحقونه ، وهو سريع الإنجاز ؛ لأنه يعلم كل شيء ولا تخفى عليه خافية ، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم ، كقوله تعالى : ﴿ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ﴾ [لقمان ٣١ / ٢٨] ، وهو سريع الإحصاء.

ثم قال تعالى : ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ﴾ أي هذا القرآن بلاغ للناس أي تبليغ وكفاية في الموعظة ، كما قال تعالى : ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام ٦ / ١٩] أي هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجن.

﴿وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ أي ليكون منذرا لهم بالعقاب ومحذرا من العذاب ، وهو معطوف على محذوف أي لينتصحوا ولينذروا بهذا البلاغ.

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ واحِدٌ﴾ أي وليستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو.

﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ أي وليتذكر ويتعظ به ذوو العقول أي أن لهذا البلاغ ثلاث فوائد : وهي التخويف من عذاب الله ، والاستدلال به على وجود الخالق ووحدانيته ، والاتعاظ به وإصلاح شؤون الإنسان.

فقه الحياة أو الأحكام :

دلت الآيات على ما يأتي :

١ ـ وجود يوم القيامة بنحو مؤكد مقطوع به ، أما تأخير العذاب الشديد ليوم القيامة فلحكمة إلهية يعود نفعها إلى مصلحة العباد ، كيلا يعجل بعقابهم وتترك الفرصة لهم لإصلاح أحوالهم ، فليس تأخير العذاب للرضا بأفعالهم ، بل سنة الله إمهال العصاة مدة. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ عما ساءه من إعراض المشركين عن الإيمان بدعوته ، قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالمين ، وتعزية للمظلوم.

٢ ـ يسيطر على يوم الحساب الحيرة والدهشة ، والخوف والفزع ، والاضطراب والقلق ، فترى المجرمين حيارى لا تغمض أعينهم من هول ما يرونه في ذلك اليوم ، ويسرعون في الخروج من القبور إلى مكان دعاء الداعي لهم بالتجمع في موقف الحساب ، ناظرين من غير أن يطرفوا ، ورافعي رؤوسهم ينظرون في ذل واستكانة ، لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر ، فهي شاخصة النظر ، وأفئدتهم خاوية خربة ليس فيها خير ولا عقل ، ولا وعي ولا فهم من شدة

٣ ـ لا مناص من العذاب يوم القيامة ولا مفر منه ، ولا أمل ولا رجاء في العودة إلى الدنيا لإصلاح الاعتقاد والأقوال والأفعال.

٤ ـ ما أكثر المواعظ والعبر وأقل الاتعاظ والاعتبار!! فقد سكن الناس في مساكن الظالمين ، في بلاد ثمود ونحوها ، ولم يعتبروا بمساكنهم ، بعد ما تبين ما فعل الله بهم ، وبعد أن ضرب الله لهم الأمثال في القرآن للعظة والعبرة.

٥ ـ لا جدوى من مكر الكافرين الشديد بالشرك بالله وتكذيب الرسل والمعاندة ، فعند الله العلم التام بمكرهم ، وهو مجازيهم عليه. ومكرهم حقير مهين لا يؤدي إلى شيء ، من إزالة جبال الأرض ، وإزاحة الإسلام والقرآن الثابتين ثبوت الجبال الراسيات ، وقد حفظ الله رسوله ﷺ من ألوان مكرهم.

٦ ـ الله تعالى منجز وعده لرسله وأوليائه لا محالة ، ولن يخلف الله وعده بنصر أهل الحق وعقاب المبطلين ، والله تعالى قوي غالب منتقم من أعدائه ، ومن أسمائه : المنتقم الجبار.

٧ ـ تتبدل الأرض والسموات يوم القيامة ، وتبدل الأرض في رأي الأكثرين : عبارة عن تغير صفاتها ، وتسوية آكامها ، ونسف جبالها ، ومدّ أرضها. وتبدل السموات : انتثار كواكبها وتصدعها وانشقاقها وتكوير شمسها وخسوف قمرها.

٨ ـ للمجرمين في النار صفات كئيبة ، فهم مقيدون بالأغلال والقيود ، وتطلي جلودهم بالقطران ، وتضرب الناس وجوههم فتغشّيها وتحيط بها وبجميع أجسادهم.

٩ ـ إن حشر الناس يوم المعاد لإنصاف الخلائق وإقامة صرح العدل المطلق بينهم ، ومجازاة كل امرئ بما عمل ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر.

١٠ ـ القرآن وما فيه من عظات تبليغ للناس وعظة ، وإنذار وتخويف من عقاب الله عَزَّوَجَلَّ ، ومصدر للعلم بوحدانية الله بما تضمنه من الحجج والبراهين ، وموعظة يتعظ به أصحاب العقول. روى يمان بن رئاب أن هذه الآية ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ ..﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . وسئل بعضهم ، هل لكتاب الله عنوان؟ فقال : نعم ؛ قيل : وأين هو؟ قال : قوله تعالى : ﴿هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ﴾ إلى آخرها.

١١ ـ هذه الآية الأخيرة من السورة دالة على أنه لا فضيلة للإنسان ولا منقبة له إلا بسبب عقله ؛ لأنه تعالى بيّن أنه إنما أنزل هذه الكتب ، وإنما بعث الرسل لتذكير أولي الألباب.

١٢ ـ أول هذه السورة مقرون بآخرها ومطابق له في المعنى ، فأولها : ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ﴾ يدل على أن المقصود من إنزال الكتاب إرشاد الخلق كلهم إلى الدين والتقوى ومنعهم عن الكفر والمعصية ، وآخر السورة : ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾ يدل على أنه تعالى ذكر هذه المواعظ والنصائح لينتفع الخلق بها ، فيصيروا مؤمنين مطيعين ، ويتركوا الكفر والمعصية.

فهرس

الجزء الثالث عشر

الموضوع الصفحة

تتمة الفصل الثامن من قصة يوسف

٢ ـ النفس الأمارة بالسوء ٥

الفصل التاسع من قصة يوسف ـ في رئاسة الحكم وزارة المالية ٧

الفصل العاشر من قصة يوسف ـ أولاد يعقوب يشترون القمح من أخيهم ١٣
يوسف ومطالبته إياهم بإحضار أخيهم

الفصل الحادي عشر من قصة يوسف ـ مفاوضة أخوة يوسف أباهم لإرسال.....١٨
أخيهم بنيامين معهم معهم في المرع القادمة

الفصل الثاني عشر من قصة يوسف ـ وصية يعقوب لأولاده بالدخول إلى ٢٣
مصر من أبواب متفرقة

الفصل الثالث عشر من قصة يوسف ـ معرفة يوسف أخاه بنيامين.....٢٨
واتخاذه التدابير لابقائه لديه

الفصل الرابع عشر من قصة يوسف ـ نقاش حماد بني أولاد يعقوب وبين ٣٧
يوسف وبين أبيهم حول السرقة المزعومة

الفصل الخامس عشر من قصة يوسف ـ تعرّف أولاد بعقوب على يوسف ٥٢
في المرة الثالثة واعترافهم بخطئهم وعدوه عنهم

الفصل السادس عشر من قصة يوسف ـ إخبار يعقوب يريج يوسف.....٦٢
وتأييده ببشارة البشير

الفصل السابع عشر من قصة يوسف ـ لقاء أسرة يعقوب عليه السلام في مصر ٦٧
الفصل الثامن عشر من قصة يوسف ـ دعاء جامع يتضمن تحدث يوسف.....٧٣
بنعم الله عليه وطلبه من ربه حسن الخاتمة
الفصل التاسع عشر من قصة يوسف ـ إثبات نبوة محمد ﷺ ٧٦
الإخبار عن المغيبات والإعراض عن التأمل في الآيات ودعوة النبي إلى التوحيد.....٧٦
الفصل العشرون من قصة يوسف ـ العبرة من القصص القرآنى ٨٥
سورة الرعد ٩٦
تسميتها ومناسيتها لما قبلها.....٩٦
ما اشتملت عليه السورة.....٩٧
القرآن حق.....٩٨
بعض مظاهر قدرة الله في السموات والأرض..... ١٠١
إنكار المشركين البعث واستعجالهم العذاب ومطالبتهم بإنزال آية مادية ١٠٩
على النبي ﷺ
بعض مظاهر علم الله المحيط بكل شيء.....١١٨
مظار ألوهية الله وربوبيته وقدرته ١٢٨
وحدانية الله ومثل المؤمن والمشرك تجاه الوحدانية.....١٤٨
مثل الحق والباطل ومال السعداء والأشقياء.....١٤٣
أوصاف أولى الألباب السعداء وجزاؤهم..... ١٥٠
الرزق على الله والآيات بيد الله والهداية من الله لمن آمن به..... ١٦١
محمد صاحب الرسالة والرسول وبيان عظمة القرآن وقدرة الله الشاملة.....١٦٧
صفة الجنة وموقف أهل الكتاب من نبوة النبي ﷺ وشبهات المشركين حولها.....١٧٨
مهمة الرسول تبليغ الشريعة والله شاهد له ومحاسب وحاكم بين العباد ١٩٠
ومحبط مكر الكفار

سورة إبراهيم ١٩٧
تسميتها ومناستها لما قبلها ١٩٧
ما اشتملت عليه هذه السورة ١٩٨
الغاية من إنزال القرآن وذم الكافرين وكون الرسول بلسان قومه ١٩٩
مهمة الرسول موبى عليه السلام ونصائحه لقومه ٢٠٧
بعض أخبار الرسل السابقين مع أممهم ٢١٤
تهديد الكفار لرسلهم بالطرد أو الردة والوحي بأن العاقبة للأنبياء ٢٢٣
دليل وحدانية الله ووجوده وقدرته على معاد الأبدان ٢٣١
الحوار بين الأشقياء يوم العذاب والمناظرة بين الشيطان وأتباعه وظفر ٢٣٣
السعداء بالجنة
مثال الكلمة الطيبة من السعداء ومثال الكلمة الخبيثة من الأشقياء ٢٤١
كفران النعمة واتخاذ الأنداد وتهديد الكافر بالتمتع بنعيم الدنيا وأمر ٢٤٨
المؤمنين بإقالة الصلاة والإنفاق
أدلة وجود الله والتوحيد في الكون والأنفس ٢٥٣
دعاء إبراهيم عليه السلام مستقبل البيت الحرام ٢٥٨
ما يدل على وجود القيامة وأوصافها أو نأخير عذاب القيامة وأحوال ٢٦٩
المعذبين وتبدل السموات والأرض